
دار غرب المتوسط
للنشر والتوزيع
في
النفس
والمجتمع
محمد قطب
وعي
إيمان
قيم
تربية
تهذيب
إنسان
علاقة
مسؤولية
أمـة
عمران
لا صلاح للمجتمع إلا بصلاح النفس
ولا صلاح للنفس إلا بوعي دورها في المجتمع

في النفس والمجتمع

للشيخ

محمد قطب

حفظه الله

مركز غرب المتوسط الدولي
للدراسات والإعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)

صدق الله العظيم

مقدمة إلى الناشر

يأتي كتاب «في النفس والمجتمع»للشيخ محمد قطب بوصفه عملاً فكرياً وتأملياً يتجاوز حدود الوعظ التقليدي إلى محاولة جادة لفهم الإنسان في أعمق أبعاده النفسية والاجتماعية والحضارية. فالكتاب لا يكتفي بتقديم رؤى دينية مجردة، بل يسعى إلى بناء تصور متكامل لطبيعة الإنسان، وللعلاقة الدقيقة بين العقيدة والسلوك، وبين الإيمان وبناء المجتمع، وبين العلم الحديث واحتياجات الروح الإنسانية.

تكمن أهمية هذا العمل في أنه كُتب في مرحلة شهد فيها العالم تحولات فكرية عميقة؛ حيث تصاعدت النزعات المادية، وارتفعت مكانة العلم بوصفه المرجعية الوحيدة لفهم الكون والإنسان، بينما تراجعت القيم الروحية في نظر كثيرين إلى الهامش. ومن هنا ينطلق المؤلف ليطرح سؤالاً جوهرياً لا يزال يحتفظ براهنيته حتى اليوم: هل يستطيع الإنسان أن يبني حضارة متوازنة بالعلم وحده، بعيداً عن العقيدة والقيم الروحية؟

يعالج الكتاب هذا السؤال من خلال رؤية تحليلية تربط بين الأزمات النفسية والاجتماعية التي يعيشها الإنسان المعاصر وبين فقدان التوازن الداخلي الناتج عن غياب الإيمان بوصفه قوة توجيه وضبط وبناء. فالكاتب يرى أن التقدم العلمي، على الرغم من ضرورته وأهميته، لا يكفي وحده لصناعة إنسان سعيد أو مجتمع متماسك، ما لم يكن مرتبطاً بمنظومة أخلاقية وروحية تحفظ للإنسان إنسانيته وتمنحه المعنى والغاية.

ومن أبرز ما يميز هذا الكتاب أنه لا يتعامل مع العقيدة باعتبارها فكرة تجريدية أو شعائر منفصلة عن الحياة، بل يقدّمها باعتبارها محوراً مركزياً لتنظيم السلوك الفردي والاجتماعي، وعنصراً فاعلاً في بناء الحضارة. ولهذا فإن المؤلف يخوض في قضايا متعددة تمس جوهر الوجود الإنساني: علاقة الإنسان بالعلم، أثر العقيدة في الاستقرار النفسي، مفهوم الحرية،

أزمة الحضارة الحديثة، معنى الأخلاق، دور الدولة، وظيفة القيم، وطبيعة الصراع الإنساني عبر التاريخ.

كما يمتاز الأسلوب بعمق فكري ممزوج بلغة أدبية مؤثرة، تجعل النص قريباً من القارئ العام دون أن يفقد قيمته الفكرية. فالكتاب قائم على التأمل والتحليل وربط الظواهر النفسية والاجتماعية بجذورها الفكرية والعقدية، وهو ما يمنحه طابعاً حوارياً مفتوحاً مع القارئ، ويجعله قادراً على إثارة التفكير وإعادة النظر في كثير من المسلمات المعاصرة.

ولا تقتصر قيمة الكتاب على الجانب الفكري فحسب، بل تتجلى أيضاً في كونه وثيقة فكرية تعبّر عن مرحلة مهمة من تطور الفكر الإسلامي المعاصر؛ إذ يحاول المؤلف من خلاله أن يقدّم تصوراً إسلامياً متكاملاً للنفس والمجتمع في مواجهة المدارس المادية والفلسفات الحديثة التي اختزلت الإنسان في بعده المادي أو الاقتصادي أو النفسي البحت.

إن إعادة نشر هذا الكتاب اليوم تمثل إضافة نوعية للمكتبة الفكرية العربية، لما يحمله من قدرة على مخاطبة أسئلة الإنسان المعاصر المتعلقة بالهوية والمعنى والقلق الحضاري، ولما يتيحه من مساحة للتفكير النقدي في العلاقة بين التقدم المادي والقيم الإنسانية. كما أن القضايا التي يناقشها الكتاب ما تزال حاضرة بقوة في عالم اليوم، الذي يعيش أزمات أخلاقية ونفسية وحضارية متفاقمة رغم التطور العلمي الهائل.

إن «في النفس والمجتمع» ليس مجرد كتاب في الفكر الإسلامي، بل هو محاولة جادة لفهم الإنسان في شمولية تكوينه، والدفاع عن حقه في أن يعيش متوازناً بين العقل والروح، وبين متطلبات الحياة المادية واحتياجات النفس العميقة. ولهذا فإن نشر هذا العمل وإتاحته للأجيال الجديدة يمثل مساهمة ثقافية وفكرية مهمة تستحق العناية والاهتمام.

دار غرب المتوسط للنشر والتوزيع

مقدمة الطبعة الثانية

هذه المجموعة من الخواطر مكتوبة قبل سنوات...

وقد لاحظت عند مراجعتها لإعادة الطبع، أن بعضها قد نما وتبلور، وأخذ امتداده في الكتب التي تلت هذا الكتاب: "قبسات من الرسول" و"معركة التقاليد" و"منهج التربية الإسلامية" و"هل نحن مسلمون؟" و"منهج الفن الإسلامي".. وبعضها الآخر قد بقى على صورته التي كتب بها في هذا الكتاب، لأنه لم يأخذ في نفسي امتدادا آخر، ولم تضف تجاربي الشعورية والفكرية جديدا إليه.

وقد أبقيت هذه وتلك بترتيبها وألفاظها، لأنها تمثل حلقة من حلقات التفكير والاتجاه..!

محمد قطب

مقدمة

لهذا الكتاب قصة...

فمنذ بضع سنوات كنت أكتب مؤلفي الأول عن نظرية الإسلام في النفس الإنسانية في مجالها الفردي والاجتماعي، وسميته "الإنسان بين المادية والإسلام". وأشهد أنني حتى اللحظة التي بدأت فيها الكتابة بالفعل لم أكن أتصور أن نظرة الإسلام إلى النفس الإنسانية هي بهذه الدقة والشمول في كل اتجاه!

لقد كنت –بطبيعة الحال– قد كونت فكرة عامة بدأت الكتابة على أساسها؛ هذه الفكرة مبنية على أن "التوازن" هو أساس نظرة الإسلام إلى الحياة وإلى الإنسان. وأن الإسلام هو النظام الذي يوازن بشكل دقيق ملحوظ بين مختلف القوى الإنسانية: يوازن بين الروح والجسد، بين الأشواق العليا ونزعات الغريزة، بين الخضوع لضرورات الحياة، والتسامي إلى طلاقة الأفق الأعلى.. كما أن الإسلام يقع في نقطة الوسط بين أفكار البشرية المتطرفة. يقع بين الكبت الذي تفرضه بعض النظم والعقائد، والانطلاق الحيواني الذي توحي به بعض آراء علماء النفس من أمثال فرويد. ويقع بين الفردية المتطرفة التي تقوم في العالم الرأسمالي، والجماعية المتطرفة التي تقوم في العالم الشيوعي. ويقع بين المادية المغرقة التي تحدد الحياة بما يقع في محيط الحواس، والروحانية المغرقة التي تهمل عالم المادة لتتعلق بسبحات الروح وأطياف الخيال.

تلك هي الفكرة العامة التي كنت قد كونتها من دراستي لنظرة الإسلام إلى الحياة والإنسان. ولكن فيضاً عجيباً من الخواطر المتلاحقة كان يرد في خاطري أثناء الكتابة، كأنه يخطر لي لأول مرة، وكأنما أكتشفه اكتشافاً في أثناء الطريق!

هذه الخواطر سجلت بعضاً منها في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" لأنها تدخل بصفة مباشرة في موضوع البحث، ولأنها لازمة لتوضيح الفكرة الأساسية للكتاب.. ولكن بقية من هذه الخواطر كانت تملأ ذهني في وقتها فأبعدها عن خاطري إبعادا، حتى لا يتضخم الكتاب من جهة، وحتى يمكن من جهة أخرى الإلمام بفكرة عامة عن سيكلوجية الإسلام، دون أن تتوزع في كثير من التفصيلات.

وظلت هذه الخواطر حبيسة لا أجد الفرصة لتسجيلها.. حتى سجلتها أخيراً في هذا الكتاب.

إنه مجموعة من الخواطر يربطها كلها رباط واحد، هو أنها عرض للفكرة الإسلامية في الفرد والمجتمع، يشمل نواحي مختلفة من النفس الإنسانية والنشاط الفردي والاجتماعي.

وقد يلحظ القارئ نوعاً من التسلسل في موضوعات الكتاب، أو يلحظ على الأقل نوعاً من الترابط بين مجموعات مختلفة من العنوانات التي جاء بعضها على إثر بعض.

وعلى أي حال فالرباط الأكبر هو أنها كلها مأخوذة من زاوية العقيدة، وأثرها في الحياة البشرية.

وهي مادة تصلح بذوراً لتكوين نظرية إسلامية نفسية، لا أزعم أنني وصلت فيها إلى شيء قاطع، ولكن حسبي منها أن أفتح بها الباب للباحثين يستخلصون منها ومن غيرها نظرية تفصيلية تشمل كل ميدان النفس، وتصلح أن توضع في ميدان البحث العالمي في مقابل النظريات الغربية، تتلافى ما فيها من انحرافات وعيوب، وتساهم في إنشاء عالم أفضل، يقوم على هدى واضح واتجاه سليم[1].

نرجو الله أن يوفقنا إلى ما فيه الخير، إنه سميع مجيب الدعاء...

[1] – بين يدي الآن بحث أرجو أن أقدمه للقراء قريبا باسم "دراسات في النفس الإنسانية".

العقيدة

عقيدة. أو لا عقيدة؟!

سؤال حائر في أفكار الشباب وفي ضمائرهم.

ما قيمة العقيدة؟ ما دورها في الحياة؟ هل يمكن أن يكون لها اليوم دور في عصر الآلة والإنتاج الكبير؟

وما غرض العقيدة؟ أو ليس هدفها إقامة الحياة البشرية على أسس صالحة؟ لقد تولى ذلك عنها العلم في العصر الحديث، فأقام نظما اقتصادية واجتماعية من شأنها تنظيم العلاقات بين الناس على أسس الاشتراكية والتعاون، بحيث تجعلهما جزءا من النظام العام، تشرف عليه الدولة، وتضع له التشريعات والقوانين.

فماذا بقى إذن من مهام العقيدة لم تقم به "الدولة" الحديثة؟ لقد كان للعقيدة دور مهم تؤديه يوم كانت الدولة في طفولتها، وعلاقات الناس شخصية أكثر منها جماعية ونظامية. أما اليوم فقد صيغت العواطف نظما والنوايا الطيبة أعمالا منظورة. وتحول العدل الاجتماعي من دعوة ووعظ، إلى نظريات علمية وتطبيقات عملية. فما شأن العقيدة في العالم الحديث؟

ثم إن العقيدة وما حولها من روحانيات وطقوس كانت مفهومة قبل أن يفسر العلم ظواهر الحياة تفسيراً "واقعيا"؛ فكان الجهل بما وراء هذه الظواهر هو الذي يدفع الناس إلى افتراض قوة خفية تسيّر الكون. وإذ كانوا لا يرونها، وهم في الوقت ذاته يخشونها، فقد أقاموا العبادات لاسترضائها واستمطار رحمتها. واليوم ذهب ذلك كله. فقد "قهر" الإنسان الطبيعة، وانتزع أسرار الكون واحدا إثر واحد. فجّر الذرة واستخلص منها طاقة هائلة يمكن أن تدمر وجه الأرض. واكتشف أعماق البحار المجهولة وأغوار السماء. وفتش في كل مكان حتى عرف القوة الخفية أو كاد! فما معنى التشبث بما كان أيام الضعف والجهالة؟ اليوم يعبد الناس إلههم الجديد الذي وصّلهم إلى الأسرار. وهو العلم. أو يعبد الإنسان نفسه، فهو القوة الفعالة على ظهر الأرض![1].

كذلك يتحدث الشباب عن العقيدة.. مخلصا حينا، ومستمعا حينا إلى غواية الشياطين ينفثون في فكره، ويجرونه من خيوط الرغبة الهائجة والشهوة المجنونة.

[1] – انظر الفصل التالي: "العلم والعقيدة".

والشباب دفعة الحياة الجارفة وطاقتها المذخورة. ولكنه كذلك ذخيرة خطرة حين ينحرف عن طريقه ويضل عن الهدف المنشود.

والضلال الأكبر الذي يشمل هذا الجيل من البشرية هو استغلاق روحه عن العقيدة، وانطماس بصيرته أن تستمتع بنورها الشفيف.

(**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**)..

كذلك كان الناس في الجاهلية. كانوا يتبعون باطلهم المضحك مخلصين حينا، ومستمعين حينا إلى غواية الشياطين... (**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**)!

والجاهلية الجديدة أشد عتواً لأنها أشد قوة! إنها تملك من وسائل التحطيم ما لم يخطر من قبل على ذهن بشر. لذلك فهي أشد اعتزازاً بباطلها المضحك، وأشد ضلالا به من السابقين.

كانت الجاهلية الأولى تعبد أصناماً فجة الصنع أو فجة العقيدة. لذلك انهارت في يسر. وإن كان هذا اليسر النسبي قد استغرق بضعة قرون من الكفاح، وبضعة آلاف من أرواح البشر استشهدوا في الطريق.

والجاهلية الثانية تعبد أصناماً لا سبيل إلى كفاحها في يسر أو تحطيمها في هوادة، لأنها لا تقوم على باطل مطلق كأوثان الفراعنة والبدو، والإغريق والفرس، بل تقوم على ركيزة هائلة من "الحق" هي ركيزة العلم.

ولكنه حق يراد به باطل.

العلم حقيقة محايدة، لا تؤدي بذاتها إلى الخير أو الشر، ولا تؤدي بذاتها إلى الهدى أو الضلال. ولكن القلب الذي يستخدم هذه الحقيقة هو الخيّر أو الشرير، هو الذي يتجه بها إلى طريق الهدى أو طريق الضلال.

ومن الناس من (**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ**). وهو أخطر ممن ضل على جهالة لأنه يملك من وسائل المعرفة ما يقدر به على الشر.

وهذا الجيل من البشرية ربما كان أبعد أجيالها في الضلال، لأنه أشدها ضلالا "على علم" وأقدرها على استخدام العلم في طريق الشر.

وما هذه الحروب المدمرة التي تهدد العالم بالفناء؟ اثنتان في ربع قرن والثالثة على الأبواب؟

يقولون لك إنه "الصراع".. صراع الحياة، أو صراع البقاء.

نعم. ولكنه في الواقع هو الضلال الذي يؤدي إلى الصراع.

لو أفلت نظام الكون.. لو انحلت الرابطة التي تربط كوكباً بكوكب، وتسيّر الأفلاك في الكون العريض.. كيف يحدث؟

ولو أفلت نظام الذرة، وهي البنية التي يقوم عليها الكون، لو تفتت نواة الذرة التي تمسك حولها الكهارب المنطلقة في نشاط دائم.. كيف يحدث؟

هل يحدث إلا الفوضى المدمرة والضلال الرهيب..؟

ذلك ما حدث لهذا الجيل من البشرية. تفتت نواته. وانطلقت كهاربه المجنونة تصطدم وتتحطم، وتدمر كل ما تصادفه في الطريق.

وهل يمكن أن تكون النواة في الكيان البشري غير العقيدة؟

النواة هي الطاقة الموجبة في بناء الذرة. وهي التي تمسك الكهارب المنطلقة أن ينحل عقدها، وتنفلت إلى غير رجوع. هي التي تمسك البناء كله وتشده بعضه إلى بعض. هي التي تحفظ التوازن وتسير النظام. هي المركز الذي يدور كل شيء حوله، ويظل أبداً منجذباً إليه في رباط خفي ولكنه وثيق.

وحين تتحطم الذرة يحدث الخراب. تنطلق القوى التي كانت خيّرة منذ لحظة، لأنها كانت —وهي مشدودة إلى النواة– تمثل النشاط الدائب الذي يعمل للبناء. تنطلق هذه القوى بلا ضابط، فتصبح هي قوى الشر وعوامل التدمير!

وكذلك الإنسان بلا عقيدة!

كتلة هائمة من النشاط المجنون. نشاط مدمر لأنه فقد المركز الذي يدور حوله، وفقد كذلك الرباط الوثيق بين أجزائه.

أو.. ميوعة وانحلال. تفكك ورخاوة. تفاهة سالبة، كالكهرب السالب بلا نواة تشده إليها وتحركه إلى هدف معلوم.

وهذا وذاك هو الواقع الذي يعيش فيه البشر في القرن العشرين.

فهل رأت البشرية في تاريخها الطويل من دواعي القلق والفزع ما تراه اليوم من الحرب الذرية؟

هل رأت من دواعي الصراع المجنون -حتى أيام الغابات والكهوف- ما تراه اليوم من الصراع العنيف من أجل الغلبة والسلطان، والإهلاك والتدمير؟

وهل رأت من الانحلال الخلقي والتفاهة المشردة ما تراه اليوم في المراقص والحانات، والغابات والطرقات، والصحف العارية والسينما المتبذلة و"الفن" الخليع؟

نعم.. مر على البشرية من كل ذلك ألوان. ولكنها لم تبلغ قط في حدتها وضراوتها ما بلغته في هذا الجيل.

يقولون لك: هذه ضريبة العلم.

كذبوا: إنها نتيجة الضلال.

ليس العلم شريراً في ذاته. وليس من الضروري أن تكون ضريبته هي هذا الشر الضارب في الآفاق.

ولكنه هو هكذا المخلوق البشري حين ينحل رباطه ويختل توازنه. هو هكذا يصبح قطعة من الشر، وصنوا للشيطان.

تذكر الإحصاءات أن ما أنفق في الحربين الأخيرتين كان كفيلا بأن يمنح كل فرد على ظهر الأرض بيتاً حديثاً مجهزاً بأنفع الأدوات، ودخلا أعلى من المتوسط اليوم.

يقولونها للتسلية والتندر..

ليس هناك دافع جدي يقول للناس: ويحكم! ماذا تصنعون!

ليس هناك شعور حقيقي بوحدة الإنسانية وأخوتها.

ليس هناك ضابط حقيقي يمنع شهوة الإبادة والتخريب.

ليس هناك عقيدة.

وتذكر الإحصاءات أن ما ينفق في المواخير ونوادي الميسر ووسائل الهبوط المختلفة، من ساعات العمر ومن الأموال التي تمثل الكد البشري، هو مئات الملايين.

يقولونها للتسلية والتندر.

ليس هناك إحساس حقيقي بكرامة البشرية أن تهبط إلى هذا المستوى من التفاهة والانحلال.

ليس هناك استخسار حقيقي للطاقة البشرية الضائعة في لا شيء، المنحدرة إلى الهاوية.

ليس هناك تقدير حقيقي لتلك الخامة العجيبة التي صنع منها المخلوق البشري. الخامة القادرة على الرفعة بقدر ما هي قادرة على الهبوط.

ليس هناك معرفة حقيقية بهذا الجوهر الفذ الذي نفخ فيه الله من روحه وخلقه على صورته.

ليس هناك عقيدة.

وحين يفقد الإنسان العقيدة فهكذا يصير.. ضراوة الوحش وتفاهة الانحلال.

* * *

هل معنى ذلك أن نغمض أعيننا عن كل ما أحرزته البشرية في العصر الحديث من تقدم؟ ونلغي من حسابنا كل ما يسره العلم من الخدمات؟

كلا! ما قصدنا إلى شيء من ذلك. وإنه لضرب من المستحيل.

وإنما نقصد فقط أن نراجع الوسائل والأهداف.

لأي معنى نعيش؟

هل كل همنا أن نبدد طاقتنا الحيوية في متاع الجسد، أو نتصارع كالوحوش على الغلبة والسلطان؟

أو لشيء أعلى من ذلك نعيش؟

نستمتع بمتعة الجسد، ونتطلع مع ذلك إلى آفاق أخرى، آفاق تربط بين البشر برباط الأخوة وتهدف إلى الجمال؟ الجمال في كل شيء. جمال التعبير، وجمال الشعور. لا في عالم الفن المحدود وحده ولكن في نطاق الحياة كله... وهل أجمل شعوراً في النفس من الحب؟ وأجمل تعبيراً من الخير في الحياة؟

والوسيلة هي العقيدة..

والمخلوق البشري ككل شيء في بينة هذا الكون الأعظم. **(مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ)**.

نواة موجبة الطاقة وكهارب سالبة تستمد منها الحركة الدائبة والهدف المحدد الاتجاه.

هذا.. أو الفوضى الضاربة الأطناب.

والعقيدة هي الرباط الذي يربط كيان الإنسان ويوحد اتجاهه. هي العقدة الصلبة التي تمنع انحلاله. هي التي تنظم غدوه ورواحه. وتوازن بين دفعاته المتشعبة الأهداف.

ولا شيء يستطيع أن يغني في ذلك غناء العقيدة. لا العلم. ولا الدولة ولا التنظيم الاجتماعي. ولا تنظيم الاقتصاد[1].

كلها جزئيات تشمل أجزاء من الكيان البشري ولا تجمعه كله. والويل لها إن لم يكن بينها ترابط يجمع شتاتها ويوازن بين دفعاتها المتشعبة الأهداف. فعند ذلك تمزق المخلوق البشري بين الشد والجذب، وتفسد أعصابه، وتدفع به إلى الجنون.

الجنون الذي يسمونه الحرب. أو الجنون الذي يسمونه صراع الحياة.

أو في القليل جنون التكالب على المتاع الجسدي المسعور.

والعقيدة هي الرقية من هذا الجنون.

إنها ليست بديلا من العلم. أو الدولة. أو التنظيم الاجتماعي. أو تنظيم الاقتصاد.

---

[1] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

وليست في موضع التقابل من ذلك كله[1].

وإنما هي الرباط الذي يربط كل ذلك، ويوجهه إلى طريق الخير. هي النواة التي تمسك كيان الذرة وتنظم ما فيها من النشاط.

والنواة —وهي ثابتة راكزة– لا تعيق نشاط الكهارب ولا تمنعها من الانطلاق.

تمنعها فقط من الفوضى والتصادم. تمنعها من الانفلات بلا غاية ولا دليل. لأنها عندئذ تفقد معناها. تفقد وظيفتها الحقة، وتصبح أداة للهدم فوق أنها هي ذاتها تضيع.

والعقيدة لا تمنع الاستمتاع بالطيبات من الرزق ولا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده. ولا تمنع كذلك تقدم العلم وتنظيم المجتمع[2].

وإنما تجعل لكل ذلك غاية. غاية غير الصراع المجنون والتدمير الرهيب. غاية هي الشعور الجميل والتعبير الجميل. غاية هي الحب وهي الخير.

والحب هو الله.

والخير هو الله.

والله جميل يحب الجمال.

---

[1] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

[2] – انظر الفصل التالي عن "العلم والعقيدة".

العلم والعقيدة

أعجب ما في هذا المخلوق البشري أن أداة الهدى يمكن أن تكون بذاتها أداة الضلال! وأداة الخير يمكن أن تكون أداة للشر سواء![1].

ومن هنا ضلت البشرية بالعلم في هذا القرن العشرين، بدل أن يقودها العلم إلى الهدى واليقين!

واتُّخذ العلم سلاحا لمحاربة العقيدة ومطاردتها في نفوس المؤمنين!

واتخذت الحرب طريقين تلتقيان في النهاية.. تلتقيان عند الجاهلية الكبرى التي يصنعها الناس لأنفسهم، وتباركها من ورائهم الشياطين!

الطريق الأول نظريات "علمية" تقول إن الدين نشأ من الضعف ومن الجهل اللذين سيطرا على طفولة البشرية، فينبغي أن يترك اليوم مكانه للعلم.. وكفى ما كان من خرافة وأساطير!

والطريق الثاني نظريات علمية كذلك! تقول إن "الدولة" في العالم الحديث تقوم بالتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية على أسس علمية. فلم يعد هناك حال للتنظيمات التي كانت تقوم على الوجدان الديني الذي قد يخطئ وقد يصيب. وهو وجدان فردي على أي حال، لا يصلح لتنظيم الجماعات الراقية في عصر الذرة والصاروخ!

* * *

نشأ الدين من الضعف ومن الجهل...

كان الإنسان الأول يرى البرق ويسمع الرعد فيرتجف فرقا، ولا يعرف السر وراء هذه الأشياء. وكان ظلام الغابة وعويل الرياح فيها وحفيف الأشجار يفزعه ويخيّل إليه أن هناك أرواحا شريرة تريد أن تفتك به. ومن هذا وذاك نشأ اعتقاده بوجود آلهة مختلفة بعضها للخير وبعضها للشر. بعضها من ظواهر الطبيعة وبعضها من حيوانات الأرض..ثم ظل علمه بالأشياء يزداد وفكرته عن الإله ترتقي حتى وصل آخر الأمر إلى عقيدة التوحيد. وكانت

[1] – انظر فصل "الطاقة البشرية المحايدة".

تلك مرتبة عالية في الفكر البشري. ولكنها هي الأخرى استنفدت أغراضها وأخلت مكانه للمعرفة الواقعية والعلم الصحيح.

ذلك حديث أوروبا عن الدين. بضاعة أرضية بحتة من صنع الإنسان، ترتقي معه، وتتطور بتطوره. ولكنه ليس كما يفهم المسلمون حقيقة علوية قائمة بذاتها، ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده، حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها في عقيدة التوحيد.

ولنترك عقيدة المسلمين في الله لحظة، ولنتجرد من كل قداسة الدين لنواجه هذه "الحقيقة العلمية" بلا ستار!

الضعف والجهل هما أساس العقيدة..

فماذا نال الإنسان من القوة ومن العلم ليستغني عن العقيدة في القرن العشرين؟

فجّر الذرة واكتشف الأفلاك؟ ركب الطائرة الصاروخية؟ صار يسمع ويرى ما يحدث على بعد مئات الألوف من الأميال؟ صار يستخدم الإشعاع الذري في تشويه صنع الله في الطبيعة والأحياء؟

نعم. ولكن ذلك لم يكن مشكله الأول. بل جاء ذلك كله في الطريق وهو يبحث في مشكله الأول!

(وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)!

تلك قصة الشيطان مع آدم. وقد استزله بهذا الإغراء العنيف الذي لم يطق الوقوف إزاءه. أن يكون ملكا يعرف كل شيء. أو يكون من الخالدين.

المعرفة والخلود.. هما مشكلة الإنسان الأول. فكيف يقف منهما اليوم الإنسان الأخير؟

ماذا وصل في طريق المعرفة؟ وماذا حقق في طريق الخلود؟!

العلم! هذا الساحر الكاذب الذي يبهر العيون. أو هذا المارد الجبار كما تراه أوروبا في غمرة السحر.. ماذا كشف من حقائق الأشياء؟ إنه ما زال مشغولا "بظواهر" الأشياء لا يجرؤ على تفسير "كنهها"، لأنه اضطر كارها أن يترك كنهها لما وراء الطبيعة! إنه يتحدث

عن "أثر" الكهرباء ولكنه لا يقول "ما هي" الكهرباء. وقد تحدث كثيرا عن قوانين الطبيعة. وقال إن الأشياء تتصرف على نحو معين في ظروف معينة، ولكنه لم يستطع أن يقول لم تتصرف بهذه الطريقة، ولماذا لم يكن تصرفها في تلك الظروف على نحو آخر. ما زال "السر" الذي استغلق على الإنسان الأول مستغلقا على الإنسان الأخير، على الرغم من كل الظواهر التي اكتشفها وعرف قوانينها.

والغيب المجهول؟ ماذا صنع فيه العلم؟ **(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)**.

هل كشف العلم عن الغيب؟ هل يستطيع عالم مهما بلغ من علمه أن يعرف ماذا يكسب غدا؟ بل هل يستطيع أن يعلم غيب اللحظة القادمة القريبة الماثلة على الأبواب؟ اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن، ومع ذلك تفصلها عن "علمه" الآماد والآباد؟!

والخلود؟ كيف صنع فيه؟ رد الحياة إلى القلوب الميتة، فعاشت بعد موتها الظاهري دقائق أو ساعات أو سنوات؟ ليست هذه هي مشكلة الإنسانية! المشكلة هي الخلود.. الخلود الذي لا ينتهي أبدا ولا يموت الإنسان منه أبدا! فكم وصل العلم يا ترى لهذا الخلود؟

تلك مشاكل الإنسانية الأولى التي ألجأتها إلى الدين والعقيدة في الله. أليس كذلك؟

نقول بلى توفيراً للجدل والنقاش! فماذا تم فيها لتستغني عن الدين والعقيدة؟

إن العلم سلاح جبار دون شك. وهو أحد وسائل البشرية للمعرفة. ولكنها الخرافة العظمى التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية، هي التي تخيّل إليهم أنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة، وأن كل ما عداه خرافة ساقطة من الحساب.

ما أصدق العالم الفلكي المعاصر جيمس جينز وهو يقول بعد دراسة علمية استمرت نصف قرن:

"إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله"!

وما أصدق سومرست موم وهو يقول "إن أوروبا قد نبذت اليوم إلهها وآمنت بإله جديد هو العلم. ولكن العلم كائن متقلب، فهو ينفي اليوم ما أثبته بالأمس، ويثبت غداً ما نفاه اليوم، ولذلك تجد عبّاده في قلق دائم لا يستقرون"!

* * *

تلك قصة العلم في الطبيعة والكيمياء والفلك وعلم الأحياء.

أما قصته في تنظيم المجتمع، والاستغناء بهذا التنظيم عن العقيدة، فلا تقل قصوراً عن القصة الأولى!

إن أوروبا نظمت المجتمع. تلك حقيقة كبرى لا سبيل إلى إنكارها.

ومع ذلك فإننا نلاحظ هنا ملاحظتين:

إن أوروبا في سبيل هذا التنظيم قد جففت منابع الإنسانية في نفوس البشر، وحولتها إلى قوالب جافة قد تكون مفيدة ولكنها ليست حية. كالكيمياء الجاهزة. كالفيتامينات التي تتناولها في أقراص ولكن جسمك لا يفيد منها كما يفيد من الغذاء الحي الذي تهضمه وتمثله و"تتعامل" معه.

إن هذا الإنجليزي السائر في الطريق ليبادرك بقولة (أنا آسف!) إذا همت كتفه من بعيد أن تمس كتفك. جميل. ولكنه لا يتعاطف معك. لا يقف ويعطل نفسه عن عمله ليحل لك مشكلة من مشكلاتك، إلا أن يكون هذا جزءاً من عمله الرسمي كرجل البوليس! أو طمعاً في زيادة حصيلة الدولة من نقودك إذا كنت من السواح! وفوق كل شيء لا يمكن أن يتحمل من أجلك خسارة مادية! إنه يتقبل طائعاً أن تأخذ الدولة فضول أمواله في صورة ضرائب أو استقطاعات، لتردها على الفقراء في صورة خدمات. ولكنه لا يعطف على هؤلاء الفقراء. لا يعرفهم بأعيانهم، ولا يحب أن يعرفهم أو يعنّي نفسه بهمومهم. يكفي أنه أدى واجبه الرسمي نحوهم دون تذمر، أو على الأقل دون إبداء لهذا التذمر!

والحياة على هذا النحو قد تكون أروح في ظاهرها. ولكنها تقطع الصلات بين البشر، وتجعل كل إنسان جزيرة وحده، لا تتصل بغيرها من الجزر في الخضم العريض. وإن الله لم يخلق الناس ليعيشوا على هذا النحو. لم يخلقهم ليتعاونوا بقوة القانون وهم في دخيلة أنفسهم متكارهون متنافرون، أو على الأقل مقطوعو الصلة غير متعارفين. فالله يقول: (**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**). وهو يريد أن تقوم العلاقة بينهم على الحب الحي الذي ينفذ إلى القلوب فيلين جفافها، ويربطها بعضها ببعض.

والأمر الثاني: أن العقيدة لا تمنع التنظيم الاجتماعي على أسس علمية!

وقد قام الفصل بين الدين والدولة، وبين الدين والعلم في أوروبا لملابسات خاصة هناك. فقد اضطرت المسيحية أن تدع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، فينفصل الدين عن الدولة، ويختص الدين بتهذيب المشاعر وتنظيف النفوس، ويترك الدولة تضع التشريعات اللازمة للحياة اليومية أو "الواقعية" كما يسميها الأوروبيون، بسبب نشأتها في ركن صغير من الدولة الرومانية لا قبل له –يومذاك– بمحاربة تلك الدولة الغائلة والاستقلال عن سلطانها، ثم إن موقف الكنيسة الأوروبية من العلم، وتحريقها العلماء وتعذيبها للذين جرءوا على نشر بعض الحقائق العلمية من أمثال كوبرنيكوس وجاليليو، هو الذي فصل بين الدين والعلم، بل أقام بينهما عداوة لا يطفئها مرور السنوات.

ولم يحدث هذا وذاك في الإسلام.

فالدين والدولة في الإسلام شيء واحد. كان الرسول عليه الصلاة والسلام نبيا ورئيساً للدولة في ذات الوقت. ثم كان خلفاؤه رؤساء للدولة وقائمين على الدين في آن واحد. والقرآن –وهو دستور الحكم الإسلامي– يشتمل على الجانبين معا: جانب التشريع وجانب التهذيب. ويشتمل عليهما ممتزجين لا ينفصل أحدهما عن الآخر. ما من تشريع في القرآن كله قد خلا من توجيه القلب لله وتذكيره بسلطانه وعزته، أو رحمته ومغفرته: حسبنما يقتضي السياق.

ولم يفهم الرسول وخلفاؤه من بعده أن العقيدة عواطف ووجدانات فحسب، منفصلة عن الملابسات اليومية والتشريعات الاجتماعية والاقتصادية. ولا فهموا أن تنظيم الملابسات اليومية يجوز أن يتم بمعزل عن العقيدة وعن الصلة الدائمة التي تربط بين الناس والله. لذلك كان الدين بروحه ونصوصه وتشريعاته وتوجيهاته، يحكم كل كبيرة وصغيرة في المجتمع. كان الحاكم يصدر الأمر أو القانون، ويضع السلطة اللازمة لتنفيذه على الوجه الأكمل، ثم يزاوج بين هذا وبين التهذيب الروحي والخلقي الذي يجعل إطاعة القوانين منبعثة من أعماق النفس، برغبة إيجابية في عمل الخير، بدل أن تكون إطاعة سلبية ينفذها الناس وهم كارهون أو خائفون.

والمزية الكبرى في هذه السياسة البارعة هي ربط القلوب بعضها ببعض في شعور إنساني كريم، وإزالة الجفوة التي تثيرها إطاعة القانون بغير وازع داخلي. ومزيتها كذلك ألا يقف الناس عند حدود القانون، بل يتطوعوا بمحض إرادتهم بأكثر مما طلب منهم. وتلك هي الوسيلة العملية لرفع المجتمع إلى الآفاق الإنسانية العليا. ذلك أن القانون دائما يضمن الحد الأدنى الذي لا تسير بدونه الحياة، ولكنه لا يستطيع أن يفرض الحد الأعلى الذي لا يقدر عليه كل إنسان، وإلا أصبح قانونا نظريا لا رصيد له من الواقع. وإنما يترك الحد الأعلى

للتطوع النبيل يحاوله كل إنسان على قدر طاقته **(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ)** و**(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**.

وهكذا نجد أن التنظيم العلمي لشئون المجتمع داخل بأجمعه في نطاق العقيدة، ولكنه حين يترك وحده لا يقوم مقامها في شد البنيان وربط لبناته بعضها ببعض. وإن موقف العلم هنا لشبيه بموقفه هناك في العلوم البحتة، يبحث الظواهر ويرتبها، ولكنه لا ينفذ إلى القلوب وجواهر الأشياء!

* * *

والمسألة الخلقية...

إن الناس يقبلون الخضوع للدولة في الشئون الاقتصادية والاجتماعية، لأنهم قد يصلون لدرجة من الوعي يستطيعون معها إدراك هذه الحقيقة: وهي أنهم حين يتنازلون عن بعض امتيازاتهم في هذه الشئون للمحرومين منها فإن ذلك سيعود عليهم بالخير في النهاية. أو على الأقل يخضعون لها بحكم السلطة التي تملك بها إخضاعهم لأوامرها. ولكن الشأن يختلف في المسألة الخلقية. فالناس لا يتنازلون عن متاعهم ولذائذهم من أجل الدولة وحدها. وقد يدرك الفلاسفة والمشتغلون بالقضايا الفكرية أن التحلل الخلقي شر على الإنسانية يعود عليها بالبوار، ويبدد طاقتها في محيط حيواني هابط، فلا تتطلع إلى الارتفاع، ولا تجد الطاقة اللازمة له، لو اتجهت إليه. ولكن غمار الناس لن يدركوا ذلك، لأنه قد لا يقع في جيلهم. فقد تظل الأمة سليمة –من الظاهر– جيلا أو جيلين أو ثلاثة، بينما التحلل الخلقي يسري في كيانها خفيا كالسوس. فيتعذر على الشخص العادي، أو الشخص المنجرف بطبعه وراء اللذات، أن يصدق أن تحلله هو –وهو فرد واحد– أو أن الجريمة العابرة التي يرتكبها خلسة في الظلام، يمكن أن تؤثر في خط سير المجتمع وتؤدي إلى انهياره. وحتى إذا صدّق بذهنه، فإنه –بغير تهذيب ديني– لا يستطيع أن يمتنع عن اللذة العارمة التي يحسها من أجل خطر لا يرى أنه سيقع عليه مباشرة، حتى إذا وقع في نفس الجيل.

فإذا فرضنا أن الدولة من عندها –أي بالقوانين الأرضية وحدها– تعاقب على الجرائم الخلقية حين تضبطها، فهي لن تستطيع أن ترى كل جريمة، ولا أن تتعقب كل مجرم. وسيفلت منها كثير من الجرائم بلا إثبات ولا عقاب. ومع ذلك فهذا فرض نظري في الوقت الحاضر، فدول الغرب "المتحضر" كلها لا تكاد تعاقب على هذه الجرائم إلا حين تقع كرها أو على القاصرين!

وإنما يحتاج الامتناع عن الجريمة الخلقية إلى الارتباط بالله. وذلك وحده هو الضمان.

الارتباط بالله هو الذي يهذب النفس فلا تندفع وراء الجريمة.

وهو الذي يقيم أهدافا أعلى من أهداف الأرض تستنفد الطاقة الجسدية والنفسية الفائضة فتصرفها عن عالم الشهوات.

وهو الذي يقيم في داخل النفس حسيبا يراقب كل عمل لا تصل إليه يد القانون ولا تبصره عين الدولة.

وهو الذي يعوض الإنسان عن لذائذه الموقوتة التي يتركها في الأرض، أملا في النعيم الدائم في السماء.

وهو الذي يحدث في نهاية الأمر رهبة من الجريمة أقوى من رهبة الدولة والقانون.

وبهذه العوامل كلها مجتمعة وممتزجة في العقيدة، يمتنع الناس عن ارتكاب الجريمة. فإذا أضيف إلى ذلك أن تكون القيود التي تفرضها العقيدة معقولة في ذاتها لا تحرم إلا المتاع الزائد عن الحد، ولا تكبت الشهوات من منبتها، فقد استوت لها العدالة مع القدرة على التهذيب. وذلك ما يتحقق في العقيدة الإسلامية التي تعترف بالشهوات على أنها الأمر الواقع بالنسبة للبشر: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**..) ولكنها فقط تهذب التنفيذ العملي لهذه الشهوات، فتقف بها عند الحد الذي لا يؤذي الفرد ولا المجتمع، ويتيح في الوقت ذاته قسطا معقولا من المتاع.

* * *

والمسألة الإنسانية...

لقد أفلحت النظم الأوروبية في حدودها الإقليمية الضيقة، حيث يمكن أن يسود القانون الذي وضعته الدولة وجعلت تهذيب الناس في حدوده ولكنها لم تفلح قط على أساس إنساني واسع يشمل أكثر من إقليم. وإنما حلت محلها فيما بين إقليم وإقليم روح الكراهية والبغضاء والصراع، وهي النتاج الطبيعي لهذا اللون من "التهذيب"! وكانت النتيجة هي الحروب المستمرة، آخرها هاتان الحربان العالميتان في ربع قرن، والثالثة على الأبواب.

وحتى الشيوعية التي زعمت أنها قائمة على أسس عالمية لم تستطع أن تحل هذه المشكلة. لأنها قامت على أساس الاقتصاد والمادة، ونفرت من العقيدة في الله وسخرت منها. ثم أباحتها —حين أباحتها– على أنها هواية شخصية لبعض الناس لم يفلح في القضاء عليها الوعظ والإلحاد!

لذلك لم تستطع روسيا في مبدأ الأمر أن تحس بالأخوة الحقيقية في الإنسانية نحو العرب المسلمين في فلسطين، وساعدت عليهم اليهود، لأنها في ذلك الحين كانت تطمع أن تكون الدولة اليهودية قدما شيوعية لها في الشرق الأوسط. فلما يئست من ذلك عادت فاضطهدت اليهود، مما كشف عنه مالنكوف بعد وفاة ستالين. وكذلك لم تستطع أن تغفر لبولندا والمجر رغبتهما في التحرر من التبعية لروسيا، ولم يشفع لهما انهما شيوعيتان تهتديان بهدى الشيوعية، فراحت تقتل منهما مئات الألوف.

كلا! إن الأخوة الإنسانية شيء لم يكن الوصول إليه أبدا بغير عقيدة في الله.

يستطيع الناس أن يلتقوا في لغة، أو وطن، أو جنس، أو لون، أو مصلحة قريبة، دون أن يحسوا حاجة مباشرة إلى العقيدة في هذا اللقاء. ولكنهم حيث تختلف اللغة أو الوطن أو الجنس أو اللون أو المصلحة القريبة لا يستطيعون —بغير عقيدة– أن يلتقوا إلا على الحرب والنزاع.

بينما استطاع الإسلام —وحده في تاريخ الأرض– أن يضرب مثلا إنسانية عليا استمدها من شعوره العميق بوحدة الإنسانية، المستمد بدوره من العقيدة في الله: (**اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ**). و(**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**). فعامل البلاد المفتوحة التي لم تعتنق دين ولا لغته معاملة إنسانية كريمة شهد بها المؤرخون غير المسلمين على أنها حادث فذ في تاريخ البشرية[1]. وعامل أعداءه الصليبيين —حتى وهم يحاربونه على العقيدة– معاملة مثالية لم يقدر عليها شعب آخر ولا دولة ممن يعيشون في واقع الأرض الضيق، ولا يربطون عواطفهم ووجدانهم بالله خالق الحياة والأحياء.

* * *

ويضرب الناس في الأرض مضارب شتى.. فينشأ الصراع.

---

[1] – انظر كتاب ت. و. أرنولد "الدعوة إلى الإسلام" ص51–53–54 ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين.

صراع في عالم العواطف. وصراع في عالم المادة. وصراع في عالم السياسة وصراع في عالم الاقتصاد.

صراع مع الزميل في العمل. أو مع الرئيس والمرءوس. أو مع الزوج والأقارب والأصدقاء.

صراع مع الرغبات الواعية أو المكبوتة. صراع مع الشهوات الجامحة. صراع مع نظريات الفكر المتعارضة. صراع مع المرض. صراع مع العجز البشري والرغبة في التغلب عليه.

فمن يسند الناس في هذا الصراع ويكسر من حدته حين يزيد عن الحد المعقول؟

الدولة؟ المجتمع؟ القانون؟ القوة العضلية؟ التنظيم الاقتصادي الذي تحاوله الشيوعية؟

نعم! كل أولئك يسندون في هذا الصراع الجبار. ولكن إلى أمد محدود. يبقى بعد ذلك من ألوان الصراع ما لا تستطيع كل قوى الأرض أن تسند فيه. لأنه أكبر من كل قوى الأرض، أو لأنه من طبيعة أخرى غير ما تستطيع كل قوى الأرض أن تتدخل فيه.

عندئذ من يسند الناس وهم يصارعون؟ من غير القوة الكبرى الخالدة التي خلقت الأرض والسماء، وهي تتصرف في شئون الأرض والسماء؟ لمن يلجأ الناس في صراعهم غير هذه القوة التي تنتهي عندها جميع القوى، ويقف الكل عندها صاغرين؟

ولقد قطع الناس في الغرب صلتهم بهذه القوة العظمى، وجعلوا كل همهم في الأرض، وكل اتكالهم على أنفسهم في الصراع الجبار. ونشأ من ذلك تعمير الأرض، ونشاط الناس فيها، وسعيهم الحثيث لإصلاح أحوالها والاستمتاع بطيباتها إلى أبعد حد مستطاع.

وذلك كسب لا شك فيه.

ثم نشأ من ذلك أيضاً سعي الشعوب بنفسها لإقامة العدل في الأرض، لأنها لا تنتظر عون السماء ولا تتكل عليه.

وذلك كسب آخر.

ولكن هذا الوجه المشرق الذي يفتن السذج والبسطاء فيدعون إلى الاستغناء عن العقيدة، بل إلى التخلص منها رجاء التقدم والعمل المنتج.. هذا الوجه المشرق ليس الوجه الوحيد للمسألة. هناك وجه آخر كالح كئيب. هنالك البشرية التي لا تعرف السلام أبداً ولا تهدأ ولا تستريح هناك القلق الدائم الذي لا ينتهي، والاضطراب النفسي والعصبي الذي يؤدي إلى

أمراض ضغط الدم والهستريا والجنون والجريمة. وهناك الحروب المدمرة التي تفسد الأعصاب والنفوس، وتتلف في لحظات ما عمرته البشرية في قرون!

وهذا الوجه نتيجة ملازمة لذاك. لا يوجد الأول دون أن يوجد الأخير.

وفي العقيدة الإسلامية لا يمتنع الناس عن تعمير الأرض وعن إقامة العدل فيها. ولكنهم يقتصدون في الصراع لأنهم يستندون إلى القوة الكبرى التي تسيّر الحياة والأحياء. وينظفون وسائله حين لا يكون بد من الصراع.

وفترة صدر الإسلام خير شاهد على هذه الحقيقة. فإن النشاط الذي قام به المسلمون الأوائل في سنوات معدودة، في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعالم الفكر وعالم الضمير ليعد معجزة في تاريخ البشرية. ومع ذلك كانت الحياة الإسلامية في مجموعها أنظف صورة للحياة البشرية على سطح الأرض.

وهكذا نجد أن العقيدة لا تتعارض مع الأهداف التي وصلت إليها أوروبا بمعزل عن العقيدة. وإنما تضيف إليها العنصر الذي ينقص القوم هناك في معاملاتهم كلها.. عنصر الإنسانية!

* * *

وتقع المظالم في الأرض فلا ترفعها العدالة الأرضية المحدودة...

وهل تستطيع عدالة الأرض مهما سمت، ومهما اتسعت آفاقها أن تزيل كل مظالم الأحياء؟

كان الرسول يقول: "**إنما أنا بشر، وإنكم لتختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألْحَنَ بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشيء فلا يأخذ منه شيئا، فإنما أقطع له قطعة من النار**"!

ذلك وهو رسول والوحي ينزل عليه، فكيف بالبشر المحجوبة بصائرهم عن غيب الله وغيب النفوس؟

هذا في المظالم الفردية. أما في المظالم الجماعية، فليس في الأرض نظام –مهما كان من عدالته– يمكن أن يكون عادلا لجميع البشر وفي جميع الحالات، على الأقل لأن تطبيقه في

يد البشر المعرضين دائماً للخطأ والانحراف. وحسب أي نظام أن يسعى إلى العدالة لأكبر مجموعة من الأمة.. أما كلها.. فليس في وسع البشر أن يحققوا ذلك على الأرض!

فكيف يكون حين يفقد الناس ثقتهم باليوم الآخر، وبعدالة الله المطلقة تعوضهم في ذلك اليوم عن ظلم الأرض وتنتقم لهم من الظالمين؟

ليس التواكل.. وليس تخدير الشعوب لتسكت عن حقوقها المسلوبة![1].

كلا! لا نقصد إلى شيء من ذلك. ولا يرضى الإسلام بهذا المنكر الخطير.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ... فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً)... "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يغيروا عليه أوشك الله أن يعمهم بعقاب".

ليس السكوت عن الظلم هو ما يقصد إليه الإسلام.

ولكنها المظالم التي لا تدركها عدالة الأرض ولو قصدت إلى ذلك واتخذت إليه كل سبيل. وألوان الحرمان التي لا تملك الدولة ولا المجتمع أن تزيلها: الضعيف المحروم من القوة. المريض المحروم من الشفاء. الطموح المحروم من المواهب. الفتاة العاطلة من الجمال. الأم المحرومة من الأبناء..

فكيف يعيش المظلومون وهم لا يرجون ثواب الآخرة ولا يثقون في عدالة الله؟ وكيف يعيش المحرومون وهم لا يأملون في عطاء الله السابغ، وتعويضه الكريم لهم عن الحرمان الذي صبروا عليه؟

هل يمكن أن تكون حياتهم سوى أحقاد مريضة وشقاء مرير؟ أو جرائم يضطرب لها وجه الأرض؟

وهل يملك "العلم" لهم من علاج إلا العقيدة التي تبعث في نفوسهم الأمل وتطلق في ظلماتهم شعاعا من النور؟!

* * *

[1] – انظر فصل "الدين أفيون الشعب" في كتاب "شبهات حول الإسلام".

وتفسد الأمور في الأرض، من ظلم الحكام واستهتارهم، وجهالة الشعوب واستكانتها، أو من استغراق الناس في شهوات تستعبدهم لأنفسهم ولغيرهم.. فيقوم المصلحون ينشدون الإصلاح. وتدفعهم إلى ذلك دوافع شتى.

فريق يؤمن بالله واليوم الآخر، وفريق لا يؤمن إلا بواقع الأرض المحدود.

ولسنا نعتقد أن هذا الفريق الأخير خلو من الشعور الإنساني، ومن الإحساس النبيل بآلام البشرية. ولكن أحاسيسهم الشخصية تغلب عليهم. بعضهم يحب البروز إلى حيث تسلط عليه الأنوار. وبعضهم يحقد على الأوضاع الظالمة التي حاولت إيذاءه أو تحطيمه. ومن كلا الشعورين يمكن أن تنبع رغبة حقيقية في الإصلاح، ولكنها موقوتة بدوافعها أو متأثرة بانحرافاتها.

فالذي يصلح لكي يبرز، يحس أن مهمته قد انتهت في اللحظة التي تهتف باسمه الجماهير وتحمله على الأعناق. وتستعبده شهوة البروز فيسعى أحيانا إلى استرضاء الجماهير على حساب الإصلاح الحق! والناس يستفيدون في الطريق. ولكنها فائدة محدودة، لا ترتفع بهم كثيراً إلى حيث ينبغي أن يكون الإنسان الكريم. والمهرجون السياسيون كثير في التاريخ.. وهم مثال لما نقول!

والذي يحقد على الأوضاع الظالمة يعمل برغبة حقيقية لتحطيم هذه الأوضاع، ويشعر بلذة حقيقية في مكافحة الظلم والصمود له وتحمل العذاب في سبيل القضاء عليه.

ولكن الحقد شعور منحرف. ولا يمكن أن يؤدي إلى فلسفة سليمة ولا نظام صحيح. وأبرز مثال لذلك الشيوعية. فهي رغبة مخلصة في الإصلاح، ولكنها تجمع كل أحقاد البشرية وتجعلها وقودا للكفاح وأساسا للنظام! فالحقد الطبقي يتمثل في "إزالة" جميع الطبقات وإبقاء طبقة واحدة تعمل بالعنف وتحكم بالدكتاتورية (وهم يعترفون بذلك علانية إذ يسمون حكمهم "دكتاتورية البروليتاريا"). والحقد على الملاك يتمثل في نزع الملكية الفردية جميعا وحرمان الجميع من الملكية، والحقد على الممتازين يتمثل في التسوية بين جميع الناس موهوبهم وعاطلهم –في الأساس الفلسفي على الأقل وإن كانوا قد اضطروا إلى ألوان من التمييز عند التطبيق. والذي يجذب الشيوعيين إلى الشيوعية في كل أقطار الأرض ليس هو حب الخير للبشرية بقدر ما هو الحقد العنيف من المحرومين على الواجدين. وبصرف النظر عن المبررات الكثيرة لهذا الحقد، فإن أثره لا يخفى في بنية النظام القائم على أساسه. فهذه الدكتاتورية التي تتحكم في كل شأن من شئون كل فرد بحجة استتباب النظام، وبحجة أن الدولة أدرى من الناس بمصالحهم ومواهبهم وميولهم، فهي تعيّن لهم أعمالهم، وتحدد لهم المكان الذي يعملون

فيه، وهي تصنع لهم أفكارهم ومشاعرهم... هذه الدكتاتورية التي لا يخفف من انحرافها أن تسمى دكتاتورية الطبقة العاملة، ليست نظاما طبيعيا يمكن أن تحكم به الإنسانية الراقية إلى الأبد، ولا حتى مدى أجيال. وذلك فضلا عن نضوبها الروحي وتحديدها مجال الإنسان بالواقع الصغير الذي تدركه الحواس فحسب، وحصرها مطالبه في الغذاء والمسكن والجنس.. أي في مطالب الحيوان.

تلك دوافع الذين "يصلحون" دون إيمان حقيقي بالله وباليوم الآخر. وذلك مدى ما فيها من خير في نهاية المطاف.

ولكن الإصلاح الحق يحتاج إلى الحب الصادق العميق. الحب لمن تريد أن تصلحهم ولو لم يتبعوك على الفور ويصفقوا لكلماتك. الحب للطغاة أن يهتدوا وللمظلومين أن يرتفع عنهم الظلم. الحب للناس أن يكون العدل ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده، والخير ملكهم جميعا كأنه ملك كل واحد بمفرده! الحب للبشرية أن تقوم علاقتها على التعاون والود، لا على الصراع والبغضاء.

وعلى قدر الإخلاص في هذا الحب، وتحمل المشقات في سبيله، ومصارعة الشر من أجله وليس حقداً على الشر فحسب، يكون نجاح الدعوة، وتكون فائدة البشرية.

ولذلك كان الأنبياء أعظم قادة البشرية، وكانت رسالاتهم أعمق الرسالات تأثيراً في النفوس.

ويتلوهم من سار في طريقهم، واحتمل قبسة من إيمانهم المخلص العميق.

ولن يستطيع ذلك شخص لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

فحين نسقط من حسابنا دوافع البروز الشخصي أو الحقد الشخصي، فما الذي يمكن أن يدفع للإصلاح؟ لمن يتحمل الإنسان المصاعب وهو لا يرجو بها نفعاً قريباً ولا يطفئ بها غلة؟ وما الذي يغريه على احتمال العذاب حين يتنكر له حتى أولئك الذين يدعو من أجلهم ويحتمل العذاب؟ أو من يغريه بدعوة يعلم علم اليقين أنها لن تؤتي ثمارها في الجيل الذي يعيش فيه؟

هل يمكن أن يدفعه إلى ذلك شيء غير الحب الخالص لله، وابتغاء مرضاته والإيمان بحسن الجزاء عنده للمحسنين؟

وتلك —وحدها— هي الدعوات التي يغلب فيها الخير على الشر، وتصمد لكثير من انحرافات البشرية!

* * *

ومن الناس من يريد عقيدة بلا تكاليف.

عقيدة سلبية كامنة في داخل الضمير، لا أثر لها في واقع الحياة.

فما قيمة هذه العقيدة؟ وكم تكسب الإنسانية من اعتناقها؟

يقولون لك تارة إن "العلم".. علم النفس، يكره القيود التي تفرضها العقيدة على السلوك، ويعدها كوابت للنشاط الحيوي.

ويقولون تارة "إن ربك رب قلوب" وما دام الضمير نظيفاً من الداخل، فقد تحقق الهدف المطلوب من وراء العبادة، وإذن فلا ضرورة لتأدية العبادة!

وهذه وتلك دعاوى براقة تفتن بعض الناس.. على الأقل أولئك الذين يتشبثون بها ليبرروا مسلكهم!

أما العلم النفسي فقد بحثنا شأنه بالتفصيل في غير هذا الكتاب، ورأينا أن العقيدة الإسلامية لا تكبت النشاط البشري، وإنما تساير الفطرة أجمل المسايرة لتخلص منها بأفضل النتائج الممكنة في عالم الإنسان[1].

ومن هذه المسايرة للفطرة كذلك كانت التكاليف في العقيدة الإسلامية!

فالإسلام لا يأخذ الكائن البشري أجزاء وتفاريق. لا يأخذ روحه ويترك جسمه وعقله. لا يأخذ عالمه النظري ويترك عالم الواقع. لا يأخذ ضميره ويترك سلوكه. لا يتركه حالة مبهمة لا تفصح عن الطريق.

والحياة البشرية في واقع الأرض لا تكتفي بالنوايا الطيبة، ولا تستغني بها عن التطبيق.

---

[1] – انظر كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" فصل "نظرة الإسلام" وكتاب "منهج التربية الإسلامية".

فلنفرض أن شخصاً يؤمن بما يسمونه "الديمقراطية" ثم لم يشأ أن يشترك في انتخاب، ولم يهتم بتفضيل مرشح على مرشح، ولا حكومة على حكومة، فما مكسب الديمقراطية منه، وما مكسبه هو من الديمقراطية؟

ولنفرض أن شخصاً يؤمن بالشيوعية، ثم لم يجعل في باله أن يقاتل في سبيلها أو يحتمل السجن والعسف والتشريد، ولم يشترك في اجتماع ولم يقرأ كتاباً ولم ينفذ التعليمات الصادرة إليه في النشرات. فكم يكسب منه "المذهب" وكيف يستطيع هو وأمثاله أن ينشئوا نظاماً ويدفعوا عنه؟

وكذلك كل عقيدة..

هؤلاء المؤمنون السلبيون الذين يعتقدون أنهم وصلوا إلى لب العقيدة وتركوا قشورها.. مخدوعون يخادعون أنفسهم. إنهم يؤمنون في "السلم". يؤمنون طالما كانت العقيدة لا تكلفهم شيئاً ولا تعرضهم لخطر. إيمان الراحة والترف والاسترخاء. أما حين يتعرضون للتكاليف، في الأنفس أو الأموال. أو في الجهد والمشقة. أو في الحرمان من بعض اللذائذ.. فسرعان ما يضيقون بهذا التكاليف. وينزوون بأنفسهم عن ميدان الصراع.

ذلك أنهم لم يعوّدوا أنفسهم على احتمال التكاليف. لم يشاءوا أن يتعودوا التكاليف البسيطة التي تؤهلهم لما هو أكبر.

رفضوا أن يقيدوا أنفسهم بمواعيد محددة وأعمال بسيطة يؤدون بها الصلاة، ورفضوا أن يمنعوا أنفسهم عن بعض الملذات ساعات معدودة أثناء الصيام. فلا يمكن أن ينقلبوا في لحظة واحدة قادرين على التكاليف الكبرى التي تلزم لكل عقيدة. إنهم كالجندي الذي يذهب إلى الميدان بغير تدريب. أقرب شيء إليه أن يفر من الميدان لا أن يصبر على الصراع.

والحياة عادة..

فالذي يتعود على أن يترك نفسه على سجيتها إباء لها عن تحمل المشقة، أو اطمئنانا خادعا إلى أنه يستطيع حين يريد أن يجند نفسه بغير تدريب سابق.. ذلك لن يستطيع شيئاً في واقع الأمر.

وهل كان الشيوعيون يستطيعون أن يصمدوا كما صمدوا في ستالنجراد لو لم يكونوا قد دربوا من قبل تدريباً قاسياً على احتمال العذاب في الثلوج الباردة والشمس الحارقة والامتناع عن الطعام والشراب فترات طويلة؟

وليس الكفاح من أجل تقرير العقيدة أو الدفاع عن كيانها هو الكفاح الوحيد في الحياة. وإن كان هذا في حاجة إلى إعداد دائم تقوم به جميع الأجيال.

وإنما الحياة كلها كفاح...

والمعركة الكبرى ليست هي الحرب التي تستغرق لحظات من حياة البشرية، إنما هي الحياة ذاتها على الاتساع!

ولذلك فالتدريب ضرورة لازمة لكل فرد في كل جيل، ضرورة لازمة لهذا الفرد ذاته. وإلا فكيف يكون حال شخص لا يستطيع أن يمتنع عن شهوة أو يتحمل بتكليف، والحياة تلزم الناس رضوا أو كرهوا، بالامتناع عن كثير من الشهوات والتحمل بكثير من التكاليف؟

والإسلام عقيدة حياة..

عقيدة الحياة الشاملة للنشاط كله ولجميع الأهداف.

ومن ثم كانت عباداته منظوراً فيها إلى التدريب بمعناه الواسع. التدريب على الحياة. وذلك فضلا على ربط القلوب بالله، وهو كما رأينا الضمان الأكبر لنظافة الحياة.

ومن ثم كذلك اتسع معنى العبادة في الإسلام حتى شمل كل عمل يأتيه الإنسان وهو متوجه به إلى الله[1].

* * *

ويقولون لك إن كثيراً ممن يقومون بتكاليف العقيدة بل يتنطعون فيها، هم في حياتهم الخاصة من الفساق الذين لا ذمة لهم ولا ضمير، أو من الجبناء الذي يهربون من الكفاح، أو من الذين يقول القرآن فيهم: (**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ**).. أي حياة!

نعم! ذلك حق!

فكثير من الناس منافقون ومخادعون، وكثير منهم منحرفون عن سواء السبيل. لا تؤتي التربية في نفوسهم ثمارها المنظورة.

---

[1] – انظر فصل "العبادات الإسلامية".

ولكن هل يعني ذلك أن نلغي العقيدة من حياتنا، أو نلغي تكاليفها الظاهرة ونكتفي بها كامنة في الضمير؟!

كلا! فالمنافقون في كل مكان على الأرض. في كل مذهب وكل فكرة. في الشيوعية والديمقراطية والملكية والجمهورية! ومع ذلك لا نلغي الأفكار والمذاهب من أجل أولئك المنافقين والمنحرفين وهم الكثرة الغالبة في البشرية!

وكذلك لا نلغي العقيدة أو نهمل مراسمها وتكاليفها من أجل المنحرفين والمنافقين! وإنما يظل بابها مفتوحاً لكل فرد في كل جيل، ليطّهّر، ويرتفع، ويرفع معه من يستطيع من أفراد البشرية.

ولا ضير على البشرية من الملايين الزائغة حين يهتدي المئات والألوف. فهؤلاء هم الذين يكافحون حقاً، ثم يمسكون في أيديهم الزمام!

العلم وحيرة البشرية

قسم فرويد تاريخ البشرية إلى ثلاث مراحل، عصر الخرافة، وعصر التدين، وعصر العلم.

ثم حمد الله كثيراً، أو حمد الشيطان، على أننا تخلصنا من المرحلتين الأوليين إلى الأبد، ودخلنا المرحلة الثالثة التي يظللنا فيها العلم، وتتفتح لنا أضواء المعرفة فتنير لنا الطريق.

وحمد الله مثله أو حمد الشيطان مئات الملايين من الأحياء اليوم على ظهر الأرض في الغرب "المتحضر" والشرق "المتأخر" سواء. وانطلقوا ينسلخون من الدين، وينفلتون من ذلك القيد الذي قيدتهم به جهالة الأزمان الغابرة، ولم يعد يليق اليوم بكرامة العقل البشري الجبار أن يظل مقيداً به، وقد وصل إلى أسرار المعرفة، وحطم الذرة، وأطلق طاقتها لتحدث الفناء المدمر الرهيب!

وقد أشرت في كتاب "شبهات حول الإسلام" إلى الرواسب اللاشعورية التي رسبت في نفوس الأوروبيين من عهد اليونان القديمة، والتي كانت تمثل الحياة صراعاً جباراً بين الآلهة والعباقرة من البشر، يحاول الآلهة أن يكبتوا أولئك العباقرة، وهؤلاء يحاولون أن يغتصبوا من الآلهة أسباب القوة والمعرفة والنجاح. وقلت إن هذه الرواسب جعلت الأوروبيين يحسون أن الضعف —وحده– هو الذي يخضعهم لله، فإذا تقووا، إذا وصلوا إلى أسرار المعرفة، فلم يعد للإله كلمة عليهم وصاروا هم في نهاية المطاف آلهة!!

لذلك تطغيهم المعرفة، وتبعدهم عن طريق الله: **(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى)** بدلا من أن يهديهم المنطق السليم إلى القوة المعجزة وراء العلوم والأسرار. ولكن أوروبا إذ نبذت إلهها قد أصبحت كما قال سومرست موم في قلق دائم لا تستقر[1].

وليست حيرتها ناشئة من تقلب العلم بين النفي والإثبات كما أشار سومرست موم فحسب، بل إن تقدم العلوم ذاته قد أنشأ حيرة جديدة!

* * *

كان الناس في عهد الخرافة يفسرون الحياة كلها بمجاهيل.

[1] – أشرنا إلى قولته هذه في فصل "العلم والعقيدة".

البرق إله، والمطر إله، والظلام إله، والنور إله، وبعض الحيوانات المرهوبة آلهة، وبعض البشر المزوّدون بقوى خارقة آلهة أو متصلون بالآلهة يتلقون عنهم أسرار الحياة.

وكان الكون ذا طبيعة "تليباثية" على حد تعبير فرويد وبعض علماء الاجتماع، أي أن الإنسان كان يعتقد أنه حين يفكر في شيء أو شخص فإنه يتصل به مباشرة بصرف النظر عن الحواجز والأبعاد، وأنه إذا أراد أن يوصل إليه خيرا أو يلحقه بضرر فما عليه إلا أن ينوي ذلك، أو يقوم بحركات تمثل هذا الخير أو الشر، أو ترمز إليه، ثم يتوجه بها —في خاطره— إلى من يريد إيصالها إليه، فتصل بمجرد النية أو العزيمة. ومن هنا كان السحر، وكانت الرموز التي تستعمل فيه. فإذا اغتاظ إنسان من عدوه فليصنع دمية تمثله، ثم ليطعن الدمية بالسيف، فإن السيف لن يقتل الدمية وحدها، ولكن مفعوله السحري سيصل كذلك —في ذات الوقت— إلى العدو الأصيل. وإذا عبد إلها، وأراد أن يتقرب إليه بالقرابين، فليقم له تمثالا وليضع القرابين عنده، فإنها ستصل إلى الإله المرموز له بالصنم المعبود.

ثم ارتقى الناس في عهد التدين فعرفوا أن هناك إلها خالقا هو الذي خلق الناس والأشياء، وأن قوى الطبيعة ليست آلهة متعددة، وإنما هي مظاهر مختلفة لقوة الله الواحد، تخضع لمشيئته، وهو الذي يسيّرها وفق القانون الذي ارتضاه.

وكان العلم قمينا أن يستمر في تقدمه في ظل هذه العقيدة.

ولكن ظروفا محلية في أوروبا أفسدت العلاقة بين الدين والعلم، وأوجدت بينهما النفور والشقاق. ذلك حين تدخلت الكنيسة فيما لا يعنيها، وفرضت لنفسها رقابة على أفكار الناس وعقولهم. وقامت تحرق العلماء وتعذبهم حين يصلون إلى بعض نظريات العلم وحقائقه، كما حدث لكوبرنيكوس، وجاليليو، وغيرهما من العلماء.

عند ذلك نشأ جيل من العلماء يعادي الكنيسة، ويكره الدين، ويظن أن الحقائق العلمية تسير في خط مضاد للفكرة الدينية بحيث لا يمكن أن يوجدا معا في نفس الإنسان ولا في واقع الحياة. وأنه إما الدين وإما العلم. إما الدين في صورته البشعة التي تمثلها الكنيسة: تحرق وتعذب، وتفرض الإتاوات، وتلاحق الناس بالشر حيثما ذهبوا، وإما العلم الذي لا يخضع لسيطرة بشر، وليست له كذلك قيود يفرضها على البشر، وإنما هو يبحث ويجرب، ويحث الناس بما وصل إليه البحث والتجريب، ويهدف —فيما يهدف إليه— إلى منفعة الناس: يوفر عليهم الجهد البدني، ويقيهم المرض والأخطار.

ولم يكن ثمة مجال للتردد حين توضع المسألة على هذا النحو..

واختار الناس العلم ونبذوا الدين والكنيسة.. والله.

وزاد الأمر سوءاً أن هذه الأزمة الفكرية الروحية لم تكن قد هدأت بعد حين أضيفت إليها أزمة أخرى اجتماعية واقتصادية نشأت من الثورة الصناعية بعد اختراع الآلة.

لقد تحطم الإقطاع في غرب أوروبا ونشأت الرأسمالية. وكانت في بدء عهدها نوراً جديداً يبشر بالخير، ولكن سرعان ما تحولت إلى استغلال منكر يمتص دماء العمال ليزيد في الثراء الفاجر يتكدس في يد الرأسماليين. أما في شرق أوروبا فقد بقي الإقطاع في أبشع صورة وعاها له التاريخ.

وثارت الطبقة الكادحة في الشرق والغرب. فقام رجال الدين يهددونهم بغضل الله! غضب الله لأنهم يقاومون ظلماً ما أنزل الله به من سلطان..!

وكفر الناس... وحق لهم أن يكفروا. كفروا بكل القيم الأرضية والسماوية. كفروا بالدين والكنيسة فوق كفرهم السابق. وتطلعوا إلى الإله الجديد لعله ينقذهم مما هم فيه من هوان.

وأحس الأوروبيون أنهم دخلوا في مرحلة ثالثة من تاريخهم. هي مرحلة العلم.

*   *   *

ومضى العلم في طريقه قدماً يحقق ما يشبه المعجزات...

إن الناس ليفركون عيونهم من العجب في بادئ الأمر، ولا يكادون يصدقون. ولكن حقائق العلم لا تدع لهم سبيلا إلى التشكك. وكيف يتشككون وهم يرون أمامهم القطار والسيارة والآلة الضخمة.. ثم يرون الكهرباء تنير منازلهم وشوارعهم وتدير المصانع والآلات.. ثم يجدون الراديو يعمل بلا سلك والصور تنقل بالتليفزيون بعد أن كان التليفون البسيط من قبل معجزة لا تحتمل التصديق؟!

وقال لهم العلماء: هلم أيها الناس إلى الإله الجديد.. هلموا اتركوا خيالات الماضي المبهمة التي تحدثكم عن أمور لا تستطيع حواسكم أن تدركها، ولا يمكن أن تدخل في نطاق تجاربكم. هلموا اتركوا الدين الذي يفسر لكم الأشياء بإرادة الله –وهي لا تفسر شيئاً!– وتعالوا إلى العلم الذي يفسر لكم كل شيء بقوانين مفهومة يدركها العقل ويستطيع أن يتبين فيها الخطأ والصواب.

يحدثونكم عن الله الذي أنشأ كل شيء من العدم.. هل يمكن عقلا أن ينشأ شيء من لا شيء؟! إن الخلية الحية الأولى لم تنشأ من العدم.. والحياة التي دبت فيها إنما هي عملية كيميائية طبيعية تمت في ظروف تاريخية معينة لم تتكرر مرة أخرى. لماذا؟ أوه!! لا تهتموا بهذه الأسئلة التي لا مدلول لها في واقع الحياة واصرفوا نشاطكم فيما هو أفيد لكم وأنفع!!

ولقد ربطوا لكم بفكرة الله مجموعة من الخرافات التي لا تخضع لمنطق العلم: فحدثوكم عن النبوات والمعجزات. ما معنى أن "يُبعث" نبي؟ وما معنى أن ينزل عليه "وحي"؟ كيف يتم هذا الإيحاء؟ هل هذا معقول؟ إنها "تهيؤات" لا أكثر ولا أقل... وهذه المعجزات! لا يمكن! إن قوانين الطبيعة لا يمكن أن تخرق أبدا.. لا يمكن أن ينشق البحر. ولا.. ولا..

ويحدثونكم عن الروح. ما الروح؟ كيف تثبتون وجودها إثباتا علميا؟ ما الدور الذي تقوم به في واقع الأشياء؟ هل تجعل المواد تتمدد كما تصنع الحرارة، أو تتقلص كما تصنع البرودة؟ هل تنعكس على المرايا، أو الألواح الحساسة كالضوء والأشعة السينية وما إليها؟

ويحدثونكم عن العالم الآخر. ما هو؟ هل رأيتموه؟ هل يمكن أن يدخل في تصوركم؟ هل يمكن تصويره بالكاميرا؟ أو التحسس عليه بالرادار؟

خرافات... كلها خرافات أيها البشر.. لا تشغلوا بها عقولكم. ووجهوا تفكيركم إلى النشاط العملي الذي ينتج ويفيد!

* * *

ونصرف النظر مؤقتا عن أن هذه الملابسات المحلية وحدها هي التي أوجدت الفرقة بين الدين والعلم، وأنه لو أتيحت لأوروبا فكرة أخرى –كالفكرة الإسلامية– لا تعادي العلم والعلماء، ونظام اجتماعي واقتصادي عال –كالنظام الإسلامي– يحرم تركيز الأموال في يد فئة قليلة من الأمة، ويجعل الربح شركة بين العامل وصاحب العمل، ويكفل لكل فرد حياة نظيفة تتهيأ فيها المطالب الأساسية للإنسان، ويجعل الدولة مسئولة عن أقوات الناس وصحتهم وحرماتهم وكراماتهم...

لو أتيحت للناس في أوروبا هذه الفكرة وهذا النظام لأمكن أن يسير العلم سيرة سوية في ظلال العقيدة، لا يصادمها ولا يحتاج إلى معاداتها.

نصرف النظر عن ذلك مؤقتا، للسير مع العلم في خطواته الجبارة..

* * *

كانت قضية العلم الأولى أن ينقذ الناس من الغموض والإبهام الذي يصاحب العقائد! ينقذهم من المجاهيل التي لا تقبل التفسير. ويعطيهم "معلومات". معلومات ثابتة يقوم عليها البرهان المادي المحسوس.

وفي وسط الحيرة والفزع اللذين سادا أوروبا في القرون الوسطى، لأسباب مختلفة كانت الكنيسة واحدا منها، بدا للناس أن العلم مخلص حقيقي من الحيرة والاضطراب.

واطمأنوا إلى أنهم يقفون على أرض صلبة لا تهتز تحت أرجلهم. أرض العلم. أرض الأبحاث التجريبية التي لا تخطئ. ولا يمكن أن تخطئ.

وتنازلوا في سبيل هذه الطمأنينة عن حاجتهم البشرية الطبيعية إلى العقيدة، والاتصال بالله، والاستعانة بقوته في صراع الأرض الجبار. خاصة والله —كما صورته لهم الكنيسة— يبلبل أفكارهم بقضية التثليث، ولا يسعفهم في صراع الأرض لأن يقول لهم: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر، ومن أراد أن يأخذ رداءك فأعط له الثوب أيضاً".

ومضى العلم في خطواته المرسومة يفتح كل يوم عالما جديدا من المجهول. ووصل إلى ميادين لم يكن يتصور أحد أو يصدق أنه يستطيع أن يصل إليها. في أغوار السماء وأغوار الأرض.. وأغوار النفس البشرية.

وملأت البهرة والإعجاب قلوب الناس بهذا الإله الجديد الجبار... الإله المفهوم. الذي يمكن إدراكه بالحواس، وقياسه بالآلات، وحسابه بالأرقام!

ولكن الفرحة الغامرة لم تدم طويلا في نفوس الأوروبيين!

وجاء اليوم الذي ناقض العلم فيه نظرياته "الثابتة" التي لا تقبل الجدال.

كان كشف نيوتن لقوانين الجاذبية معجزة لا يفرق بينها وبين معجزات الأنبياء "الموهومة!" إلا أنها داخلة في نطاق المعقول، قابلة للحساب الدقيق.

ثم..

جاء أينشتين ليقول إن قوانين نيوتن محلية بحتة. لا تفسر إلا هباءة صغيرة من كيان هذا الكون، وإنها تؤدي إلى نتائج خاطئة حين تطبق على الكون الكبير.

وقال علماء الطبيعة إن الضوء ينطلق دائماً في خط مستقيم..

ثم عاد علماء الطبيعة يقولون إن الضوء ينحرف بتأثير الجاذبية فلا ينطلق في خط مستقيم!

وقالوا إن الزمن حقيقة مطلقة..

ثم عادوا يقولون إن الزمن حقيقة نسبية.. وإن الشيء الواحد أو الحدث الواحد يكون حاضرا بالنسبة لك في هذا الكوكب، وماضياً بالنسبة لكوكب آخر، ومستقبلا بالنسبة لكوكب ثالث!

وقال الكيميائيون إن العناصر والمركبات تسلك سلوكا واحدا في جميع الظروف المتماثلة.

ثم عاد الكيميائيون يقولون إن بعض العناصر والمركبات المنتجة في المعمل تشلك سلوكا مخالفا للمتوقع منها حسب "حتمية" القوانين الطبيعية!

وقال الأطباء: لا تأكلوا إذا مرضتم بالمرض الفلاني واكتفوا بالسوائل لأن الأكل في هذه الحالة خطر محقق على الصحة.

ثم عاد الأطباء يقولون: كلوا إذا مرضتم بهذا المرض. فالأكل إحدى وسائل الشفاء!

وبدأت الحيرة التي أشار إليها سومرسست موم.

ولكنها لم تكن الحيرة الوحيدة..

لقد كانت الحيرة العظمى هي ما نتج عن أخطر فتح في ميدان العلم الحديث: تفجير الذرة!

كان العلماء قد قالوا للناس إن "المادة" هي أساس الحياة والكون، حتى لقد وصلوا في ذلك إلى حد الانحراف والتهوس. إلى حد تفسير كل شيء في نطاق المادة. ولو كانت النفس الإنسانية هي موضوع التفسير! وإلى حد نكران كل ما ليس بمادة. فأنكروا الروح لغير شيء سوى أنها ليست مادة ترى أو تُحس!

كانوا يقولون: هذه هي "الحقيقة". حقيقة ملموسة واضحة المعالم والحدود. حقيقة لا غيبيات فيها، ولا إبهام ولا غموض. حقيقة لا تلجئنا لقوة أخرى خفية لا نراها، ولا تدركها الحواس.

وفجأة.. اهتزت الأرض الصلبة، وزلزلت زلزالا شديدا، وتناثرت سحب الغبار تملأ الآفاق، وتسد طريق النور..

وانتظر الناس. انتظر العلماء حتى يهدأ الغبار الثائر وتستقر الأرض من زلزالها العنيف.

ونظروا... فإذا الأرض الصلبة التي يقفون عليها قد انداحت من تحت أرجلهم، وإذا هم معلقون في الفضاء.. فوق السحب الضالة التي دفعتها قوة الانفجار في طريق غير محدود!

"المادة" لم تعد مادة!

لقد انفجرت وانطلقت فإذا هي "طاقة"!

ووقعت الحيرة الكبرى. إن كل حقائق العلم السابقة عرضة للتغير على هذا الأساس الجديد: وهو أن الكون كله والحياة كلها طاقة. وأنه ليس ثمة مادة إلا للنظرة السطحية التي لا ترى غير ظواهر الأشياء. وأن الفواصل بين المادي وغير المادي أصبحت غير ذات موضوع!

وانطلقت السحابة الشاردة في دفعة من دفعات الانفجار العنيف، فانتقلت فجأة من ميدان "الطبيعة" إلى "ما وراء الطبيعة". وإذا الفرق بينهما ليس بالضخامة التي تخيلها العلماء وهم يعيشون في عالم المادة! ويحسبون أن هناك فارقا جوهريا بين المادة المحسوسة والضوء المنطلق في الفضاء والطاقة التي لا تراها العيون.

وزلزلت الأرض كرة أخرى، فإذا العلماء في حيرة كبرى..

"الحقائق" التي توصلوا إليها من قبل.. ما هي اليوم في ضوء الحقائق الذرية؟

"والمعرفة" التي عرفوها.. ما نصيبها اليوم من المقدرة على تفسير الأشياء؟

ما هذه الطاقة؟ ما سرها؟ ما كنهها؟ ما حقيقتها؟

يستطيع العلم أن يشهد ظواهرها ويسجل مظاهرها، ولكن "هي" في جوهرها. ما هي؟

كان الناس والعلماء قد استقروا حين حسبوا أنفسهم وصلوا إلى حقيقة الكون أو حقيقة المادة. فما الحقيقة اليوم في العصر الذري الجديد؟ أهي "معلوم" يعلمه الناس ويستطيعون أن يلموا بجوهره؟ أم "مجهول" خفي لا تشهد إلا مظاهره الخارجية، وتظل حقيقته عميقة في أغوار المجهول لا تصل إليها العقول؟

قصة الصبي الذي أعطى مفتاح القصر المسحور... ففتحه غرفة غرفة، وبهره ما لقيه هناك من عجائب وأسرار، كل غرفة تحوي أشياء أعجب من سابقتها. حتى وصل إلى الغرفة الأخيرة، وهناك قرأ تحذيراً من الدخول؟ ولكنه لا يتردد إلا هنيهة. إنه يريد أن يزداد معرفة وعلماً. وماذا يخشى اليوم وقد تمرس بكل أنواع المعلومات في الغرف السابقة؟

وأخيراً أقدم وفتح الباب المحظور..

وهناك.. تقول القصة إنه وجد ما أذهله عن معرفته السابقة، وأنساه كل العالم المنظور، وغاب في الملكوت!

* * *

لقد أدرك العلماء اليوم أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسير كل شيء في الكون بقانون مفهوم!

أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة!

وأن العصر الذهبي للعلم —في نظرهم– العصر الذي سيطر فيه الإله الجديد فجعل يثبت ما يدخل في إدرامه وينفي ما لا يقع في نطاقه..

هذا العصر كان عصر الخرافة الكبرى!

وأن الخرافة التي سيطرت على عقول البشرية في فجر التاريخ —قبل عصر التدين– لم تكن الخرافة الوحيدة في تاريخها. وأن الخرافة الجديدة —التي تزعم أن العلم يفسر وحده كل شيء– ربما كانت أخطر من الأولى وأخبث في إفساد المدركات، وإفساد العلاقات بين البشر، لأنها تعطل —أو تسقط من حسابها– جوانب من الكون ومن النفس البشرية، ربما كانت أعمق وأفضل "وأنفع" للناس من كل ما يقع في نطاق المعلوم!

وبدأ هؤلاء العلماء –بعضهم على الأقل– يكفّرون عن خطيئتهم السابقة في تضليل البشرية، وجرها إلى خرافة أخطر على كيانها من خرافة ما قبل التاريخ.

بدءوا يقولون للناس نحن لا نعلم! وما أوتينا من العلم إلا قليلا!

بدءوا يقولون لهم: إن هذا المارد البشري الجبار، الذي استطال في الأرض وحسب أنه قادر على كل شيء، قد تضاءل فجأة. تضاءل بشدة. حين فتح باب الغرفة المحظورة، فانفتحت أمامه كوة على المجهول!

وكما خرج الناس من الخرافة الأولى إلى النور الحق الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويفتح مغاليق النفس لتتصل بالقوة الكبرى، فتدرك ببصيرتها ما تعجز عن إدراكه بأفهامها..

كذلك يخرج العلماء واحداً تلو الآخر من الخرافة الثانية –خرافة أن العلم يفسر كل شيء– فيدخلون إلى النور الحق.. نور العقيدة المشرق المضيء.

العقيدة –فيما يظهر– هي الملجأ الوحيد من الخرافة، هي النور الوحيد الذي يكشف المجهول.

قال جيمس جينز، العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحداً شاكا: إن مشاكل العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله.

وقال ألدوس هكسلي، العالم الطبيعي والفيلسوف الأديب: إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزودون بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس وإن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لا يبرر إنكارنا له. فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر. من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة التذكر؟ أو الإدراك؟ كذلك نحن لا نعلم كيف يتم الاستشفاف، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية.. ثم استشهد في نهاية مقاله بالدكتور راين أحد العلماء المشتغلين في هذع الأبحاث، حيث قال: إن هذه الحقائق تدخلنا رويدا رويدا إلى عالم الدين!!

وقال أ. كريسي موريسون، رئيس الأكاديمية الأمريكية للعلوم بنيويورك في كتابه "العلم يدعو للإيمان" (الإنسان لا يقوم وحده Man does stand alone): "إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الضخمة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون.

"إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم في كل وحدة من وحدات العلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون –التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون– إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهرياً. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتفتح مجالا للإيمان بوجود مدبر جبار وراء ظواهر الطبيعة".

والبقية ما تزال في الطريق...

ولن يكون الهدف هو القضاء على العلم ولا نبذ النتائج العلمية التي توصل إليها، والتي تحقق كثيراً من الخير. وإنما الهدف تصحيح الأوضاع في الأرض وإطلاق العلم في طريقه السوي في ظلال العقيدة.

ولكن "الناس" لا يريدون بعد أن يصدقوا" لا يريدون أن يخرجوا من عالم الخرافة الذي يعيشون فيه! وتعز عليهم معبوداتهم التي يحسبونها حقيقة، ويأنسون إليها كما كانوا يأنسون من قبل إلى الأصنام والأوثان!

وتبدو لهم العقيدة أمراً عجيباً بعيداً عن التصديق! كيف يتركون الصنم المحسوس الذي يرونه رأي العين، ليعبدوا إلهاً بعيداً عن أنظارهم لا تتبدى ذاته للحس القريب؟

ولكن النتيجة الأخيرة ليست موضع ارتياب.

فسوف يتبع الناس أنبياءهم المحدثين –علماء اليوم– وهم يدخلون بهم إلى الساحة الكبرى التي يغمرها النور.. النور الحق.. نور العقيدة المشرق المضيء. وإلا فسوف يظل الشيطان يضللهم كما ضللهم من قبل، ويدفع بهم إلى الحيرة والاضطراب.

الصراع

هل الصراع ضرورة بشرية؟ بحيث لو خلت منه النفس الإنسانية والحياة البشرية لنقصت كل منهما عنصراً أساسياً في كيانها؟ أم هو مرض يصيب النفس والمجتمع، ونشاط ضار كالأورام الخبيثة التي تصيب الجسم فتفسد كيانه، وتقضي عليه في النهاية؟

يحلم الشيوعيون بعالم خلا من الصراع.

ومن قبل كانت "اليوتوبيات" –أو العوالم المثالية الخيالية– تحلم هذا الحلم، وترسم له صوراً مبدعة من صنع الخيال..

ولكن الصراع مع ذلك حقيقة!

وأنا أحسب أنه قائم في طبيعة الكون كله، وليس في طبيعة الإنسان فحسب. انظر إلى الأفلاك كلها في الكون العريض.. كل فلك يقع بين الشد والجذب لمجموعة من الأفلاك الأخرى، وهو لا يأخذ مساره المنتظم المتوازن إلا بوجوده بين هذه الأفلاك، وتعرضه لشدها وجذبها جميعاً! قوة تجذب عن يمين وقوة تجذب عن شمال، ثم ينتظم الكوكب في مداره المرسوم. ولو بطل الشد والجذب لهوى الكوكب في الفضاء إلى حيث لا يعلم أحد، ولا يستطيع أن يتصور أحد!

كل ما هناك أن هذا الشد والجذب قائم بمقدار، حسبما قدرته القوة المعجزة التي أنشأت هذا الكون من العدم، والتي تدبر أمره وتشرف عليه. وهدفه المرسوم هو إيجاد التوازن في الكون، وليس هدفه الإفناء والتحطيم. فكل كوكب يتعرض منه للقدر الذي يحفظ توازنه في النهاية، ولا يعرضه للتناثر والتفكك، إلا حين تكون تلك هي المشيئة العليا للقوة التي تدبر أمر هذا الكون العريض.

ثم انظر إلى الحياة على الأرض.

إنها مثل من أمثلة الصراع الأزلي الدائم الذي لا يفتر ولا يضعف ولا يهن.

كل نبات له آفة. وكل حيوان له عدو..

والمد والجزر بين الفريقين دائمان متناوبان.

كل ما هناك أن حركة الصراع الدائمة بين هذه المتناقضات تهدف إلى إيجاد التوازن الدائم بين قوى الأرض، فلا تطغى قوة على الأخرى، ولا تنفرد وحدها بالسلطان!

وعالم الإنسان كذلك.. الصراع عنصر من عناصره الأصيلة، وضرورة لا تستقيم بدونها الحياة.

ضرورة يشير إليها تركيب الإنسان ذاته من جسم وعقل وروح، مختلفة المطالب متباينة الاتجاه.

وتشير إليها رغبات الإنسان التي لا تقف عند حد، وطاقته المحدودة التي لا تستطيع تلبية الرغبات كلها، سواء رغبات الجسد أو العقل أو الروح.

يشير إليها تطلع الإنسان الحسي والمعنوي إلى السماء، إلى الطيران والتحليق، والجاذبية الحسية والمعنوية التي تثقله إلى الأرض، وتشده إليها شداً.

يشير إليها اضطرار الإنسان إلى مقاومة كثير من الآفات والأمراض والقوى الطبيعية لكي يعيش، فضلا عن أن يرتفع بحياته إلى حيث يرجو من الارتفاع.

ويشير إليها أخيراً وجود الشر في الأرض كحقيقة واقعة، واضطرار الخير أن يصارع الشر لكي يثبت وجوده، فضلا عن الغلبة عليه في نهاية المطاف.

* * *

ونبدأ بهذا العنصر الأخير.

هل أمكن في الواقع العملي القضاء على الشر ومحوه من الوجود؟

تلك هي الشيوعية التي زعمت أنها أممت وسائل الإنتاج لتبطل الصراع –الذي لا منشأ له في زعمهم إلا السعي لتملك وسائل الإنتاج –تلك هي الشيوعية تتهم بريا بالسعي إلى السلطان، وتحاكمه وتعدمه –لثبوت التهمة في نظرها– رغم أنه تربى في ظل النظام الشيوعي وارتفع في ظله من القاعدة إلى القمة.

وهذا هو ستالين –بعد أن مات– يُتهم في روسيا بالدكتاتورية والطغيان، والانحراف عن مبادئ الشيوعية، والأثرة والأنانية، وارتكاب الجرائم بلا وازع ولا ضمير!

فما معنى ذلك؟

معناه أن إبطال الملكية الفردية لم يبطل نوازع الشر في النفوس، وأن هذه النوازع —في بعض النفوس على الأقل– أعمق كثيراً من وسائل الإنتاج!

ولا نحتاج أن نذهب إلى المدى الذي ذهب إليه فرويد حين افترض أن بذرة الشر — مقترنة بعقدة أوديب– موجودة في كل نفس.. كل نفس في هذا الوجود.

ويكفينا أن نقول إن بعض النفوس أميل إلى الشر وأقدر عليه.

فماذا يصنع الخير إزاء هذا الشر الموجود، إذا لم تكن له القدرة على الصراع؟

من هنا نقول إن الصراع ضرورة بشرية. وعلى هذا النحو نفهم الآية التي تقول: **(وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ)**. أي لغلب الشر وأصبح هو المسيطر على الأرض.

نعم. ضرورة" بشرية". ما دام البشر هم هؤلاء البشر وحياتهم هي هذه الحياة.

والخالق —سبحانه– قد زود مخلوقاته بضروراتها.

وما دام الصراع ضرورة للبشر فقد زود البشر بالقدرة على الصراع.

زودهم بها في أجسامهم وعقولهم وأرواحهم، وكيانهم كله.

فهو إذ أعطاهم أجساما تشتهى، وعقولا تفكر وأرواحا تحلق ساعية إلى النور، زودهم كذلك بالقدرة على التوفيق بين هذه جميعاً. ولن يقوم التوفيق بينها إلا بشيء من الصراع. شيء من التدافع. حتى لنستطيع أن نقول: إنه لولا دفع هذه القوى بعضها ببعض لفسدت النفس.

ولنتصور إنسانا يسير في خطه الجسدي إلى آخر مداه، فينساق مع شهواته ويصبح في النهاية عبدا لهذه الشهوات. هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الانسياق في بنية المجتمع؟ إن الشهوة لا تهدأ بإشباعها الدائم، بل تصبح سعارا دائما لا ينقطع، وعذابا دائما لا يستقر.

أو نتصور إنسانا يسير في خطه الروحي إلى آخر مداه، فيكبت نشاطه الحيوي ولا يسمح له بالوجود في كيانه الواعي. هل تتحقق له سعادته الفردية فضلا عن أثر هذا الكبت في وقف الحياة —وقف النسل، ووقف عمارة الأرض– بوقف النشاط الجثماني؟ إن الكبت عذاب دائم لا يهدأ صاحبه ولا يستريح.

أو نتصوره سار مع عقله ومنطقه لا يستجيب لدفعات الجسد أو هواتف الروح.. إن الذهن —على ألمعيته ونشاطه الفائق في محيطه الخاص– قوة بليدة لا تنفعل. وآلاف من الأعمال التي لا بد منها لتسيير دفة الحياة قد لا يسيغها منطق العقل، خاصة حين يتجرد ويدخل فيما وراء الطبيعة، وينكر حقائق الأشياء الظاهرة ويقول إنه ليس لها وجود مادي!!

إنه لا بد من التوفيق بين هذه المتناقضات.

ولن يكون التوفيق بينها إلا بشد بعضها بعضا نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق. وتلك بذرة الصراع في داخل النفس الإنسانية. وهي ضرورة لا يستقيم بدونها الكيان النفسي للبشر.

فإذا وسعنا الدائرة قليلا وجدنا في النفس الواحدة بذرتين تنموان في اتجاهين مختلفين. ففي نفس الإنسان كيانان متميزان: كيانه كفرد مستقل، وكيانه كعضو في جماعة. كلاهما أصيل فيه. وليس أحدهما مفروضا عليه من الخارج. فهذا الفرد الذي يحب ذاته: **(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)** ويحس أحيانا أن ذاته هذه هي محور الوجود كله وملء فراغه، هو نفسه يضيق بذاته الفردية، ويحس كأنها سجن ينقبض عليه وتكاد تفتك به وحدته، فيسعى إلى "الناس" إلى "المجتمع" فرارا من وحدته وأنسا بالآخرين.

هاتان بذرتان متناقضتان، لو استجاب لإحداهما استجابة كاملة لقضت على الأخرى، أي لقضى جزء من النفس على الجزء الآخر. ولا بد من التوفيق بينهما. ولن يكون التوفيق إلا بشد إحداهما للأخرى نحو نقطة التوازن في منتصف الطريق.

ونخرج من النفس الواحدة إلى النفوس المتعددة، فنجد شبيها لهذا التناقض وهذا الصراع. نجد تناقضاً بين نفوس الناس ومصالحهم وشتى اتجاهاتهم. تناقضاً لا بد من التوفيق بين جزئياته. ولن يكون التوفيق إلا بشيء من الصراع لرد القوى المتطرفة إلى نقطة التوازن في منتصف الطريق.

الصراع إذن ضرورة.

وحكمة الخالق العليا قد اقتضت التوفيق بين المخلوقات وضروراتها، فجعلت بذرة الصراع موجودة في داخل الكيان النفسي ما دامت ضرورية لواقع الحياة.

والفكرة الإسلامية تقر الصراع على هذا النحو: على أساس أنه ضرورة لازمة لمنع الفساد عن الأرض، ولإيجاد التوازن في الحياة البشرية. وأنه –لهذا السبب– موجود في بنية النفس الإنسانية.

ولكن الفكرة الإسلامية فكرة متوازنة، لا تشتط ولا تتطرف إلى أقصى اليسار أو أقصى اليمين.

فبينما تقوم الحضارة الغربية اليوم على الصراع الخالص: صراع بين الأفراد لا تحكمه إلا الضرورة، وصراع بين الأمم لا تحكمه إلا غلبة السلاح.

وبينما تقوم الشيوعية على فكرة أن الصراع ذاته ينشئ الاضطراب في المجتمع، فلا بد من القضاء عليه لكي يستريح المجتمع ويستقر إلى الأبد (وإن كانت في الواقع في حاجة إلى صراع دائم للقضاء على نوازع الصراع)؟!...

فإن الإسلام لا يعتبر الصراع هدفا في ذاته، ولا يقر كذلك أنه هو بذاته الذي ينشئ القلق والاضطراب في حياة البشرية.

الإسلام يفهم الصراع على أنه وسيلة للتوفيق بين المتناقضات، ووسيلة بعد ذلك لرفع الكائن البشري عن عالم الضرورة، وعن وهدة الشر، إلى حيث يستطيع أن يحلق –سوياً متوازناً– في عالم النور.

وهو لهذا يوازن عنصر الصراع في داخل النفس.

يوازنه أولا بعنصر الحب.

فلو أن الصراع نبت وحده في داخل النفس –وهو طاقة طبيعية تنشأ نشوءاً ذاتياً كما أسلفنا– فلن يؤدي غير مهمة واحدة، هي الكراهية والنفور. هي التنابذ والتناحر. هي الحرب المدمرة التي تعمل للهدم ولا تعمل للبناء.

والحب هو الذي يستطيع أن يوازن عنصر الصراع في النفس، فيخفف حدته ويكسر شوكته، أو "يستأنسه" فلا يهيج إلا حيث ينبغي له أن ينطلق لتحطيم الشر، لتحطيم العناصر التي تقف في طريق الحب، وتمنع البشرية أن تستمتع بظلاله.

والحب نبتة إنسانية طبيعية، تنشأ نشوءاً ذاتياً في باطن النفس. وهو سابق في وجوده على الكراهية والصراع. كذلك اعترف فرويد دون أن يقصد![1].

ولكنه لا يستمر في نموه، ولا يزدهر ويترعرع إلا في بيئته الطبيعية وجوه الملائم.

في داخل الأسرة يتلقى الطفل أول نسمة من نسمات الحب الرخية التي يتفتح لها قلبه الصغير.

من صدر الأم الدافئ وبين ذراعيها الحانيتين يحس بالأمن والراحة، ويفتح عينيه مطمئنا إلى عالمه الصغير..

ثم يكبر قليلا ويتطلع إلى أبيه.. ومن مناغاة الأب ورعايته يطمئن إلى عالم أوسع من الثدي الذي يطعمه والذراعين اللتين تحملاته.. ويدلف رويداً رويداً إلى العالم الكبير.

وبغير الأسرة، بغير أم وأب يمتلكهما الطفل ملكية كاملة، ويحس أنه لا منازع له فيهما — في العامين الأولين على الأقل– لا يترعرع الحب الذي يوازن بذرة الصراع، فينشأ الصراع وحده نافراً كالأشواك.

لذلك يحرص الإسلام حرصاً شديداً على كيان الأسرة. ويقيم فكرته كلها: الروحية والفكرية والاجتماعية —والاقتصادية كذلك– على تخصيص الأم لمهمتها الخطيرة في تكوين البشرية.

لأنه يريد للناس أن ينشئوا متوازنين.

ولكن المدنية الحديثة —المدنية الحمقاء التي أطار صوابها الكسب المادي والإنتاج الآلي– قد نزعت الأم من طفلها المتشبث بها، المتطلع إليها، لتضعها في المصنع والمتجر والطريق. وسمت ذلك تحريرا للمرأة.. لا جرم يكون ذلك تحريراً للبشرية من عنصر الإنسانية!

---

[1] – انظر كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" فصل "القيم العليا".

والمحاضن التي يلهّون بها الأطفال، يلهّون بها الأجيال المقبلة من البشرية، لن تكون إلا منابت الشوك الذي يمزق غدا أجيال البشرية!

* * *

وبعد ذلك يقيم الإسلام توازنا آخر لعنصر الصراع.

فهو لا يكتفي بأن يوازنه بعنصر الحب، حتى لا ينقلب إلى نفور مطلق وخيم.

ولكنه يوازن كذلك مكانه من الكيان النفسي والطاقات البشرية..

فحيث تعمل بعض العقائد —كالهندوكية– على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى داخل النفس لكبت الجسد، وغل نشاطه بحجة التطهر والارتفاع..

وحيث تعمل بعض المدنيات —كالمدنية الأوروبية الحديثة– على توجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى خارج النفس، فتعمل على تحطيم الآخرين من بني البشر (على الأقل خارج حدود الدولة أو القومية ذات السيادة)..

يعمل الإسلام على توجيهها —بقدر– إلى الداخل والخارج على السواء، في الحدود المعقولة التي لا تدمر النشاط الحيوي ولا تدمر كذلك الآخرين، وإنما تسمح لكل بالعمل في الحدود المأمونة للجميع.

وللإسلام في ذلك حكمته..

فتوجيه طاقة الصراع كلها أو معظمها إلى الداخل ينظف النفس حقا من شهواتها، ولكنه يقتل نشاطها وينشئ فيها سلبية معيبة تجاه الحياة. سلبية لا تنتج، ولا تقاوم الشر حين يقع، ولا تضيف شيئاً إلى رصيد الحياة الدائم النماء.

وتوجيه هذه الطاقة كلها أو معظمها إلى الخارج ينشئ قوة إيجابية حقا. قوة تنتج وتخلق جديدا كل يوم. وتفتح وتتوسع. ولكنها تقضي على نفسها بحماقة في نهاية الأمر، لأنها تهمل تنظيف داخل النفس، ولا تتعرض لتهذيب الشهوات. فتعصف هذه الشهوات في النهاية بكل ما أنتجته تلك القوة الإيجابية من خير مفيد.

أما التوجيه المتوازن فهو يوجه إلى داخل النفس من طاقة الصراع ما يقف في طريق الشهوات الجامحة، ولكنه لا يحبسها من منبتها، ولا يعترض طريقها المشروع، أي أنه لا يكبتها ولا يستقذرها في ذاتها، وإنما يحدد لها فقط سبيلها المأمون.

ويوجه من هذه الطاقة إلى خارج النفس ما يحول دون وقوع الشر، ولكنه لا يقف في طريق الرغبات المشروعية للآخرين، فلا يعطل إنتاجهم، ولا يشغلهم عنه بالدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء. ويقيم نظامه على أساس "إنساني" لا قومي ضيق، ولا مذهبي متعصب، يتعاون فيه البشر كلهم لخير الإنسانية.

وبذلك يتجنب السلبية المريضة كما يتجنب الإيجابية المعتدية، ويحقق من الخير على وجه الأرض أقصى ما يستطاع.

ويوم كان المسلمون يفهمون من دينهم هذه الحكمة، أو يدركونها ببصيرتهم، كانوا هم القوة العاملة على وجه الأرض، الممسكة بمشعل النور تضيء به للبشرية الطريق.

ويوم انحرفوا بطاقة الصراع إلى داخل النفس أو خارجها، انحرفوا عن سبيلهم الأقوم، وحل بهم ما يحقق سنة الله في المنحرفين عن صراطه المستقيم.

* * *

وإذ يعلم الإسلام أن الصراع طاقة ضرورية لداخل النفس وخارجها، فإنه يتعهدها بالرعاية والتوجيه.

فهو لا يتركها تطغى عن حدودها المعقولة، بل يعقلها بالحب من أول الطريق.

ولا يتركها كذلك تذوى وتضعف لسبب من الأسباب، لأن ضعفها ينشئ انحرافاً آخر في النفس الإنسانية. ينشئ فيها الترهل والتخاذل والانحطاط..

فالجسم الذي لا يقوم بأية رياضة ولا جهد، يصيبه الترهل، وتنحط قوته، ولا يعود قادراً على تحمل شيء من الأعباء، أو مقاومة شيء من الأدواء. وسرعان ما يصيبه التلف والبوار.

وكذلك النفس التي لا تدرب على الرياضة والجهد.. تضعف وتترهل.. وتصبح نفساً مائعة متهاوية لا تقف في صدام، ولا تتحمل مواجهة الواقع بما فيه من مشقات. ولا تصلح –فضلا عن ذلك– لعظائم الأمور التي تحتاج لمزيد من الجهد، لأنها أحفل بالمشقات.

ومن هنا تظل هذه النفس تدور في محيط تافه، وتتهاوى حتى تستحيل إلى فتات.

لذلك يرعى الإسلام في النفس قوة الصراع. فهو يكره التفاهة المتهاوية، ويكره تحول الناس إلى فتات، وهو يعدّهم دائما للنشاط والرفعة، والقوة والنماء.

يرعاها بشتى ألوان التدريب.

وفي بعض عباداته –كالصوم– تدريب لطاقة الصراع في داخل النفس.

وفي بعض توجيهاته –كالفروسية– تدريب لها في مواجهة الناس والأشياء.

وهو يختار لذلك لفظة "الجهاد".

جهاد النفس بنهيها عن الهوى. وجهاد الأعداء بالتدرب على القتال. وجهاد الظلم من الحكام أو المحكومين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتغيير عليه..

وبذلك ينقذ النفس من الترهل، ويصل في الوقت ذاته إلى تصحيح الأوضاع في المجتمع البشري كلما مالت إلى الانحراف.

وهي لمسة واحدة من القوة المعجزة، تضع كل شيء في مكانه الصحيح، فتدور العجلة كلها في اتجاهها الصحيح..

مقياس الحياة

هل للحياة مقياس؟

خطر هذا السؤال في بالي أول مرة وأنا أستعرض في خيالي حياة حارس المنارة.

أهو حي؟

ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء. هناك في عرض البحر. وحده. وحده من كل نأمة وكل حركة إلا أصوات الموج المصطخب أحياناً، الهادئ الرتيب أحياناً أخرى. وصوت الريح المزمجرة في غضب عنيف تارة، المرسلة رخاء تارة أخرى. وهذا الشعاع من النور الذي يرسله في الفضاء لتراه السفن من مكان بعيد.

أهو حي؟ ذلك الرجل المنقطع عن الحياة والأحياء. الصامت لا يتحدث. الساكن لا يتحرك. الذي يعيش في بقعة محدودة لا يملك أن يزيد عليها شيئاً في الفضاء الواسع الممتد حوله لغير نهاية؟

أهو حي؟ وحتى الماء والطعام لا يصلان إليه إلا مرة كل أسبوع أو مرة كل أربعين يوماً. وهو معلق بمرور السفينة التي تحمل إليه هذا الطعام، كأنها القدر الذي يحمل الحياة.. أو الفناء.

أهو حي؟ هل يحس أن بينه وبين الحياة رابطة؟

أهو حقيقة؟

أم هو شخص أسطوري.. شبح يلمحه الإنسان في خياله، ولا وجود له في عالم الحقيقة؟

* * *

وانتقل بي الخيال يستعرض قوماً آخرين بينهم وبين حارس المنارة شبه بعيد أو قريب.

سكان الواحات.. المنقطعون عن الوادي. المحدودة حياتهم بحدود الواحة، لا تكاد تتعداها إلا في مواسم قليلة، والمواسم مع ذلك لا تخص سكانها جميعاً، وإنما تتصل بأفراد قليلين.

هل هم أحياء؟

وسكان القرى في الريف المصري.. سكان تلك الجزر المتباعدة المنقطعة في خضم الحياة.

هل هم أحياء؟

والموظف الذي يعيش هناك. لا تصل إليه الحياة إلا أصداء في الصحف أو المذياع. ولكنه لا يراها. ولا يشارك فيها. لا يدبر بنفسه ولو "ترسا" ضئيلا في عجلة الحياة الضخمة. بل لا يملك أن يشتبك عفواً في أحد التروس الدائرة فيدور معها شوطا يسيراً في الواقع أو الخيال!

هل هو حي؟

* * *

واتسع السؤال في خيالي، واتخذ طريقاً آخر..

هل للحياة مقياس يمكن أن نقيس به حياة هؤلاء الأشخاص، فنعرف أحياء هم أم غير أحياء؟

مقياس مدرج يمكن أن يقول لنا: هذا حي في درجة الصفر، وذلك حي في درجة المائة.

وإذا وجد هذا المقياس فما مفرداته؟ أو درجاته التي يقيس بها الأحياء؟

وهل نستطيع أن نعرف به "درجة" الحياة عند حارس المنارةى وساكن الواحة وساكن الريف؟

ثم أيهما الحي بهذا المقياس -إن وجد- الرجل الأمريكي المتوفز -في ظاهر العين- حياة وحركة، أم الرجل الصيني الذي يبدو -لظاهر العين- بليداً بطيئاً لا يتحرك ولا يعيش؟

واستبد السؤال بنفسي حتى أحدث لي أزمة حقيقية! أزمة عاطفية وفكرية. أزمة تملأ أعماق نفسي وتصل إلى أغوارها.

هل للحياة مقياس؟!

فلنستعرض هذين النموذجين اللذين يعيشان على طرفي نقيض:

الأمريكي لا يهدأ لحظة من يقظته إلى منامه.

يقوم في الصباح متوفزا فيجري مندفعا إلى دورة المياه فيصلح من شأنه. ويفطر على عجل، ويخرج مهرولا إلى عمله. يركب سيارته وينطلق بها مسرعا إن كانت له سيارة. أو يركب السيارة العامة فتنطلق به إلى آخر ما يتاح لها في الزحام من انطلاق. أو يسير على رجليه كأنه يسابق الزمان إن كان العمل منه غير بعيد.

ثم تتاح له مثلا فرصة عشر دقائق في وسط العمل، فيركب مصعداً سريعاً، يصعد به إلى الدور الخمسين أو الستين.. فإذا هناك مكتبة. فيندفع إلى الرف فيخرج كتاباً، ثم يقرأ فيه بسرعة مجنونة مدة خمس دقائق، ثم ينزل في المصعد السريع ويعدو مهرولا إلى العمل.

ويجيء يوم الأحد، فيركب هو وأسرته السيارة منطلقاً إلى المزارع والغابات بأقصى سرعة تتاح له إلى منتصف الطريق. ثم يمكثون هنيهة يتناولون فيها الطعام على عجل، ويعودون إلى السيارة، فتقودها زوجته بأقصى سرعتها ليعودوا إلى المدينة.

حركة دائمة. نشاط مستمر، سرعة في كل شيء... سرعة تبلغ حد الجنون!

هل هو حي حقاً ذلك الأمريكي الذي ينطلق كالآلة ويعيش كالآلة؟

هل يستمتع حقاً بالحياة.. وهل يحس بها في زحمة هذا الانطلاق المجنون؟!

والصيني رجل هادئ وئيد لا يكاد يتحرك[1]. الزمن لا يساوي شيئاً في حسه وفي حياته. فعلام ينطلق، وعلام يندفع، وعلام يهرول كالمجنون؟ كل شيء يمكن أن يتم بهدوء. ولن "تطير" الدنيا إذا سار عشر خطوات في الدقيقة بدلا من مائة. ولن يحدث شيء في الوجود إذا جلس مع صديق له "يدردش" من الصباح إلى الظهر، أو من المغرب إلى ساعة متأخرة من الليل.

أو إذا جلس وحده..

ما الذي يمكن أن يحدث؟

---

[1] – في الصين اليوم حركة ونشاط، ولكنها –فيما أرى– حركة عابرة هي نتيجة تفاعلات مؤقتة. فإذا استقر التفاعل عادت إلى طبيعتها. وهي مع ذلك حركة لا تشمل كل الأفراد. فما زالت الكثرة هادئة وئيدة لا تكاد تتحرك، وإن كنت أرجو أن تكون الصين قد ولدت حقاً من جديد.

يموت فلان أو يولد فلان؟ أو يحدث لفلان حدث من الأحداث؟

وهل الحياة إلا مثل هذه الأحداث؟

فما السرعة وما العجلة؟ هل تحو هذه السرعة دون وقوع ما لا بد أن يقع؟ وهل تتأثر حركة الأفلاك حين يهرول كالمجنون، أو يجلس ساكنا ساعة بعد ساعة أو عاما بعد عام؟

وهل الحياة إلا متعة فانية لا تتلبث؛ فمهما سابقها الإنسان فهي تسبقه. مهما انطلق فهي أسرع انفلاتا. ومهما صنع فالزمن يغلبه بالضعف والعجز والشيخوخة؟

فالمتعة الحقة إذن ليست متعة الأرض... ليست هذه اللحظات الذاهبة إلى غير رجعة. الفانية في عالم المادة.. إنما هي متعة الروح. الروح الخالدة التي تستطيع وحدها أن تغلب الزمن. لأنها لا تعرف الفناء..!

لذلك يتصوف الصيني ليقهر الزمن في عالم الروح، في الوقت الذي ينطلق الأمريكي كالمجنون ليقهر الزمن في عالم المادة.

ولكن هل هو حي؟ هذا أو ذاك؟! وما مقياس الحياة؟!

نعم. ما مقياس الحياة؟!

هذا الفتى الغارق في لذائذ الحس، لا يدع لحظة تمر إلا أن يكون فيها متعة تشبع رغبة جامحة في كيانه. أو تستثير رغبة أخرى..

الخمر والنساء.. والملبس والطعام.. والفراش الوثير.. والمسكن الأنيق.. في كل شيء متاع، وفي كل شيء لذة. فما الذي يمكن أن يحتجز الإنسان عن ذلك المتاع؟

التفكير؟ وما قيمة التفكير؟ وفيم يفكر الإنسان، إلا في الطريقة التي يزيد بها نصيبه من متعة اللحظة الحاضرة؟ وما المستقبل الذي يمكن أن يفكر فيه؟ أليس هو لحظات كالتي يعيش فيها الآن، تسمى المستقبل لأنها لم تجيء بعد، ولكنها حين تجيء تصبح كاللحظة التي يعيش فيها اليوم، وكاللحظة التي مرت أمس.

كيف عاش هذه وتلك؟ عاشها. استمتع فيها بما كان في يده من متاع. فلماذا إذن يفكر؟ وفي أي شيء؟!

وهذا الفتى الذي حرم نفسه من كل لذائذ ذلك المفتون، لأن له في الحياة "هدفا" يريد تحقيقه ويجاهد في سبيله.

هدف أعلى من لذائذ الجسد ومتعة اللحظة الحاضرة.

هدف يحقق الخير لمجموعة من الناس.. ولو على حساب راحته وأعصابه ونصيبه من الحياة.

يقوم في الصباح.. لا موعد مع فتاة.. لا موعد مع كأس.. لا وقت لنزهة. لا جلسة للسمر بلا هدف.. لا فراغ من الوقت يسعى "لقتله" على نحو من الأنحاء.

وإنما هو الصراع..

صراع الشر في الأرض.. ممثلا في مجتمع فاسد أو فكرة منحرفة أو حق مهضوم.

صراع يملأ وقته وحياته. ولا يلفته إلى نفسه وإلى نصيبه من المتاع..

وهذا الفتى الثالث الذي لا يعرف لذائذ الجسد، ولكنه كذلك لا يصارع في خضم الحياة..

الفتى الغارق في أحلام من المثل العليا الرفيعة المشرقة.. أحلام تملأ نفسه فلا تترك فيها فراغا للجسد، ولا اتجاها لممارسة الحياة في الواقع..

فتى مرهف الحس رقيق الشعور.. لا يرتكس في الشر ولا يهبط إلى حيوانية الغريزة. ولكنه منعزل كذلك عن الناس. لا يكرههم ولا يتمنى لهم الشر. بل هو شديد العطف عليهم والحب لهم. ولكنه يكره جهد الواقع ويعيش في الأحلام.

أيهم حي؟

وما مقياس الحياة؟!

* * *

لو أخذنا مقاييسهم الشخصية فكل واحد من هؤلاء حي في نظر نفسه، وحياته هي الحياة، وأغلب الظن أنه ينظر إلى حيوات الآخرين نظرة السخرية والرثاء!

فالأمريكي إذ يجعل مقياس الحياة الحركة والنشاط الجسدي والإنتاج المادي، يرى أنه أشد أبناء الأرض حيوية، ويرى الصيني في عداد الأموات!

والصيني إذ يجعل مقياس الحياة انطلاق الروح من قيود الجسد، والتأمل في ملكوت السماء، يرى نفسه زاخرا بالحياة الحقة، ويرى الأمريكي آلة منطلقة بلا مشاعر.. ولا حياة!

والفتى الغارق في لذائذ الجسد يرى كل شيء عدا ذلك عبثا وإضاعة وقت. ويرى أنه هو وحده الذي يفهم الحياة حق فهمها، ويعيشها على أصولها.

بينما الفتى المكافح لا يرى فيه أكثر من حيوان هابط يأكل ويشرب ويستمتع ولكنه لا يعيش. وإنه هو الذي يعيش حقاً. يعيش الحياة في أعلى مستوياتها.

أما الفتى الحالم فقد يحترم المكافحين ويقدرهم. ولكنه —في غالب الظن– مغتبط بحياته كما هي. يراها —على خوائها من كل واقع ملموس– غنية بالمشاعر والأفكار، غنية بالسبحات العليا التي تمثل في نظره لباب الحياة!

...

وتظل الحيرة كما هي. وتظل الحياة بلا مقياس!

* * *

المقاييس الشخصية إذن لا تصلح لقياس الحياة.

فهل هناك مقياس موضوعي نقيس به هذه المتناقضات، ونضعها في مكانها الحق بعضها بالنسبة لبعض، وبالنسبة لحقيقة الحياة؟

وتمتد الحيرة بي أياما وأسابيع.. وسنين!

ثم أفكر في فكرة.. لعلها تفتح الطريق..

ما عيب كل واحد من النماذج السالفة؟

وهل هناك نفس "نموذجية" نقيس بها انحراف هذه النفوس؟

وتعود إليّ حيرتي القديمة...

وفجأة.. في وسط هذه الحيرة الشاملة، تبرز إلى خاطري صورة، وتبزغ أمامي شخصية فذة..

تبزغ شخصية محمد بن عبد الله.

محمد –صلوات الله وسلامه عليه– هو النفس النموذجية!

انظر إلى جوانبه المتعددة جميعاً.. إنه يجمع في كل منها نفسا كاملة!

إن فيه روحانية صافية تعدل وحدها روحانية المسيح. والمسيح روحانية شفافة خالصة.

وفيه طاقة عملية تنفيذية فريدة في التاريخ.. قبسة منها في نفس أبي بكر وعمر أنشأت العالم الإسلامي في رقعة واسعة من الأرض، في فترة خاطفة بالنسبة لكل حركات التاريخ.

وفيه حيوية جسدية فياضة تعدل وحدها رجلا كل همه متاع الأرض. ومع ذلك فهي لا تشغله –رغم استمتاعه بها– عن الكفاح لإعلاء كلمة الله في الأرض، وعن الروحانية الشفافة التي تقبس من نور الله، وتشمل العالم كله حبا صافيا رقيقا كالملائكة الأطهار.

يتحرك في واقع الأرض.. فتنتج حركته بناء أمة فريدة البناء.. غير مسبوقة في الزمن كله منذ بدء الخليقة.

ويسكن إلى ربه في لحظات المتعة الروحية المرفوفة الطليقة..

ولا ينسى نصيبه من الدنيا.

ذلك هو الإنسان الحق. النفس النموذجية الكاملة.

وهي النفس التي تتمثل فيها الفكرة الإسلامية الكاملة. فكرة التوازن بين القوى جميعا والاتجاهات جميعا والمتع جميعا..

وقد استطاعت هذه النفس أن تجتذب إليها بدافع الحب وحده، وبدافع الاحترام البالغ الذي لا يمنعه أن يكون تقديسا إلا خوف الله الواحد المعبود.. استطاعت أن تجتذب إليها ملايين وملايين من البشر على مدار التاريخ.

في النفس البشرية إذن رصيد تتجاوب به مع تلك النفس الكاملة.

وليس معنى ذلك أن يصبح الناس كلهم –أو أحدهم– محمد بن عبد الله.

وإنما معناه –كما يقول القرآن– أن في رسول الله للناس أسوة حسنة.

أسوة يحاولون الاقتداء به، كل على قدر طاقته –لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

ويقتدون به في فكرته الشاملة عن الحياة، التي هي حقيقة الفكرة الإسلامية.

فيأخذون بنصيب من متعة الروح، ومتعة الفكر، ومتعة الجسد.

يتحركون في عالم الواقع، ويسكنون إلى الله، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا.

ذلك هو المقياس الذي يقدمه الإسلام للحياة. وهو لا يفرضه على الناس فرضاً، فقد انجذبوا إليه مختارين حين رأوه يتمثل في شخص بشر، وأحبوه كما لم يحب أحد أحداً في التاريخ.

في صميم النفس الإنسانية استجابة لهذا المقياس، حين تنكشف بصيرتها. وتزيح عنها غشاوة "الواقع" المنحرف الذي تعيش فيه.

حدث ذلك مرة في الجزيرة العربية. حين فتح العرب عيونهم على النور الجديد، ووضعوا حياتهم على هذه المقياس فرأوا ما كان فيها من انحراف، فانطلقوا يصححون نفوسهم.. بل لقد أبصروا فإذا نفوسهم المنحرفة تصح وحدها بفعل كفعل السحر، لا يدرون من أين أتى، ولا كيف أخذ بمجامع قلوبهم.. إلا أنه من عند الله، وعلى يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وحث في كل مرة انفتحت فيها بصيرة شخص على هدى الإسلام.

ويمكن أن يحدث مرة ومرة...

يمكن أن يحدث لهذا الأمريكي فيرده إلى رفرفة الروح الصافية.

ولهذا الصيني فيدفعه إلى الحركة في واقع الأرض.

وللفتى الغارق في متعة الجسد فيقيم له أهدافاً أخرى توازن حياته.

والفتى المشغول عن لذائذ الأرض فيأخذ بنصيبه منها.

والفتى الحالم فيدفعه إلى الكفاح من أجل تحقيق أحلامه في واقع الحياة.

ويلتقي البشر على هذا المقياس الذي يكشف عن مدى انحراف الناس، ويلهمهم كيف يثوبون إلى التوازن الصحيح.

ولكن.... هل يستجيب البشر؟

أحسب أن الحيرة التي يقع فيها العالم اليوم.. حيرة المشاعر والأفكار والنفوس. حيرة الأعصاب القلقة والأوضاع المضطربة. حيرة الفزع من الدمار الرهيب.

أحسب أن هذه الحيرة كفيلة أن تجعلهم يثوبون إلى مقياس الحياة الصحيح.

الشرق والجنس

الشرق منهوم بالجنس لا يشبع.

الجنس يملأ أحلامه وألفاظه وأفكاره.

والجنس يشغل وقته حديثا وعملا. تمهيدا وتدبيرا. جدا ومزاحا. تصورا ووقائع.

وتصل المشغلة بالجنس وتغلغله في الأفكار والمشاعر، والتعبيرات والتصورات، ألا يكتفي الناس بالحديث عنه بألفاظه المباشرة وميدانه الأصيل، بل ينقلون ألفاظه بطريق الاستعارة إلى موضوعات أخرى لا دخل لها بالجنس، كالنصر والهزيمة والسيطرة والخضوع.. إلخ، كما تستغل كل لفظة وكل إشارة وكل استعارة قريبة أو بعيدة للتعبير عن أعمال جنسية بكنايات يمكن أن تحمل معنيين. ولا يتورع عن ذلك في مجالسهم الخاصة أناس يعرفون بالوقار والتزمت، أو يعرفون بنظافة المشاعر والسلوك!

والنساء والرجال في الشرق سواء في المشغلة بالجنس. وإن كان الحياء يمنعهن —أو يمنع كثيرا منهن– أن يستخدمن الألفاظ —نابية أو نظيفة– للتعبير عن هذه المشغلة المستديمة.

لم كان ذلك؟

إنها مسألة تستلفت النظر، وتستحق أن يبحث فيها عن الأسباب. فليس من الطبيعي — ولا من الخير– أن تنفق شعوب كاملة معظم طاقتها في أمور الجنس —ولو كانت مجرد قصص ونكت وأحاديث– فإن ذلك يشغلها عن أمور أخرى أجدى أن توجه إليها الطاقة ويصرف فيها المجهود.

والجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج إلى إشباع؛ وهي تؤدي مهمة حيوية بإشباعها، فتنتج النسل الذي يعمر وجه الأرض جيلا بعد جيل.

ولكن الاستغراق الذي يجاوز حدود المعقول هو الأمر المستنكر. مستنكر لأنه يضخم أحد جوانب الإنسان على حساب بقية الجوانب، ويستنفذ طاقة يمكن أن تنطلق في اتجاهات عدة، فيحبسها في اتجاه واحد محدود.

وحتى الشعوب الأخرى التي انهارت —كفرنسا– واستغرقتها متع الجنس الفاجرة، وتفننت في إشباعها فنونا هابطة مستقذرة، وخصصت لهذا العمل الكريه صحافة وموسيقى ومسارح ومواخير، وفتحت حدائقها بل شوارعها وبيوتها لإرواء نهم هابط مسعور..

حتى هذه الشعوب التي استغرق الجنس حياتها إلى هذا الحد، لم يكن الحديث عن الجنس يستغرقها كما يستغرق الشرق، بل كانت تكتفي بالهبوط الفكري والنفسي والروحي. ولا تحتاج إلى كثرة الحديث. بينما الشرق يصرف في الحديث عن الجنس وقتا غير معقول، حتى وهو لا يقصد الجريمة، ولا يهبط بفكره وروحه وسلوكه كما يهبط الغربيون!

* * *

يقولون إنه الكبت.. الكبت الجنسي هو المسئول عن هذا السلوك المنحرف المعيب.

فالشرق منذ مولده متدين. وله تقاليد دينية "تكبت" النشاط الجنسي فتحوله تصوُّرات جائعة وتعبيرات منهومة وتصرفات منحرفة وأفكارا شاردة وعقولا مشغولة.

ولست أستطيع التسليم بهذا الرأي. وخاصة في الشرق الإسلامي، الذي كان إلى عهد قريب يطبق تعاليم الإسلام في التبكير بالزواج، بل كان يبالغ في ذلك إلى حد تزويج الفتيات اليافعين والفتيات في سن الطفولة!

متى ينشأ الكبت في مثل هذا النظام؟

والكبت بمعناه الفني أو السيكلوجي هو استقذار الدوافع الجنسية، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن مشاعر الجنس يجوز أن تخطر في باله أو في بال أي شخص شريف.

والإسلام بالذات لا يستقذر الدوافع الجنسية. فهو يعترف بها اعترافاً واضحاً صريحاً على أنها الأمر الواقع الذي لا يستنكر في ذاته ولا يستقذر: (**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ..**)... "**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة**".. "**إن في بضع أحدكم** (أي لقائه بزوجته) **لأجرا**..".

إن الإسلام يحدد فقط مصارف الجنس. يحددها بالزواج. وهو حين يدعو إلى التبكير في الزواج يخفف الضغط على الأعصاب إلى أصغر مدى ممكن، ويريح النفس من كثير من عوامل الاضطراب.

وإنما وجد الكبت حقاً في العالم الإسلامي منذ عهد قريب. حين خرجت المرأة سافرة متبرجة، وأصبحت فعلا أو حكما في متناول الشباب الجائع، الذي تمنعه من الزواج المبكر ظروف اقتصادية واجتماعية وفكرية، تطيل فترة التعطل الجنسي وتدفع إلى الجريمة.

حين ذلك وجد الكبت.. وجد الصراع الداخلي بين تعاليم الدين ودفعة الجريمة، ولم يكن ذلك –كما يريد البعض أن يفهم– نتيجة اتباع تعاليم الدين، وإنما كان نتيجة انحراف المجتمع عن الدين، وبعده عن الحل الطبيعي الذي وضعه الإسلام للمشكلة الجنسية.

ولست هنا بصدد تفنيد العقبات التي تقف اليوم في سبيل هذا الحل الطبيعي وتظهره في صورة حل نظري لا يصلح للتطبيق. فقد ناقشت ذلك كله في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام". وإنما أريد فقط أن أقرر أن هذا الكبت لم يعرفه الشرق الإسلامي إلا منذ قريب. بينما المشغلة العنيفة بالجنس قديمة قديمة في هذا الشرق، إلى حد أنها تملأ كتاباً شعبياً كاملا كألف ليلة وليلة، وتظهر بشكل بارز في دواوين الشعر وكتب الأدب في ألف وخمسمائة عام مدونة، غير ما لا نعرف في العصور السابقة على التدوين!

* * *

الكبت. نعم..

ولكنه ليس الكبت الجنسي في معظم الأحيان.

فأنا أزعم أنه الكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أغلب الأحايين.

ولنعرف أولا أن مسارب النفس الإنسانية كثيرة التعاريج خفية الاتصالات، ولكنها على أي حال ليست "خزائن" مستقلة كل واحدة عن الأخرى، كما قد يصورها البحث العلمي خضوعاً لمنهج البحث لا تقريرا للحقيقة!

وليس من الضروري دائماً أن يكون الدافع إلى الجنس شهوة جنسية!

فقد يحدث كثيراً أن يكون الانهماك في الجنس تخلصاً من أزمة ملمة لا تجد حلها المباشر. ويستوي أن يكون التخلص بهذا الطريق عن قصد ووعي، أو يكون تدبيراً باطنيا في اللاشعور.

وأذكر هنا مثالا من علم الطبيعة هو أحد قوانين فيتاغورس.

فلنتصور إناء به سائل؛ وفي الإناء فتحات مختلفة الاتساع. وقد وضعنا فوق السائل ثقلا ما. فهذا الثقل سيحدث ضغطا على السائل، والسائل بدوره سيضغط على جميع جوانب الإناء بما في ذلك الفتحات المختلفة الاتساع. وهنا يقول فيتاغورس: إن الضغط الواقع على كل فتحة يتناسب تناسباً طرديا مع اتساعها. أي أنه كلما اتسعت الفتحة زاد الضغط الواقع عليها، مع أن الثقل هو هو بالنسبة لجميع الأجزاء!

ذلك من قوانين المادة.

وفي النفس الإنسانية ما يشبه هذه الأوضاع!

فهي مسارب مختلفة و"فتحات" متباينة الاتساع. فإذا وقع على النفس ضغط من أي جانب، فإنه لا يؤثر في الجانب الذي وقع عليه وحده، وإنما يؤثر في الفتحات أو المنصرفات جميعا، ويؤثر فيها بنسبة كل واحد من هذه المنصرفات.

والجنس من أوسع المصارف في الأحياء.

ومن هنا يكون الضغط عليه شديدا حين تقع أزمة لا تجد حلها المباشر، وتظل ضاغطة بثقلها على النفس والأعصاب.

ولكن الفرق بين "المادة" و"النفس" أن المادة تتصرف بطريقة واحدة في كل الحالات المتماثلة، بينما النفس تتصرف بوسائل شتى وطرائق متعددة. تختلف بين الوعي الكامل وانعدام الوعي، وبين القصد المباشر والتواء السبل المؤدية للتنفيذ.

وقد أقر لي بعض الضباب من المتزوجين أنهم يصابون "بنوبات" جنسية كلما أصيبوا بأزمات نفسية تستعصي على الحل السريع. وهؤلاء "يستبطنون" مشاعرهم فيلحظون كيف تتصرف نفوسهم تجاه الأشياء.

ولكن ألوفا وملايين غيرهم لا يستبطنون مشاعرهم، ولا يلحظون كيف تعمل في باطن النفس، وكيف تتخذ عشرات من الصور والتصرفات.

وأولئك لا يدركون كيف تتصرف الأزمات النفسية والعصبية من منصرف الجنس الواسع، في صورة إدمان جنسي حيناً، تستخدم له المكيفات المتنوعة، وفي صورة مباهاة بالقوة الجنسية حينا، وفي صورة نكت وأقاصيص تدور حول الجنس من قريب أو بعيد.

من هذا الباب نستطيع أن نفسر كثيراً من شئون الجنس في الشرق.

فالكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي وجد في الشرق في تاريخه الطويل قد وجد له منصرفا ضخما في هذا الباب.

صحيح أن الروح الإسلامية كانت تحول في كثير من الأحايين دون الفقر المدقع الذي يقهر النفوس ويستذلها، فقد كانت روح التكافل تخفف من قسوته على كثير من الناس. ولكن هذا لا ينفي انخفاض مستوى المعيشة بصفة عامة، وخاصة في عصور الظلم السياسي الذي كان ينهب أقوات الناس ويتركهم معرضين للقلق على أرزاقهم على أقل تقدير.

ومع الفقر يوجد الكبت الاجتماعي، الذي يحول دون الناس وأخذهم مواضعهم المستقرة في المجتمع، والمكانة الراسخة التي يهفو إليها بطبعه كل بشر سوي.

وصحيح مرة أخرى أن الروح الإسلامية كانت تحول دون شيء من هذا الكبت الاجتماعي، بروح الأخوة في الله، وبإقامة موازين أخرى للناس غير القيم المادية البحتة. ولكنا يجب أن نذكر أن المسلمين حكاما ومحكومين قد هبطوا عن مستوى الإسلام فترات طويلة في الماضي لأسباب ليس هنا مجال تفصيلها ولكنها حقيقة.

أما الكبت السياسي فهو أوضح. فإن فساد الحكومة الإسلامية في الماضي قد حولها إلى دكتاتورية مطلقة، تحكم بنظرية الحق الإلهي، وتضفي على نفسها ألواناً من القداسة لا ينبغي أن توجه لغير الله.

وفي هذا الجو لا يمكن للشعب أن يشترك في حكم نفسه أو يكون له رأي في إقامة حكامه أو خلعهم، أو رقابة على تصرف من تصرفاتهم. فينشأ الكبت السياسي أو "ألعجز" من جانب الشعب عن التصرف في شئون نفسه.

هذه الألوان المختلفة من العجز.. العجز المالي والعجز الاجتماعي والعجز السياسي هي المسئول الأول عن الانهماك الشديد في أمور الجنس، وخاصة عن أحلام القدرة الجنسية التي لا حد لها، والمباهاة بهذه القدرة بالحق أو بالباطل، فالقدرة من أي سبيل هي التعويض المناسب عن العجز في كل سبيل!

وفي ألف ليلة وليلة مثال واضح لهذا التعويض.

فالفترة التي كتب فيها –فترة الحكم التركي على الأرجح– من أقصى الفترات التي مرت بالشعب، وعانى فيها العجز المطلق في ميادينه الثلاثة السابقة الذكر.

وكان التعويض الذي قام به الشعب في هذا الكتاب هو أحلام الغنى المفاجئ من أيسر سبيل. وأحلام القدرة المطلقة باستخدام قوى غير منظورة –قوى الجن والعفاريت (لأن القوى المنظورة عاجزة أمام السلطان!)– ثم أحلام القدرة الجنسية التي لا حد لها ولا شبع ولا ارتواء!

ولكن نظرة سريعة إلى الحيز الذي يشغله كل حلم من هذه الأحلام يبين أن الحلم الجنسي هو الغالب، وأن الحلمين السابقين –في كثير من الأحيان– أدوات لتحقيق الحلم الجنسي الذي يتحقق عن طريقه "الوجود" الكامل للإنسان! وهذا يتناسب مع وضع الجنس من النفس البشرية، وشدة الضغط الواقع عليه بسبب اتساع مساحته في الشعور واللاشعور.

فهو الكبت إذن حقاً.. ولكنه ليس الكبت الجنسي في معظم الأحايين.

* * *

والفراغ...

فقد ظل الشرق فارغاً أجيالا طويلة بعد أجيال.

الزراعة لا تستغرق الوقت كله ولا الجهد كله.

والتجارة جلسة هادئة بليدة ما بين زبون زبون.

والصناعة اليدوية البسيطة لا تمنع من "الدردشة" الفارغة، وتبادل النكت والأقاصيص!

ذلك فراغ الزمن. وفراغ الجهد.

أما فراغ الأهداف فهو أشد. فمنذ فرغ الشرق الإسلامي من فتوحه العظيمة، منذ وقف أكبر مد شهده التاريخ، وانحسر إلى داخل نفسه، فرغ الناس من الأهداف، وانهمكوا في إشباع أهدافهم القريبة، والجنس والطعام أبرز الأهداف وأقدرها على استهلاك الطاقة التي تبحث عن استهلاك!

* * *

والجو الحار الذي يسود الشرق.

الجو الذي يُنضج الأجسام والمشاعر في سن مبكرة شديدة التبكير، ويساعد على النهم الدائم حين تجتمع الظروف كلها على استثارة النهم المسعور.

* * *

تلك أهم الأسباب التي تبعث على الإدمان الجنسي والمشغلة الدائمة به في الشرق المنهوم.

وهي أسباب عميقة الجذور في التربة الشرقية، لطول ما نبتت فيها ولم تطهرها يد الزارع الحصيف.

ولا مطهر لها إلا العقيدة.

وتلك شهادة التاريخ.

فإن هذا الشرق لم يبرأ من هذا النهم المسعور إلا في الفترات التي تملكته فيها العقيدة، فاستنفدت طاقته المذخورة في آفاق أعلى من محيط الجسد، وأثمن من دفعة الغريزة.

حين تحولت هذه الطاقة فتوحات لا مثيل لها في التاريخ، وحركة علمية وفكرية وروحية ومادية أضاءت المشعل للإنسانية الحائرة الغارقة في الظلمات.

حين ذلك كان الجنس في موضعه المعقول لا يتجاوزه. لا كبت ولا إهمال. ولا مبالغة كذلك ولا سعار.

ونحن اليوم في حاجة إلى العقيدة.

في حاجة إليها تنظف النفوس وترفع من أهدافها.

وفي حاجة إليها تملأ الفراغ المدمر القاتل: فراغ الزمن وفراغ الجهد وفراغ الأهداف. فراغ الجسم والنفس والروح على السواء.

وفي حاجة إليها تزيل الكبت الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ينحرف بالنفوس فتغرق في التيار الجنسي المنهوم.

ونحن اليوم أقدر على تحقيق العدلة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عن طريق العقيدة، من آبائنا قبل مئات السنين. لأن تجارب البشرية في هذه الميادين كلها قد قربت المسافة بينها وبين القمم العالية التي وضعها الإسلام. فلم نعد نحتاج إلى الطفرة العالية. وإنما هي نقلة معقولة في حدود المستطاع.

فإذا استمسكنا بالعقيدة، ونفذناها في واقع الحياة، فذلك هو الطريق الوحيد للقضاء على انحراف طال به الأمد في نفوس الشرقيين.

وإذا كان الغرب في حاجة دائمة إلى العقيدة ليوازن ماديته الجاحدة، ويلطف من قسوة الصراع الأرضي هناك..

فالشرق في حاجة دائمة إليها لتحول بينه وبين الهبوط في حمأة الجنس المسعور!

الإنسان والآلة

هواة التفسير المادي للتاريخ يقولون إنه ليس ثمة كيان ثابت اسمه "الإنسان".

وإنما الإنسان هو مجموعة استجاباته للوسط المادي الذي يعيش فيه. ومن ثم فالإنسان في البيئة الزراعية غيره في البيئة الصناعية. غيره في المشاعر والأفكار والسلوك والاتجاهات. ولا حيلة للإنسان في أن يتأثر بالوسط المادي، ولا حيلة له كذلك في الطابع الذي يتخذه نتيجة هذه الاستجابة. فالتعاون الفردي والفروسية والعقيدة وبساطة المشاعر صفات تميز البيئة الزراعية وهي من لوازمها. والاستقلال والبعد عن العقيدة والغيبيات جميعا، والإخلاد إلى الواقع المحسوس وحده، وتعقد الأفكار والمشاعر، صفات تميز البيئة الصناعية وهي من لوازمها. فلا تصلح العقيدة مثلا ولا التعاون الفردي (أي الذي يتم مباشرة بين فرد وفرد) للإنسان "الصناعي". ولا يصلح الاستقلال –الفكري أو العملي– للإنسان الزراعي!!

وبعض هذا الذي يقولونه صحيح.

أو هو صحيح كله إذا ترك الإنسان وشأنه بغير توجيه.

وقد كان صحيحا –إلى حد كبير– في أوروبا التي يبني عليها أولئك "العلماء" نظرياتهم وفروضهم، ويخيل لهم الغرور البشري أن أوروبا هي العالم، وأن ما ينطبق على أوروبا هو القانون الذي يحكم البشرية!

ولكنه صحيح –كله أو بعضه– على أساس آخر غير الذي يبنون عليه نظرياتهم المنحرفة.

فليس الإنسان الزراعي كائنا آخر غير الإنسان الصناعي، حتى نقول إنه ليس هناك كيان ثابت للإنسان، وإن الإنسان هو مجرد استجاباته للبيئة الخارجية المتطورة.

وإنما الحقيقة التي ينبغي أن يهتدي إليها العلم الصحيح –حين ينجو من انحرافاته الأوروبية– أن كيان الإنسان كيان واسع شامل لا تحده الخطوط الضئيلة التي يهتدي إليها العلم التجريبي، أو تدركها الملاحظة المحدودة. وأن البيئة الخارجية تتفاعل مع بعض عناصر هذا الكيان فتبرزها أكثر من غيرها، أو تخفي بعضها لأنه غير لازم في فترة معينة. كما يشتد ساعد الملاكم ويصبح ذا قوة هائلة لأنه يدربه ويستخدمه بصورة بارزة؛ وكما يضمر أي عضو لا يستخدم لفترة طويلة، حتى لقد يفقد وظيفته. ولكن هذا لا يعني أن الملاكمة هي التي

"تخلق" الساعدة ولم يكن موجوداً من قبل، ولا يعني أن إهمال عضو من الأعضاء يزيله من مكانه –ولو طالت فترة الإهمال– بحيث يستحيل إعادته إلى العمل بشيء قليل أو كثير من التدريب.

والكيان الإنساني كذلك؛ لا تنشئه البيئة الزراعية أو الصناعية –أو الذرية إذا نظرنا إلى المستقبل! وإنما هذه البيئات قد تضخم بعض عناصره أو تدعها تضمر بحسب الظروف. ولكن في هذا الكيان من القوى المذخورة، الظاهرة والخفية، المدركة وغير المدرَكة، ما يبرز للوجود جيلا بعد جيل، فيحسبه بعض الناس جديداً لم يكن له وجود من قبل!

وليس الإنسان كذلك كيانا سلبيا خالصا كما يريدون أن يصوروه. وليست البيئة المادية هي القوة الإيجابية الوحيدة التي تسيطر وتفرض سلطانها على المشاعر والأفكار. بل هما قوتان: الإنسان من ناحية، والقوى المادية الخارجية من ناحية أخرى. وهما قوتان متفاعلتان أبدا. ولكن سيطرة إحداهما على الأخرى أمر متروك للإنسان، لأنه هو –من بين القوتين– صاحب الإرادة والقادر على التصرف. والمادة هي التي من شأنها أن تخضع لما يقع عليها من تأثير.

فحين يختار الإنسان أن يكون هو القوة الموجهة المنشئة المريدة، فهو الذي يكيف حياته، وهو الذي ينشئ الأوضاع المادية أو يكيفها كما يريد، أو على الأقل يكيف نفسه منها على الوضع الذي يريد.

وحين يتنازل الإنسان عن إرادته. حين يتخلى عن طاقته الإيجابية الموجِّهة. حين يختار أن يترك نفسه على سجيتها تؤثر فيها القوى الخارجية ولا يؤثر هو فيها.. حينذاك يكون هو الذي ترك الوسط المادي يفرض عليه سلطانه، وهو الذي اختار موقفه السلبي الخانع، وليست القوى المادية بطبيعتها هي ذات السلطان.

وفي قصة الآلة مثال لما نقول.

* * *

حين اخترع الإنسان الأول أول "آلة".. قطعة من الحجر مشطوفة على هيئة سكين[1]، كان ذلك نصراً عظيما لذلك الإنسان، وتحقيقاً إيجابياً للطاقة الكامنة في كيانه، طاقة الاختراع، ومحاولة السيطرة على الوسط المادي الذي يعيش فيه.

ولا شك أن نشوة لا حد لها قد تملكت ذلك المخلوق البدائي، وأحس لبضع لحظات على الأقل أنه أكبر من نفسه، وأنه يدق بيده باب مستقبل زاهر عظيم.

وكان ذلك حقاً. فقد كان في طريقه إلى تطورات أخرى أعظم خطراً من قطعة الحجر المشطوف.

ومضى الإنسان يخط بجسمه وعقله وروحه سطور عظمة البشرية. سطور الرفعة المطردة لذلك المخلوق الذي كرمه خالقه حين منحه تلك القدرة المعجزة على التطور والارتفاع.

ونعتذر "للمثقفين" من ذكر الروح! وهم الذين يقولون إن البحث عن الطعام هو رائد التقدم البشري. كأنما الحيوان لا يبحث عن الطعام!!

نعتذر إليهم عن إزعاجهم –في عصر الصناعة وعصر الذرة– بذكر شيء من مخلفات البيئة الزراعية البائدة التي لا ينبغي أن تعود!

ونعود لقصة الآلة، فهي قصة "مفهومة" لا غيب فيها ولا إبهام ولا غموض!

لقد ظل الإنسان ينتقل من اختراع إلى اختراع، وهو يتنقل في مدارج الرقى، فاخترع المحراث، والمغزل والمنسج، وآلات الصيد والقتال، وآلافا غيرها من الآلات النافعة التي يقوى بها كيانه، ويحقق في عالم الواقع طاقاته النظرية الكامنة، وأحلامه المتطلعة إلى القوة والسيادة على محتويات الكون العريض.

وكانت الآلة في ذلك الطور الطويل الذي استغرق ألوف السنين مصدر قوة للإنسان، قوة فردية وجماعية. قوة مادية وسيكلوجية..

والقوة السيكلوجية جديرة بالتسجيل، وجديرة بتحديد وضعها الحقيقي.

[1] – ربما لم تكن هذه أول آلة من الوجهة التاريخية ولكنا نتخذها فقط للتمثيل. ويستوي أن تكون هي أو غيرها أول آلة.

فاليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدافع أقوى —في القياس المادي— من اليد الخاوية.

وصاحب اليد التي تحمل العصا أو الفأس أو المدفع أقوى —سيكلوجيا— من صاحب اليد الخاوية.

هذه القوة المادية تمنحه قوة نفسية تظهر في سلوكه وأفكاره ومشاعره. هكذا يبدو في ظاهر الأمر، بحيث يخيل لهواة التفسير المادي للحياة أن القوى المادية هي التي "تنشئ" المشاعر والأفكار.

وليس الأمر كذلك في الحقيقة.

فرصيد القوة موجود في داخل النفس، في صورة رغبة كامنة تنتظر التحقيق.

والعصا أو الفأس أو المدفع أدوات يخترعها الإنسان ليحقق بها رصيد القوة في نفسه.

والنفس التي حققت رصيدها في عالم الواقع أقوى من النفس التي تحتفظ بهذا الرصيد رغبة كامنة لا تتحقق أو لا تسعى إلى التحقيق.

والمحك الصادق لهذه الحقيقة أن الجندي الجبان لا يستمد القوة من أدوات الحرب، لأن رصيدها النفسي مفقود. وقد كان الجنود الطليان في الحرب العالمية الثانية يملكون أحدث الأسلحة وأفتكها، ولكنهم كانوا يفرون من الحرب، ويمنحون هذه الأسلحة هدية خالصة، لمن يمنحهم نعمة الوقوع في الأسر والهوان!

فالنفس تتقوى بالوسائل المادية، لأنها تحقق عن طريقها رصيدها المذخور. وهذا الرصيد سابق في وجوده للوسائل المادية، وهو الأصل الحقيقي الذي يحسب له الحساب.

وقد كانت الآلة —في فترة طويلة من تاريخ البشرية— مصدر قوة سيكلوجية للإنسان.

كان هناك عامل مهم في الموضوع. كان الإنسان هو الذي يدير الآلة! كان يشعر أنه هو القوة الموجهة، وأن الآلة خاضعة لإشرافه وتوجيهه. ومن ثم فهو المسيطر، وهو صاحب السلطان!

ولكن الآلة تطورت بعد ذلك.

لم تعد آلة يدوية، يديرها الإنسان بيده، ويشعر بالسلطان عليها، إن شاء وقفها، وإن شاء أطلق لها العنان.

لقد تضخمت حجما حتى صار الإنسان بجوارها جرماً صغيراً لا يكاد يبين.

وصارت لها قوة ذاتية تتحرك بها من الداخل. ولا يملك وقفها بطريقة مباشرة حين يريد.

وتغير موقفه منها تغيراً كاملا داخل المصنع.

فبعد أن كان العامل أو الصانع يصنع العمل كله بيده، أو بالإشراف على آلته وتوجيهها، صار العامل قطعة صغيرة من مجموع العمل. وصارت الآلة المعقدة تقوم بأجزاء كثيرة متعاقبة، ولم يبق للعامل إلا أن يقوم بدق مسمار أو ربطه، أو تقديم مادة خامة للآلة الضخمة التي تبتلعها في طرفة عين وتطلب المزيد.

صار الإنسان قوة سلبية، والآلة هي القوة الإيجابية التي تملى على العامل مكان عمله، وزمنه، وطبيعته، وحدوده!

وهنا حدث انقلاب كبير في سيكلوجية الإنسان.

فقد أخذ رويداً رويداً يفقد سيطرته على نفسه، ويفقد في الوقت ذاته إنسانيته.

لقد توغل شبح الآلة الضخمة في أعماق حسه، وصارت هي القوة القاهرة التي تملى عليه إرادتها، وتصرف حياته كما تريد.

أحس الإنسان بالضآلة فانكمش داخل نفسه. انكمشت مشاعرة الحية ورفرفاته المضيئة. انكمشت عواطفه المتدفقة وأشواقه المتطلعة إلى الأفق الطليق.

ورويداً رويداً تصلبت أنسجة نفسه وجفت فصارت كالآلة البليدة الصماء التي تسيطر على كيانه.

وصارت حياته كلها روتينا كروتين الآلة! يبدأ في الصباح وينتهي في المساء.

زر واحد أو مجموعة أزرار تفتح في لحظة معينة مضبوطة كانضباط الآلة، فتشتغل الآلة النفسية مندفعة بما فيها من وقود مشحون. وتظل تعمل وتعمل وتعمل.. حتى يدق لها

الجرس. وهنا يسكت العمل فجأة كما ابتدأ فجأة. يسكت كما تسكت الآلة حين يقطع عنها التيار.

ثم تشتغل قطع أخرى من الآلة النفسية حين يجيء عليها الدور.

أو تقف خامدة بليدة بلا حراك.

ولكن الدفعة الحيوية البشرية المكبوتة منذ الصباح لا بد أن تنطلق في صورة من الصور، فهي لم تستهلك كلها في النشاط الآلي الجامد البليد.

وإنها لتنطلق بالفعل.. انطلاق البهيمة حين تفك عنها القيود.

فورة جسد هائم مجنون.. يهفو إلى جسد هائم مجنون.

وتندفع الشحنة الحبيسة في منصرفها الحيواني، فتهدأ الأعصاب الثائرة لحظة، ريثما تشحن في الغد بالطاقة المكبوتة التي تبحث عن التفريغ..

وتصبح كذلك حياة الإنسان: آلية جافة جامدة لا مكان فيها للعواطف الحية أو الأشواق الرفافة، أو اللمسات الدقيقة العميقة. لا مكان فيها للتطلع إلى فكرة عليا أو إحساس كبير.. وحيوانية هابطة تستغرق ما بقي من النشاط المذخور، وتحول ما بقي من الحياة إلى ماخور كبير.

وبهذا وذاك يتوارى "الإنسان ويحل محله الحيوان الآلي الذي يملأ وجه الأرض في العصر الحديث.

وأبرز الأمثلة على ذلك أمريكا.

هنالك وصلت الآلية إلى أقصى درجاتها. كل شيء يدار بالآلات. والإنسان أول شيء هناك يدار بالآلات!

دقة متناهية في العمل. دقة مضبوطة كانضباط الآلة. وإنتاج ضخم لا مثيل له في أي مكان.. ولكنه إنتاج الآلة. الآلة الميكانيكية أو الآلة البشرية سواء.

ولكن ليس هناك بشر..

البشر الذين تعرفهم بملامحهم النفسية، بخلجات نفوسهم وخفقات قلوبهم ورفرفة أرواحهم.

البشر الذين تعبر وجوههم عن فكرة أو إحساس أو تطلع.

البشر.. كما عرفتهم البشرية منذ ألوف السنين!

ليس لهؤلاء وجود.

آلات دقيقة في النهار.. وحيوانات هائجة في الليل.

حيوانات فارهة.. تريد أن تستعمر العالم!

وذلك أقصى ما بلغته الحضارة المادية في العصر الحديث، ونموذج للعالم "المتأخر" كله يتحذيه.

حقا. إن هذا هو عصر الآلة!

* * *

لقد سيطرت الآلة على الحياة الإنسانية كلها في العصر الحديث، وطبعتها بطابعها المنظم الجامد المرتب البليد.

ولقد يخطر لهواة التفسير المادي للتاريخ أن يرفلعوا رءوسهم منتصرين ويقولوا في ظفر أبله:

ألم نقل لكم؟ إنه ليس ثمة كيان ثابت اسمه الإنسان. وإنه يتأثر بالوسط المادي الذي يعيش فيه فيطبعه بطابعه المحتوم؟!

ونقول لهم أولا: إن هذا النصر يحمل في أطوائه الهزيمة، لأن معناه أن "التقدم" الصناعي الذي يتعبدونه نكسة بشعة في حياة البشرية، تهبط بها إلى مستوى الحيوانات والآلات. وهي —لو كانوا صادقين في دعواهم– نكسة محتومة تصيب كل البشر، وليس لهم من مفعولها فكاك.

ثم نقول لهم ثانياً: إن هذه النكسة لم تكن حتما على البشرية. وإنما هي أصابت الإنسان باختياره حين تخلى عن عقيدته وتخلى عن إلهه.

هذه الضآلة التي أحس بها الإنسان إزاء الآلة. فسيطرت عليه بالتدريج، وحولت حياته إلى نسق آلي بليد.. سببها الأصيل أن الإنسان قطع صلته بكل قوة خارج نطاق الأرض، خارج العالم المحسوس.

ومن هنا أصبحت الآلة قوة ضخمة بالنسبة إليه. وصار هو قزما ضئيلا يتعبدها، ويخضع بوعيه أو بغير وعيه لإرادتها.

ولو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى.. القوة التي تسيطر على كل قوى الأرض، وتوجه كل قوى الأرض..

لو لم يقطع صلته بالقوة الكبرى التي يستم هو منها قوته وكيانه، وحسه ووجدانه..

لو لم يفعل ذلك ما استعبدته الآلة، وما أحسن بجوارها أنه صغير.

كان اتصاله بالقوة الكبرى الخالقة الموجهة، سيمنحه القوة التي يحارب بها سلطان الآلة، أو يخضعها لسلطان نفسه، فيتحكم فيها وفق ما يريد.

كان سيصبح هو –كما كان من قبل- سيد الآلة: السيد المسيطر الموجه المريد. فلا تفقد نفسه مرونتها بمصاحبة الآلة الجافية، لأن قوة حية كانت ستظل في نفسه ذات رصيد. ولا تفقد روحه صفاءها المشرق من طنين الآلات الأجوف، لأن قوة عليا كانت ستمدها بمدد مذخور.

والنفس لا تتحقق قوتها بالوسائل المادية فحسب. فللقوة رصيد نفسي متحرك، ورصيد روحي منطلق لا يعرف الحدود.

والنفس السوية تحقق رصيدها من القوة بكل هؤلاء.

بالوسائل المادية للنفع القريب الذي ينظم حياة كل يوم.

والمشاعر النفسية التي تنظم علاقة الإنسان بنفسه، وعلاقته بغيره من الأفراد.

وانطلاقة الروح التي تفسح الحواجز كلها، وتغمر النفوس بالنور، وتصلها بخالقها في ومضة من ومضات الشفافية، فتتصل بالمدد الأزلي الخالد، فتقبس منه قبسا من الخلود.

حينذلك يسيطر الإنسان على كل قوى الأرض، ويحس –وفيه النفخة الإلهية المعجزة– أن كل ما في الأرض مسخر له، فلا يدع الآلة تكيف له حياته وتهبط به إلى الحيوانية الآلية الهابطة.

ولا شفاء للناس في العصر الآلي –أو العصر الذري المقبل– إلا في رحاب العقيدة. العقيدة التي ترفعهم من وهدتهم، وترد لهم كيانهم، وثقتهم بأنفسهم، فيكيفون مشاعرهم كما ينبغي للإنسان "المتطور" نحو الصعود، وكما ينبغي للمخلوق الذي كرمه خالقه ونفخ فيه من روحه.

والعقيدة الإسلامية التي تشمل الجسد والعقل والروح، وتربطها برباط واحد متصل بالله، هي وحدها التي تحقق للنفس رصيدها الكامل من القوة، وهي وحدها التي تستطيع أن تنقذ العالم من هبوطه المدمر الرهيب.

القرية والمدينة

وكذلك الشأن في قصة القرية والمدينة..

فهواة التفسير المادي للتاريخ يعتقدون أن للقرية أخلاقاً وطابعاً معيناً للحياة، وللمدينة أخلاقاً أخرى وطابعاً آخر.. وبينهما برزخ فلا يلتقيان.

وذلك قول فيه كثير من الحق.. وكثير من المغالطة الناشئة من استنباط الأحكام من بيئة معينة وجيل معين، ومحاولة تعميمها على كل البشرية.

أهل القرية أقرب أن يعرفوا الله ويستشعروا وجوده..

فصناعتهم الرئيسية هي الزراعة.

والفلاح يضع البذرة في الأرض، ثم ينتظر بشأنها كلمة السماء!

وهو لا يستطيع –مهما كانت رغبته الخاصة– أن يتصرف في نمو النبتة –إلا في حدود ضئيلة– فعليه أن يصبر عليها حتى تنبتها القوة الخفية التي لا يعلم من سرها شيئا إلا ما يراه من مظاهرها. والعلم ذاته لا يعرف من أمر هذه القوة الخفية أكثر من ذلك. ثم عليه أن يترقب تطوراتها المتوالية من إيراق وإزهار وإثمار ونضوج، وهو لا يملك أن يغير ترتيبها، أو يستعجلها أو يبطئها أو يتصرف بشأنها إلا في حدود قليلة.

إنه يعيش في ظل هذه القوة الخفية معظم حياته. وهو يتعامل معها مباشرة في عمله الرئيسي منذ أن يضع البذرة في الأرض حتى يسترد الثمار في نهاية المطاف. والثمار ذاتها مرهونة بمشيئة هذه القوة الخفية نوعا وكما.. إن شاءت هذه القوة أنجتها من الأعاصير والآفات وتقلبات الطقس، وإن شاءت سلطت عليها هذه القوى جميعاً. ومهما يصنع الفلاح من احتياط، ومهما تساعده "الدولة" أو يساعده "العلم" فهو يحس في أعماق ضميره بأن تلك القوة الخفية التي يجهلها ولكنه يرى مظاهرها وآثارها..هي التي تكيف حياته تكييفا مباشراً وتتحكم في مصيره.

ومن هنا يتدين..

وسواء اهتدى إلى الدين الحق، أم تاهت به الظنون في جاهلية مضلة..

وسواء أدى طقوس العبادة التي يؤمن بها بانتظام وإخلاص، أم تكاسل عنها أحيانا، وانصرف عنها أحيانا أخرى.. فهو في معظم حالاته متدين، يستشعر في ضميره وجود القوة الكبرى الخالقة، ويرى بحسه آثارها، ومدى تعلق حياته بإرادتها الخفية وآثارها الظاهرة.

وأهل المدينة —الصناعية خاصة– أقرب ألا يعرفوا الله أو يستشعروا وجوده.

العامل يتعامل مع الآلة، ولا يتعامل مع الأرض.

هو يديرها بنفسه، أو تدار أمامه. وهو ينتج بيديه المادة المصنوعة أو يشارك في إنتاجها.

العملية كلها مكشوفة أمامه. ودوره في الإنتاج بارز ملموس.

وحتى حين تعقدت الآلة فلم يعد العامل يدرك كل "أسرارها".. وحتى حين تضاءل دوره من الإنتاج الكامل إلى القيام بجزء ضئيل تافه من مجموع عملية الإنتاج.. حتى عندئذ ظل العامل يحس أن عملية الإنتاج عميلة بشرية خالصة، لا تخضع —في الظاهر– لإرادة القوة الخفية التي تنبت الحب من الأرض، وإنما تخضع لإرادة بشر أو مجموعة من البشر، أو تخضع للكيان المادي الخالص الذي يكيف الإنتاج.

ومن هنا لا يتدين..

لأنه يتخيل أنه يصنع حياته بنفسه، ويكيفها كما يشاء.

فإذا تعقدت عملية الصناعة، وسلب حرية الإنتاج وحرية تكييف حياته، لم يتدين رغم ذلك، وإنما راح يتعبد السلطة التي حلت إرادتها مكان إرادته؛ لأنه يتعامل في معظم حياته مع قوة ظاهره وسلطات ظاهرة، لا مع القوة الغيبية التي لا تدخل المصنع —في ظاهر الأمر– ولا تدير آلاته!

ذلك مزهر يتعلق بباطن النفس.

وثمة مظهر آخر يتعلق بنظام المجتمع.

فأهل القرية بطبيعة عملهم، وقلة عددهم، وانحصار حياتهم في محيط ضيق محدود.. قوم متعارفون متعاونون. تشملهم روح المودة والقربى أو —على الأقل– تغلب على حياتهم هذه الروح.

وأهل المدينة -الصناعية خاصة- لا تربطهم مثل هذه الروح، فهم في أعمالهم أفراد لا تربطهم إلا رابطة العمل -رابطة قضاء ساعات يومية في عمل صامت ممل رتيب وسط طنين الآلات الأجوف، أو وراء المكاتب الصامتة البليدة. وهم بحكم كثرة عددهم لا يستطيعون -حتى لو أرادوا- أن يكونوا متعارفين على طريق أهل الريف، ولذلك يعيشون في "شقق" منفصلة لا تعرف كل شقة عن جارتها شيئا، ولا يهمها شأنها في شيء.

وإذا كان التعاون ضرورة بشرية لا يمكن الاستغناء عنها، فهو في المدينة -الصناعية خاصة- يأخذ صورة "عملية" منظمة تقوم بها الدولة (على أسس علمية!) ولكنها لا تقوم على أسس شعورية مباشرة، ناشئة عن العلاقة القلبية الحية التي تربط قلبا بقلب، وإنسانا بإنسان.

* * *

تلك حقائق مشاهدة في واقع البشر.

ونحن -كما صنعنا في قصة الإنسان والآلة- نؤمن بأن ذلك واقع. ولكنا لا نؤمن به على أنه الأمر الوحيد المحتوم الذي لا حيلة للناس في وقوعه، ولا سبيل لهم إلى تغييره.

فالإنسان -كما قلنا هناك- ليس قوة سلبية تنطبع بالوسط المادي دون إرادة أو اختيار.

وإنما هو يصبح كذلك حين يختار أن يتنازل عن إرادته، وموقفه الموجِّه من الحياة والأشياء، ويترك نفسه معرضة للمؤثرات دون وقاية ولا عزيمة ترد بعض هذه المؤثرات.

أما حين يختار أن يكون إنسانا، فلن تقف أمامه "المادة" بوصفها قوة جبرية تحتم عليه سلوكا معينا، وتفرض عليه نظرة معينة للحياة والأشياء.

والدليل على أن الوسط المادي ليس هو صاحب السلطان، والدليل كذلك على أن للبشر جميعا -زراعيين أو بدويين أو صناعيين- كيانا مشتركا هو "الإنسان"، وأن البيئة قد تبرز بعض جوانب هذا الكيان أو تهملها، ولكنها لا تنشئها من العدم، ولا تقتلها أو تزيلها من مكانها..

الدليل على هذا وذلك أن المدينة قد تتدين تدينا عميقا رغم طابعها الصناعي الملحد.

وأن القرية قد تلحد رغم ما تدفعها إليه البيئة من استشعار دائم لوجود الله!

ولدينا أمثلة لما نقول.

فاليابان أمة صناعية ناهضة، تهدد بإنتاجها غرب أوروبا وأمريكا. وهم مع ذلك أمة ذات عقائد عميقة الجذور في نفوسهم لم تستطع الصناعة، ولم تستطع قوات الاحتلال الأمريكية أن تنزعها من قلوبهم رغم أنها حرمتها بقانون!

والأمر في اليابان عجيب.. فلو أنها تؤمن بعقيدة سماوية مفهومة، يقبلها العقل كما يطمئن إليها الوجدان، لما كان هناك —من وجهة نظرنا– عجب في قيام العقيدة مع الحركة الصناعية. أما وهي تؤمن بخرافات وثنية لا تثبت للمنطق ولا تتمشى مع طبيعة العقل المثقف، فالأمر أعمق من أن يكون قضية منطقية أو قضية علمية! فهي قضية تلك النفس البشرية العميقة التي لا يستطيع العلم أن يصل لكل أغوارها مهما زعم أنه يستطيع.

والقرية المصرية التي تدينت منذ عشرة آلاف عام، وتقلبت على شتى العقائد من فرعونية ومسيحية وإسلامية.. قد بدأت في السنوات الأخيرة تلحد، وتعتنق فلسفة مادية في بعض الأحيان. وبدأت الروابط بين أهلها تتفكك، والأثرة الجافية تحل محل التعاون القلبي الودود.

وصحيح أنه إلحاد غير عميق الجذور. وأن ظروفا عارضة قد كفرتهم من دينهم.. إلا أن "حتمية" القوانين الاجتماعية التي يفترضها العلماء لم تكن لتسمح لهم بالإلحاد، مهما تكن ظروفهم، ما داموا لا يزالون يعملون في الزراعة —خاصة وهي زراعة بدائية لا تعتمد على الآلات– ولم يتحولوا بعد إلى عمال أو صناع! أي لم يتغير الوسط المادي الذي يعيشون فيه، ويكيف لهم —في زعم هؤلاء العلماء– أفكارهم ومشاعرهم وعقائدهم وسلوكهم.

ثم هذا الخبر العجيب الذي نشرته إحدى المجلات الأمريكية (Time عدد 15 مايو سنة 1945) عن تعديل القسم الذي يقسمه المواطن الأمريكي ويتعهد فيه بالإخلاص لراية الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أضيفت إليه كلمة "في ظل الله" لأول مرة منذ إنشاء هذا القسم. أي منذ مائتي عام.

لست أصدق أن هذا الجيل من الأمريكان يمكن أن يتدين.

ولكنها إشارة واضحة الدلالة، تشير إلى مستقبل الأجيال! وهي إشارة ذات دلالة خاصة حين تجيء من أمريكا التي لا قلب لها ولا روح، والتي تعيش في حيوانية آلية لم يهبط إلى مثلها البشر في تاريخهم الطويل[1]!

* * *

كلا! ليست هناك قوالب حتمية للنفس الإنسانية. وليس الوسط المادي هو صاحب السيطرة والسلطان.

وليس من الحتم أن يكون سكان المدينة ملحدين!

والمدينة الإسلامي خاصة لا يمكن أن تلحد. ولا يمكن أن تدع الوسط المادي يفسد عليها روحانيتها الصافية ومشاعرها القلبية الودود. فإن إيمانها بالله يرفعها من هذه الوهدة الهابطة، ويرسم لها طريق الصعود كما أن إيمانها بالله يربط قلوب سكانها برباط الود. حتى لو استحال عملياً أن يعرف كل فرد كل فرد، فإنه يكفي أن يتعرف أهل كل حي متقاربين، ثم يسود السلام والإخاء بين غير المتعارفين: **(وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)**... "**.. وألق السلام على من تعرف ومن لا تعرف**". تلك آداب الإسلام التي أوصى بها الله والرسول.

ولقد رأيت عمالاً وصناعاً مسلمين. أعني مسلمين حقاً!

رأيتهم يخرجون من عملهم المرهق الذي يتعاملون فيه مع الآلة الصاخبة الصماء، ومع عملية الإنتاج الصناعي المكشوفة للعين البشرية الخالصة في ظاهر الأمر..

رأيتهم يخرجون من عملهم فلا يصخبون كما يصخب زملاؤهم الذين خلت قلوبهم من العقيدة، والذين لا يجدون في نفوسهم الرصيد الروحي الذي يخففون به عن أعصابهم وأرواحهم وقع العمل المرهق الكابت لدفعة الانطلاق، فيعوضونه بالضجيج المفتعل المزعج، يثبتون به وجودهم، ويعلنون به حريتهم، كما يعلنها البعد الآبق من القيود!

[1] – كتبت هذا في الطبعة الأولى. وقد جاء في الأنباء الأخيرة أن العلماء السوفييت –بعد الرحلات الصاروخية الأخيرة– قد بدءوا يؤمنون بالله!

رأيتهم مطمئنة قلوبهم ونفوسهم إلى ذكر الله. فهم لم ينسوه في المصنع. لم ينسوا أن الآلة الضخمة الدائرة ليست إلهاً! وإنما هي أداة سخرها الله للإنسان، ليزداد بها قوة، ثم يحمد الله على آلائه ونعمائه بالصلاة والشكران.

ورأيتهم يشعرون بالأخوة الحقة في الله. فيتزاورون، وتتزاور أسرهم. ويتبادلون المعونات الفردية حين يحتاجون إليها. فإذا أغنتهم الدولة عنها –أو المصنع –فهم على صلاتهم رغم ذلك لا يقطعونها، ولا يتباعد بعضهم عن بعض بدافع التباغض أو العزلة والانطواء. أو بدافع عدم الإحساس بالرابطة التي تربط بني الإنسان.

رأيتهم فأدركت أن المدينة الإسلامية –الصناعية– لا يمكن أن تلحد، لأن العقيدة أقوى من المادة، وهي وحدها صاحبة السلطان!

وكان خاطر قد ألمّ بي ذات يوم فأزعجني على مستقبل البشرية!

إن المدنية الغربية المجنونة تحطم اليوم حياة القرية وتحولها إلى مدينة. مدينة ملحدة جافية على ما هو موجود لديهم هناك. ويصنعون ذلك باسم "تمدين" القرية أي رفع مستواها!

والقرية في أمريكا خاصة ليس لها وجود. فهي مزارع منعزلة، تسكن في كل مزرعة أسرة أو مجموعة قليلة من الأسر ولكنها تعيش على طريقة المدينة المنعزلة التي لا تجمع بنيها مودة القلب، ولا الأخوة في الله.

وكان ذلك متمشيا –هناك– مع إدخال الآلة في الزراعة، فقد تحولت حياة الريف من صفتها "البشرية" إلى صفتها "الآلية" فتطورت القرية بحسب منطق الآلة في تلك البقاع. وأزعجني هذا الخاطر..

إن بذرة الخير الإنساني كانت ما تزال باقية في تربة الريف، حيث يستشعر الناس آثار القوة الكبرى الخالقة ويؤمنون بوجودها. فهل كتب على هذه البشرية الضالة أن تلاحق هذه البذرة الطيبة بالمبيدات الصناعية حتى في أحضان الريف؟

هل كتب عليها أن تطارد الخير، وتقطع روابط المودة، وتبعثر الناس أفراداً متفرقين، لا يلتقون إلا على مصلحة قريبة أو شهوة جسد منهوم؟

وهل هذا هو مستقبل البشرية مع "التقدم" العلمي الذي لا يمكن وقفه عن طريقه، لأن وراءه شهوة البشر الخالدة في كشف المجهول وتحقيق الرصيد النفسي المتطلع إلى القوة من كل سبيل..؟

ثم تذكرت المدينة الصناعية اليابانية.. وتذكرت القسم الأمريكي الجديد..

فضلا عن المدينة الإسلامية المنشودة..

كلا! ليس هناك ما يدعو إلى الانزعاج على مستقبل البشرية.

إن كل الدلالة التي يمكن أن نستخرجها من هذا الواقع السيء الموجود اليوم، والذي ينذر بإفساد المستقبل.. هي حاجة البشرية الماسة إلى العقيدة.

وحين توجد العقيدة توجد "الإنسانية". ويوجد الخير الذي يتمثل في تلك الكلمة الخالدة. خالدة لأن فيها قبسا من الله الخالد الذي نفخ فيها من روحه وأراد لها الارتفاع!

حضارة الكيلوواط!

قال لي أحد الشيوعيين مرة وهو يجادلني: إن مقياس الحضارة الحديثة هو مقدار ما يستهلكه الفرد من التيار الكهربائي! فبقدر ما يستخدم من آلات حديثة تستهلك تياراً كهربائياً تقاس حضارته، وقد بلغت حضارة أمريكا كذا كيلوواط في المتوسط لكل فرد، ولم تبلغ بعد في روسيا هذا الرقم، ولكنها في طريقها إليه لأن استهلاك الفرد هناك يرتفع بسرعة سنة بعد سنة.

قلت له: ولكن هذا معناه –بمقياسك– أن الشيوعية ما تزال متأخرة عن الرأسمالية، فكيف يتفق هذا مع كونها –في رأيك– حركة تقدمية عن الرأسمالية؟

وفوجئ محدثي الشيوعي بهذا القول مفاجأة تامة، وبدا عليه الذعر! لأن المقياس الذي يتخذه لقياس الحضارة قد خذله على حين غرة منه؛ وراح يحاول التخلص من المأزق بأن يقول: إن الشيوعية لم تأخذ مداها بعد، وحين تصل إلى قمتها ستفوق الحضارة الأمريكية.

قلت له: لا تهرب! أنا أسألك عن الفكرة الشيوعية ذاتها: أأرقى هي من الرأسمالية الأمريكية حتى قبل أن تبلغ قمتها، أم هي متخلفة عنها؟

وسكت.. فلم يهتد إلى جواب!

ثم قرأت حديثا جرى بين إحدى الأمريكيات اللواتي يزرن مصر، وبين إحدى الصحفيات عن مقياس الحضارة رددت فيه الأمريكية نفس الكلام. قالت إننا نقيس الحضارة بالكيلوواط! فبقدر ما يستهلك الفرد من التيار الكهربائي تقاس درجة تحضره!

* * *

لماذا ينحرف الناس هناك هذا الانحراف؟ لماذا تختل القيم في موازينهم إلى هذا الحد الذي يثير السخرية حين يتمعن فيه الإنسان؟

إنها المقاييس الخاطئة تؤدي حتما إلى النتائج الخاطئة. وبقدر ما يكون الخطأ في المقاييس يكون الانحراف في النتيجة.

والمسألة إذن في حاجة إلى تصحيح القيم.. تصحيح المقاييس.

* * *

كيف نقيس الإنسان؟

هل هناك مقياس "موضوعي" لا يخضع لرأي ورأيك، بل يعتمد على أسس ثابتة يمكن الرجوع إليها لتصحيح المقاييس كلما اختلت في أيدي البشر؟[1].

فلننظر في هؤلاء "البشر". كيف أصبحوا بشرا. فلعلنا أن نصل –عن هذا الطريق– إلى المقياس الصحيح.

وأسهل طريق نصل منه إلى النتيجة، وهو كذلك أضمن طريق، أن نوازن بين الإنسان والحيوان. فالفرق المتبقي في الميزان هو حقيقة الإنسان!

والفروق بين الإنسان والحيوان كثيرة لا نظنها تحتاج إلى جدل كثير.

أحد الفروق بطبيعة الحال أنه يستخدم "عقله" في التفكير والتعلم والاختراع.

وأحد الفروق كذلك أنه يستخدم الإرادة الضابطة في تنظيم ميوله الفطرية وتوجيهها ذات اليمين وذات الشمال.

ومن هذا الفارق الأخير، أو من كليهما معاً، كف الإنسان –على مدار الزمن– عن الاستجابة المباشرة لميوله الفطرية على طريقة الحيوان، وراح ينظمها ويهذبها، ويستجيب لها آخر الأمر ولكن بعد أن يقطع بها شوطا بين المنبع والمصب. وعلى ضفاف هذا الشوط من المنبع إلى المصب نبتت الفنون والعقائد، والأفكار والفلسفات، والعادات والتقاليد، كالزهور الجميلة تنبت في وسط الطين، ولكنها شيء آخر غير الماء والطين.

إلى هذا الحد يتفق الناس في حكمهم على الإنسان. فنكتفي إذن بهذا القدر، ولا ضرورة الآن لذكر الروح، ما دام الناس غير متفقين على أنها من مزايا الإنسان التي تفرقه عن الحيوان!

---

[1] – أشرنا إلى هذه الفكرة من قبل في فصل "مقياس الحياة" وهنا نقيس الحياة من زاوية أخرى. وهذه الفكرة مكملة لتلك.

وإذن فحين نتحدث عن الحضارة "الإنسانية" ينبغي أن نرجعها إلى مقاييسها تلك البديهية الظاهرة التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان، وإلا فستكون مقاييسنا خاطئة قاصرة لا تصل بنا إلى الجواب الصحيح.

العلم.. والاختراع.. لا شك أنهما إنتاج إنساني أصيل. فالحيوان لا يخترع، ولا يحسن أن يكيف حياته على أساس الاستفادة الواعية مما حوله من ذخائر الوجود.

ولكن القياس بهذا المقياس وحده لا يكفي، ولا يؤدي إلى نتيجة صحيحة.

تصور أنك تحاول رسم دائرة بفرجار (برجل) ذي قائمة واحدة! هل يمكن أن تصل إلى نتيجة؟ أم إنه لا بد من القائمتين معاً، تركز بإحداهما في مركز الدائرة وتدور بالأخرى على الورقة حتى يتم الرسم؟

العلم أو الاختراع.. هو إحدى قائمتي الفرجار. ولكنه وحده لا يعني شيئا ولا يرسم صورة.

فالعلم يمكن أن يستخدم للخير وللشر. ويستخدم في التدمير ويستخدم في البناء.

والعلم يمكن أن يستخدمه الرجل الفاضل والرجل المنحرف. فأنا أستطيع أن أستخدم الغسالة الكهربائية في بيتي وأنا رجل هابط منحرف، أكيد للناس وأتمنى لهم الشر —سواء نفذت هذا الشر في صورة جريمة أم بقى إحساسا كامنا في نفسي– كما أستطيع أن أستخدم هذه الغسالة الكهربائية وأنا رجل نظيف المشاعر أحب للناس الخير وأسعى لهم في الخير.

فإذا كنت أستخدمها في الحالتين فكيف تصلح في ذاتها أن تكون مقياسا لإنسانيتي أو تحضري؟

والغسالة الكهربائية شأنها شأن المحراث الميكانيكي، وشأن الراديو والتليفزيون والسينما والمطبخ الكهربائي والقطار الكهربائي والإنسان الآلي والمخ الإلكتروني.. إلى آخر هذه الآلات التي تعمل بالكهرباء وتستهلك الكيلوواط! لا يمكن أن تكون في ذاتها مقياسا للحضارة ولا مقياسا للآدمية، لسبب بديهي بسيط هو أن الجميع يستخدمونها، بما فيهم من خير وشر، وصعود وهبوط. وإذن فلا تصلح لقياس الصعود والهبوط في مقاييس الإنسانية.

وإنما هي تصلح حين نضيف إليها القائمة الأخرى من قائمتي الفرجار، لترتسم الدائرة وتتضح الصورة للعيان.

قلنا إن الفارق بين الإنسان والحيوان –إلى جانب العلم والاختراع– هو تحكمه في نوازعه الفطرية، وعدوله عن الاستجابة المباشرة إليها، مما نشأ عنه الفنون والعقائد، والفلسفات والأفكار، والتقاليد والعادات.

تلك هي القائمة التي ترسم الدائرة. أما الأخرى فهي فقط محور الارتكاز. وعلى قدر المسافة التي أفتح بها القائمة الثانية تكون الدائرة ضيقة أو واسعة، محدودة أو شاملة. بينما القائمة الأولى ثابتة في جميع الأحوال في نقطة الارتكاز.

فعليّ إذن حين أبحث في مدى حضارة إنسان معين، أو شعب معين، أن أرى الدائرة التي يعيش فيها. الدائرة التي يرسمها لنفسه بقائمتي الفرجار.

فإذا كان هذا الفرد أو هذا الشعب يستخدم التليفون والتليفزيون والغسالة الكهربائية والمطبخ الكهربائي... ويستهلك أكبر قدر من الكيلوواط في اليوم، ثم يكذب وينصب، ويستغل الآخرين أسوأ استغلال، وتفوح من تصرفاته روح الغدر والخيانة، والأنانية البغيضة.. أو إذا كان يستهلك هذا القدر من الكهرباء، ثم يتنازل عن آدميته، عن فنونه وعقائده، وآرائه وفلسفاته، وتقاليده وعاداته، ويرتد كالحيوان يستجيب لميوله الفطرية استجابة مباشرة.. فكيف أقول إنه متحضر، بل كيف أقول إنه إنسان؟!

وما قيمة هذه الكيلوواطات كلها، وهي لا ترفع مشاعره إلى إحساس نبيل، أو رغبة في التعاون مع بني البشر على الخير؟

أمريكا هي البلد الذي وصل إلى القمة في استهلاك الكهرباء..

وأمريكا هي التي تعامل الزنوج تلك المعاملة البشعة التي لم يُسمع عنها إلا في شريعة الغاب.

فكيف تكون أمريكا متحضرة، ولو استهلكت من الكهرباء أضعاف ما تستهلكه اليوم بحساب الكيلواواط؟!

* * *

وإذا كان العلم والاختراع شيئا مشتركا، أو يمكن –على مدار الزمن– أن يكون مشتركا بالنسبة للجميع، فالمقياس الآخر إذن هو الذي يحدد النتيجة ويرسم الصورة.

الآدمية.. أو الحيوانية..

الارتفاع عن عالم الضرورة أو الهبوط إليه..

الإحساس بالآخرين على أنهم زملاء في البشرية، أو أعداء يجب تحطيمهم والاستئثار دونهم بطيبات الحياة، أو عبيد يستغلون لحساب سيدهم.

هذا هو المقياس.

وبقدر ما يرتفع الإنسان أو يهبط في هذا المقياس تكون درجة تحضره، لأنها درجة إنسانيته.

فالذي يغرق في شهواته ولذائذه لا يرتفع عنها. حيوان مرتد عن الإنسانية.

والذي ينبذ عقائده وتقاليده وأخلاقه.. حيوان مرتد عن الإنسانية.

والذي يسعى إلى إيذاء الآخرين من بني البشر... حيوان مرتد عن الإنسانية..

ولو استخدم كل آلات الأرض، واستهلك كل ما فيها من كهرباء.

والذي يكتفي من متاع الجسد بالقدر المعقول، ويملك حريته إزاء شهواته..

والذي يربط قلبه ووجدانه بعقيدة تقيه من الهبوط وترفع وجهه إلى السماء وهو يمشي بقدميه على الأرض.

والذي يحس بالكيان البشري للآخرين فلا يستعبدهم ولا ينابذهم ولا يستأثر دونهم بالخير..

ذلك هو الإنسان المتحضر، ولو لم يستهلك كيلوواطا واحدا من الكهرباء!

* * *

هل تلك مقاييس شخصية تقديرية؟

كلا! فقد رددناها إلى أصولها البسيطة، التي ينبغي أن ترد إليها، وهي الفوارق التي تفرق بين الإنسان والحيوان وكل مقياس لا يدخل هذه الفوارق في حسابه فهو مقياس خاطئ، لأنه

لا يقيس حقيقة الإنسان، وإنما يقيس جانبا واحدا منه لا يعبر بذاته، وليس له وحده دلالة، وإنما يعبر فقط حين يتبين اتجاهه، ويُرسم له الخط الذي يسير فيه.

ومن هنا تبدو تفاهة المقاييس الغربية التي تقيس الحضار بالكيلو واط!

* * *

هل معنى ذلك أن ننفض أيدينا من ثمار التقدم العلمي ما دام ليس لها وزن في الميزان؟

كلا. لا أريد أن أقول ذلك.

فالعلم —كما قلنا– نتاج بشري أصيل. والاستفادة من ثماره، وتكييف الحياة على أساسها خصلة مميزة للإنسان، فإذا أبى الإنسان ذلك أو نكص عنه فهو لا يريد أن يستغل كل كيانه وكل طاقاته، وهو إذن ناقص الكيان.

ولكني أريد أن أثبت حقيقة مهمة:

إن الإنسان يستطيع في سهولة أن يعوض ما ينقصه في جانب العلم والاختراع، إذا كان غني النفس بالجوانب "الإنسانية" الأصيلة التي يرتفع بها عن عالم الضرورة، ويشعر بزمالة البشر في الإنسانية فيتعاون معهم على الخير المشترك للجميع.

ولكنه لا يستطيع بالعلم وحده أن يعوض ما ينقصه في الجانب الإنساني ولو أضاف كل يوم مائة اختراع جديد، ولو استهلك كل يوم ألف كيلوواط.

ومن ثم يكون المقياس الآخر هو المقياس الحاسم، ولا يكون الأول إلا "شيئاً" في الميزان!

* * *

وأوروبا اليوم تفسد مقاييس الحياة لأنها —اليوم– تملك السيطرة والسلطان!

ورب قائل يقول: وكيف ملكت القوة والسلطان؟ وكيف ملكت أن تفرض المقاييس الخاطئة على البشرية؟ أليس بالعلم والاختراع؟! وإذن فهذا هو المقياس!

وذلك حق يؤدي إلى باطل!

فامتلاك السيطرة ليس حتما أن يكون على حساب الإنسانية الحقة. وقد كان العالم الإسلامي في وقت من الأوقات يملك كل وسائل القوة المادية وكل ثمرات العلم، ومع ذلك كان يرتفع في مقياس الإنسانية إلى الحد الذي شهد به أعداؤه من الصليبيين، وما يزالون يشهدون به في كتب التاريخ.

ومن جهة أخرى فإن امتلاك أوروبا للقوة المادية على غير رصيد نفسي نظيف قد أدى إلى هذا الصراع الرهيب في حربين متواليتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب تنذر بتدمير الحياة على وجه الأرض.

ويوم تصل البشرية إلى استخدام ثمار العلم في تهذيب النفوس والارتفاع على عالم الضرورة، فيومئذ فقط تكون قد ارتفعت حقا في مقياس الحضارة الأصيل.

النفاق الاجتماعي

النفاق في جميع صوره رذيلة منفرة، فهو عجز عن المواجهة، وضعف في الخلق والتواء في الطبع وخبث في الطوية...

والنفاق الاجتماعي، بمعنى التظاهر بالفضيلة في الوقت الذي لا يؤمن بها الإنسان أو لا يمارسها في الواقع، لا يخرج عن كونه نفاقا، ولا يخرج عن كونه رذيلة..

إلى هنا نتفق مع جميع الذين يكرهون النفاق ويدعون إلى إبطاله..

ولكنا نفترق عن بعضهم بعد ذلك.

* * *

النفاق هو المرحلة المتوسطة بين الفضيلة الحقة والرذيلة المكشوفة.

قوم لا يؤمنون بالفضيلة لأنهم يعجزون عن تكاليفها، أو لأن طباعهم الهابطة لا تأتلف معها، ولكنهم في ذات الوقت ضعاف الشخصية، لا يقدرون على المواجهة، فيتظاهرون بالفضيلة ليرضوا المجتمع، بينما هم يمارسون رذائلهم في الخفاء، هذا بطبيعة الحال إلى جانب الذين يتخذون من التظاهر بالفضيلة تجارة يصلون بها إلى مطامعهم الخبيثة، وهؤلاء ليسوا في حسابنا لأنهم يدخلون في طائفة الدجالين والمحتالين ومن إليهم من المجرمين. ولكنا هنا نتحدث عن الفرد العادي الذي لا ينافق لغرض خبيث يهدف إليه، وإنما مجاراة للمجتمع دون إيمان حقيقي بما يأتيه من الأفعال.

والخروج من هذا النفاق لا يتم إلا بإحدى وسيلتين:

إما الإيمان الحق بالفضائل التي يمارسها الإنسان نفاقا، والصبر على تكاليفها في السر والعلن، ومغالبة النفس عن الانحراف عنها..

وإما الخروج الصريح عليها، والقيم علانية بالرذائل التي يأتيها الإنسان في غفلة من الناس.

والأمر الذي نحسبه لا يحتاج إلى جدال هو أن الوضع الأول هو الوضع اللائق بكرامة الإنسان، الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق، وهداه الطريق الأسمى، ورسم له سبيل الفلاح.

ولكن قوما يقولون إن هذا غير ممكن. والإنسان ليس فاضلا بطبيعته، وإن هذه المثل الأخلاقية مُثل نظرية لا يمكن تطبيقها في الواقع؛ وإذن فلا ضرورة لنفاق، ولنكن صرحاء، ولنتكاشف برذائلنا. أو فلنكف عن تسميتها رذائل، فإن ذلك نفسه نفاق؛ ولنسمها الأمر الواقع، ولا نتحرج من الظهور بها على حقيقتها. ولنتشجع. فإن ذلك هو اللائق بالإنسان المتحرر من سخافة التقاليد أو من خرافة الفضيلة!

وهؤلاء هم الذين لا نستطيع أن نوافقهم!

* * *

لقد نشأت هذه النظرة في أوروبا في العصر الحديث من ظروف شتى.

أولها أن المثل المسيحية المتعالية المتزمتة عسيرة التطبيق حقاً. فهي تكلف الإنسان فوق طاقته وقد وجد أهلها أنهم لا يستطيعون تنفيذها كاملة إلا بالرهبنة، أي الانقطاع الكامل عن العالم الحي المتحرك الجياش بالحركة والحياة. ثم انكشفت الأديرة ذاتها عن فضائح خلقية بشعة، تستنكر من الشخص العادي، فضلا عن الشخص المنقطع للعبادة، الكاظم لشهواته، المتطلع —على طريقته— إلى السماء.

وقد مر جيل أو أجيال من الناس فيها بالمثل المسيحية حقاً، ثم ثقلت عليهم تكاليفها وعجزوا في الوقت ذاته عن الخروج الصريح عليها، من أثر النفوذ الذي يمارسه رجال الدين، ومن أثر الاستحياء من الظهور بمظهر الضعف والعجز و... ما إلى ذلك من الأسباب، فنافقوا، أي تظاهروا بأنهم فضلاء، وهم في الواقع لا يطيقون تنفيذ الفضيلة بمفهومها لديهم، أو لا يريدون ذلك.

ثم جاء فرويد.. وارتكب جريمته العظمى التي تكشف عنها بروتوكولات حكماء صهيون، إذ يقول هؤلاء الحكماء: "إن فرويد واحد منا. وينبغي أن ننشر تعاليمه بكل قوتنا. يجب أن نضع الرذائل الإنسانية تحت الشمس حتى لا يستحي أحد من كشفها. وحتى تتحطم الفضيلة فيتاح لنا التغلب على البشرية".

جاء فرويد ليقول إن الفضيلة كلها كذب وزور وخداع. وإن الإنسان في حقيقته ما هو إلا طاقة جنسية غالبة قاهرة مندفعة كالحيوان. وإن إقامة الحواجز في طريقها من خلق أو دين أو عرف أو تقاليد لا ينظفها ولا يهذبها، وإنما هو فقط يكبتها، أي يمنعها من الظهور على السطح، ولكنها باقية على حالها في اللاشعور، تحرك الإنسان دون أن يدري أو يحس، فضلا

عن العقد النفسية والاضطرابات العصبية التي تصاحب هذا الكبت ولا تترك الإنسان في راحة.

وفعلت تلك الدعوة فعلها الخبيث المقصود.

وانفلتت أوروبا من تزمت المسيحية إلى إباحية فرويد.. انفلتت كالحيوان الهارب من القفص يأكل كل شيء في طريقه، ويحطم كل شيء في طريقه. ليشعر أنه طليق.

وفي ظل هذه "الهيجة" المنطلقة بلا تعقل ظهرت آراء و"فلسفات" ومعتقدات جديدة، تسير في نفس الخط الذي رسمه فرويد، تقول إن ما يسمى بالفضيلة ليس إلا وهما أو خرافة نادت بها الأديان، واتبعها الناس تحت سلطان الدين والخرافة. اتبعوها نفاقا فقط، ولكنهم لم يؤمنوا بها قط ولم ينفذوها قط، فينبغي إذن أن "نتحرر" من هذه الخرافة، وأن نتبع "النور" الذي أتى به علم النفس، فنعرف نفوسنا على حقيقتها، ونتكاشف بها على طبيعتها، لا يمنعنا من ذلك حرج زائف ولا تزمت كاذب. ولنقل لأنفسنا صراحة إننا شهوانيون، وإن الشهوة هي حقيقتنا العميقة المتأصلة.. ثم لنكن شهوانيين على المكشوف بدل الخداع والنفاق واللف والالتواء...

وتمادى هؤلاء إلى حد المغالطة المكشوفة والاستدلال المفتسر الذي لا يخضع لمنطق ولا يثبت لبرهان.

قالوا إن الإنسان حين يكون وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له، يتخلى عن فضائله المزعومة، ويتصرف على طبيعته. فهو لا يتحرج أن يأتي بأي عمل من الأعمال التي تنافي مفهوم الفضيلة عند ذلك الشخص ذاته. ولكنه في اللحظة التي يحس فيها وجود أحد يسرع فيداري طبيعته.. يلبس ويتحشم ويتأدب ويتخذ سلوكا جديداً كله مفتعل.. من أجل الآخرين!

وقالوا إن التزمت والتستر وإقامة سدود سميكة من الدين والأخلاق والتقاليد لم يمنع من وجود إباحيين متحللين إلى أقذر حد يختفون داخل مسوح الفضيلة ويصنعوا كل شيء في السر، ولم يمنع من وجود نساء متهتكات إلى أقصى حدود الفجور وهن داخل الأسوار ووراء الحجاب.

وكلتا القولتين حق يراد به باطل.

فصحيح ولا شك أن الإنسان وهو وحده يتخفف من كثير من القيود التي يلتزمها وهو موجود مع الناس. ولكن لماذا نسمي ذلك نفاقاً، ولماذا نقول إنه شيء مفتعل، ليس في طبيعة الإنسان؟

فلنأخذ مثالا من الواقع، لا نتحرج من ذكره، لأنه واضح الدلالة على زيف هذا الاستدلال.

إن كل حي يخرج فضلاته عن طريق التبرز. والتبرز عملية قذرة في حد ذاتها لأنها تتصل بالأقذار التي يلفظها الجسم إبقاء على الحياة. ولكن الأمر الواقع الذي يلمسه كل إنسان بالتجربة أنه لا يتأفف من قذارة نفسه، ولا يشعر بالنفور من عملية التبرز التي يأتيها كل يوم. بل الأمر على العكس، فإنه من عجائب الخلقة ومعجزاتها الطريفة أن كل العمليات البيولوجية مصحوبة باللذة، تشجيعا للكائن الحي على القيام بها؛ حفظاً لذاته أو حفظاً لنوعه؛ ولولا هذه اللذة لتكاسل الكائن الحي عن أدائها، وربما أصيب بالضرر أو قضى عليه بالفناء.

فالذي يحدث إذن أن كل مخلوق يحس بلذة في إخراج فضلات نفسه، بينما يحس بالتقزز والنفور من رؤية فضلات غيره، لأنه يرى قذارة ولا لذة!

أفإن قام كل إنسان بإخراج فضلاته بعيداً عن أعين الناس ليمنع ما يحسون به من النفور والتقزز، أيقال عنه إنه منافق؟ ويقال إنه يصنع من أجل الناس ما لا يصنع من أجل نفسه؟ وإنه لو كان وحده آمناً من رقابة الناس أو مفاجأتهم له لما قام بهذا الإجراء؟

أي منطق هذا؟

نعم إنه يصنع ذلك من أجل الناس. ولكن لماذا حدث ذلك؟ أليس لأن الناس قد وجدوا أنهم لو صنعوا أمام بعضهم بعضا ما يصنعونه في خلوتهم فستكون النتيجة أن يتقزز الناس جميعاً وينفروا جميعاً؟ أليسوا قد اتفقوا حينئذ أو تواضعوا على أن يداروا سوآتهم عن الآخرين ليمنع كل إنسان عن نفسه هو في النهاية ما يثير تقززه واشمئزازه؟ أليست المصلحة المشتركة إذن هي التي منعت كل إنسان أن يعمل في صحبة الناس ما يعمله في خلوته. المصلحة التي هي في النهاية مصلحة كل فرد بمفرده؟

أفيقال إن هذا نفاق؟!

والمسألة كذلك في "الفضائل" كلها، وإن كان الأمر مستويات فوق مستويات.

ولنأخذ المسألة الجنسية التي يدور حولها الجدل كله في هذا القرن العشرين.

الرغبة الجنسية رغبة أصيلة عميقة في الكيان البشري تمتد إلى أعمق جذوره. هذا حق.

وقد عملت الأديان والتقاليد والأخلاق على تهذيبها والارتفاع بها، ولكنها موجودة لا تزال، متأصلة في الأعماق. ذلك أيضاً حق. ولكن ما صلة ذلك بما يقولون وما يريدون؟

هل معنى ذلك في منطقهم أن يقوم الإنسان بهذا العمل بلا تحرج وأمام الناس؟ إنهم إن لم يقوموا ذلك كله علانية فقد قالوا معظمه، حين أباحوا العرى، وأباحوا التقبيل والعناق على قارعة الطريق، وأباحوا اتخاذ الخليلات والخلان، وأباحوا القصص الجنسية الحادة والصور المثيرة في السينما والمسرح والإذاعة والصحافة.. وأباحوا كل ما نراه اليوم بدعوى التحرر والواقعية والانطلاق، وما أشبه ذلك من هذيان المحمومين.

فلنرجع إلى هذه القيود كيف وضعت ولأي شيء وضعت.

يقولون إن البشرية الأولى كانت تمارس الشيوعية الجنسية كاملة أو قريبة من الكاملة.

ورويداً رويداً بطلت هذه الشيوعية الجنسية وعرف نظام الزواج، أي تخصيص رجل لكل امرأة وامرأة لكل رجل على تفاوت في هذا التخصيص.

هل حدث ذلك بلا سبب؟

هل استقرت الأمور على الإباحية الأولى وساد الوئام بين الناس؟

أم إن التنازع على "امتلاك" النساء قد أقام المذابح بين الرجال، بحيث وجدوا أن أفضل طريق هو أن "يحوط" كل إنسان على ملكه بحيث لا يتعداه غيره؟

ثم استقرت الأمور على ذلك آلاف السنين لا تضطرب إلا حين يقوم شخص عابث يتعدى الحدود. ووجد الناس أنه لا يأمن أحدهم على حدوده الخاصة إلا بأن يمتنع هو عن مهاجمة حدود الآخرين ولو كان راغباً في ذلك مشتهيا له.

فهل كان ذلك نفاقا؟

هل كان نفاقا وهو يؤدي في النهاية إلى الأمن المشترك والمصلحة المشتركة؟ يطمئن كل إنسان على أسرته ويمنع أذاه عن أسر الآخرين؟

وهل مغالبة الناس لشهواتهم —مع وجودها وتأصلها في نفوسهم– حرصا على المصلحة المشتركة، أو خوفا مما يصيبهم من الضرر لو انفلت القيد، يعتبر زورا وكذبا وخداعا لا يصنعه الإنسان إلا من أجل الآخرين؟

أي منطق هذا يصاب به مفكرو القرن العشرين؟

ثم ننتقل إلى العجيبة الثانية في تفكير أولئك العباقرة المحدثين..

إن الوقار والتزمت والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والتقاليد لم تمنع قيام المتهتكين في السر، ولا المتهتكات من وراء الحجاب.

نعم. هذه حقيقة. فماذا يراد من ورائها؟

يراد أن نلغي هذه القيود والتقاليد، ونتخلى عن الغفلة التي نعيش فيها مغمضي العيون!

لماذا؟ هل سيؤدي ذلك إلى تنظيف أولئك المتهتكين والمتهتكات، وردهم إلى الفضيلة؟

أم قصاراه أن يخرج إلى عرض الطريق ما يحدث من الخبائث وراء الجدران؟!

فلننظر إلى الأمر الواقع.. فلنترك النظريات البراقة.. فإنه يقال لنا إن مزية القرن العشرين هي التمسك بالواقع والتخلي عن الأوهام!!

هل الذي حدث في أوروبا وأمريكا أننا نظفنا النفوس ورفعنا الأخلاق ورددنا الناس إلى الفضيلة —عن طريق الحرية– أم أننا حولنا البيوت والفنادق والطرقات والشوارع كلها إلى مواخير؟

وماذا كان يصنع المتهتكون عندنا في السر والمتهتكات وراء الجدران، أكثر مما يصنعه "الفضلاء" هناك على المكشوف؟

أم إن العمل ذاته يعتبر رذيلة هنا وفضيلة هناك؟

وما الذي يريده السادة "المفكرون" هنا في الشرق على وجه التحديد؟

يريدون أن يطهروا نفوس الناس ويعودوهم على الفضيلة الحقة، الفضيلة الناشئة عن اقتناع في الضمير وتأصل في الوجدان؟ أم يريدون أن يخرجوا المواخير المستورة إلى الشارع، ويقولوا إن ما يحدث فيها هو الفضيلة، كما صنعت أوروبا وأمريكا في العصر الحديث؟

* * *

وليس هنا مجال الرد على فرويد وأتباعه من أن الإنسان سافل بطبعه مندفع أبداء وراء شهوته. وأنا إما الكبت المضر وإما الانطلاق وراء الشهوات.

ليس هناك مجال الرد، فقد أفردت له فصلا خاصا في كتاب "الإنسان بين المادية والإسلام" كما ناقضت كثيرا من آرائه في أماكن متفرقة من الكتاب.

ولكني أعيد هنا في اختصار شديد ما قلته هناك عن نظرة الإسلام.

إن الإسلام لا يلجأ إلى كبت الطاقة الحيوية –جنسية كانت أو غير جنسية– بل يعترف بها اعترافا كاملا على أنها الأمر الواقع في طبيعة البشر: **(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)**. وإن كل ما يدعو إليه الإسلام هو تنظيف الاستجابة إلى هذه الشهوات –مع الاعتراف بنظافتها في ذاتها وأصالتها وأحقيتها الكاملة في الإشباع– وهدف هذا التنظيف في النهاية هو رفع الضرر عن الفرد والجماعة. وهو قائم في الحدود التي لا ترهق الفرد ولا تكلفه فوق طاقته **(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**. وقائم على حقيقة "علمية" ملموسة، هي أن الإنسان قابل بالفعل للتهذيب بدرجة لا توجد في الحيوان، مما يدل على أنها خاصية من خصائصه التي تفرد بها بين مخلوقات الله.

هذا التحديد المختصر لنظرة الإسلام يكفينا هنا في صدد ما نريد الإشارة إليه، وهو أن الإسلام يتمشى مع الطبيعة البشرية ولا يكبت طاقتها الحيوية، ومن ثم لا يلجئ الناس إلى النفاق، لأنه لا يتطلب منهم ما يحوجهم إلى النفاق.. إنه مثلا لا يقول لهم إن الشعور الجنسي قذر في ذاته فتطهروا منه وتعالوا عليه. فإذا عجزوا عن إطاعة هذا النداء –تلبية لدوافعهم الفطرية– نافقوا ليحافظوا على تعاليم الدين.. كلا! إنه يقول لهم إنه أمر طبيعي جداً، ونظيف في ذاته إلى أبعد الحدود. "**حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء. وجعلت قرة عيني في الصلاة**". بل هو يدعوهم دعوة صريحة إلى أخذ نصيبهم من المتاع الجنسي إذ يدعوهم إلى الزواج والتبكير فيه. كل ما في الأمر أنه يمنعهم من أخذ هذا النصيب فوضى على طريقة الحيوان، ويتيحه لهم نظيفاً طاهراً كما يليق بالإنسان. فإذا أطاع الناس تعاليم

دينهم في هذا الموضوع فلا نفاق إذن ولا حاجة إلى النفاق. وإنما الصراحة الكاملة والسعي الواضح المكشوف.

وكذلك الأمر في بقية تعاليم الإسلام، لا تجد فيها النفس السوية حرجا يدعو إلى النفاق.

وذلك فارق أساسي ينساه أو يتناساه من يقيسون الأمور هنا على ما يحدث في ظل الكنيسة الأوروبية، وكله عند "المثقفين" دين!

* * *

ولكن الناس ليسوا كلهم أسوياء.

ومهما بلغ التهذيب الديني فليس المفروض فيه أن يهذب الناس جميعا ويرفعهم إلى مستواه. والإسلام والإسلام لم يفترض ذلك ولم يقل إن كل الناس سيعتنقونه مؤمنين مخلصين.

هناك إذن قوم لن يؤمنوا. لن تتشرب أرواحهم العقيدة، ولن يستضيئوا بنورها الشفيف.

وهؤلاء إما أن يخرجوا على الدين جهرة، أو يكونوا منافقين.

وقد يكون من الخير في الأمور السياسية أن ينكشف المنافقون ليأخذ المؤمنون حذرهم منهم، ويكونوا لهم دائما بالمرصاد.

ولكن الشأن في الأمور الخلقية يختلف.

فليس من الخير أن يتبجح المنحلون والساقطون برذائلهم ويرتكبوها على قارعة الطريق.

فهنا تنشأ القدوة السيئة التي تشجع المترددين وتجرف المحافظين. وتكون النتيجة الأخيرة في النهاية أن يرتكز المجتمع كله في الرذيلة، لا أن يتحول كله إلى فضلاء.

والرهان هو ما حدث في أوروبا.

ولا ينبغي أن يخدعنا وصفهم لرذائلهم بأنها فضائل، وتبجحهم بأنهم أصبحوا واقعيين!

لقد أصبحوا واقعيين على مستوى الحيوان، حيث ينبغي أن يكونوا واقعيين على مستوى الإنسان.

ولنعلم أن للقوم هناك ظروفهم، سواء كانوا معذورين فيها أو غير معذورين.

ونحن لنا ظروف غير ظروفهم، وفهم للعقيدة غير فهمهم، لا يكلف الناس فوق طاقتهم ولا يحوجهم إلى النفاق.

فمهمتنا إذن أن نرفع الناس إلى مستوى الإنسانية. أن نبذر في نفوسهم الفضيلة الحقة ليكونوا مؤمنين بها عن اقتناع صادق وتأصل في الوجدان، لا انصياعا لقيد خارجي محكم أو حجاب مفروض.

ولكننا في الحالات التي نعجز فيها.. لا لسوء عقيدتنا ولا فساد نظامنا، بل لوجود انحراف في شخص لا يريد أن يرتفع إلى مستوى الإنسانية ويريد أن يخلد إلى مستوى الحيوان..

عند ذلك فلنفرض تقاليدنا فرضا بقوة القانون..

ولا ضير يومئذ مما يقوم به بعض الناس من النفاق خوفا من سطوة القانون والتقاليد، فذلك خير من إباحة القدوة السيئة التي تشجع المرتدين وتفسد الصالحين.

إنما الضير يوم يتحلل الناس كلهم من عقائدهم، ويبقون على ردائها الخارجي وحده انصياعا للقيد المفروض. فالذي يحدث عند ذلك أن يتهدم المجتمع كله ليبنى على نسق جديد.

فوق الواقع

لي صديق يشتمل على صفات كثيرة تضايقني.

فهو مثلا مولع بذكر التفصيلات الدقيقية التي لا تقدم ولا تؤخر، وأنا أمقت ذلك في غير الأبحاث العلمية والمشكلات الفكرية، التي يحتاج الإنسان إلى تتبع جزئياتها للوصول إلى نتائجها.

وهو كثيراً ما ينسى نفسه، فيعيد رواية قصة رواها من قبل، ويعيدها بكلا تفصيلاتها الدقيقة التي لا تقدم ولا تؤخر؛ وأنا أكره بطبيعتي أن أستمع إلى الشيء مرتين، فضلا عن التفصيلات المملة التي تصبح أكثر إملالا حين تكرر وتعاد.

يقول لي مثلا: إنك لم تسمع مني قصة الليلة التي قضيتها في باريس أو لندن أو برلين.. وأكون قد سمعتها منه قبل ذلك عشر مرات! فيروح يقصها مرة أخرى، ويروي لي ما قال فيها من شعر وما حلم من أحلام، ويتوقع أن أنفعل بكل جزء من جزئياتها، وأتعلق بمفاجأتها كأنني أسمعها أول مرة، وإلا فأنا معرض عنه ومشغول!

وهو ينسى نفسه كذلك فيسألني عن أشياء فأشرحها له بالقدر الذي أظن أنه أشبعه ولم يعد في حاجة إلى مزيد، ثم إذا هو بعد أيام يسألني عنها بنفس الصيغة واللهجة كأنني لم أقل له شيئاً من قبل؛ وأنا أكره أن أكرر نفسي، وأمقت مقتا شديدا أن أضطر إلى إعادة كلام قلته من قبل.

ثم هو حساس إلى درجة شديدة، تجرحه الإشارة العابرة ويتعلق بها ويكبرها ويضخمها حتى يجعل منها قضية كبيرة. وأنا تعودت مع أصدقائي خاصة أن أتكلم بلا تكلف —ما دمت مطمئنا إلى أني أحبهم ولا أقصد الإساءة إليهم– وأكره من أحد من أصدقائي أن يكلفني —بحساسيته– أن أتيقظ لكل كلمة أقولها خشية أن تجرح إحساسه وأنا لا أقصد. بينما أنا أملك الصراحة الكافية —كما قلت له مراراً– أن أنتقد الناس مواجهة حين أقصد إلى ذلك.

وهو يتسبب بحساسيته تلك في مضايقات كثيرة لي.

فقد يضرب لي موعدا ثم يتأخر عنه ساعة أو أكثر.. أو لا يجيء أصلا. ثم يعتذر إلي فأقبل عذره رغم معرفته بأن الانتظار يمزق أعصابي. فإذا تأخرت أنا لأسباب تخرج عن إرادتي وجدته منفعلا ثائرا لا يقبل عذرا ولا يهدأ من قريب!

ويتصرف أحياناً –وهو معي– تصرفات مسيئة للآخرين، فيؤذيني ذلك. يؤذيني من أجله هو. ومع ذلك لا أملك تنبيهه ولو بأرق لفظ، بسبب حساسيته الزائدة، وأظل أكظم في نفسي هذا الضيق.

وهو في جملة القول متعب بالنسبة إلي. وما أريد أن أزعم أنه هو المخطئ في كل هذه الأمور وأنا على صواب. فقد أكون أنا المخطئ أو قد يكون كلانا على صواب ولكنه اختلاف الطبع بين الاثنين. وما أريد كذلك أن أزعم أنه –حتى بالنسبة إلي– متعب في جميع أحواله. فما من شك أنه يحمل بين جنبيه قلب إنسان، وما أقل القلوب الإنسانية في هذا الزمان.

ولكني أريد فقط أن أبين حقيقة واقعة: أنه لا تكاد تخلو جلسة واحدة من جلساتي معه من أمر يملني ويضجرني. ثم يزيد الأمر وقعا على أعصابي أنني لا أحب أن أظهر له الملل والضيق، بل أحب أن أظهر بمظهر المقبل عليه، المرتاح لكل ما يقول.

تلك حقيقة واقعة...

وأنا معذور حين أحس بالضيق والضجر من أمور لا تتفق مع طبيعتي، بل هي معها على طرفي نقيض.

ولكني مع ذلك كثيراً ما أحس أنني مقبل عليه إقبالا حقيقيا لا اصطناع فيه. أحس أنني متقبل لكل ما يصنعه وما يقوله.. كل تصرفاته التي تبدو لي بعين "الواقع" منحرفة منفرة.. كل تفصيلاته التي لا تقدم ولا تؤخر.. كل تكراره وإعادته.. كل أسئلته عن أشياء سبق أن شرحتها له.. كل حساسيته الزائدة.. كل تصرفاته التي لا ترضى الآخرين.

كل هذه الأمور أحس أنني أتقبلها بقبول حسن. لا أحس أنني "مصطبر" عليها كرها لكيلا أجرح شعوره، بل متقبلها حقا.. بغير جهد، بغير حمل على الأعصاب.. متقبلها وأنا بها سعيد!

هل تغير "الواقع"؟

أبداً.. إنه "واقع" ما يزال.

ولكني أنا ارتفعت "فوق الواقع" لحظات من الزمان!

وصحيح أنني لا أرتفع فوق الواقع في كل لحظة، ولكنني أحسن أنني "إنسان" حقاً حين أرتفع فوق الواقع، وبمقدار ذلك الارتفاع!

* * *

"الواقع" حقيقة ما في ذلك شك.

ولكن الارتفاع فوق الواقع حقيقة كذلك... إنه حقيقة "الإنسانية".

وندرة اللحظات التي يرتفع فيها البشر عن الواقع لا تعني أنها غير موجودة، ولا يبرر إغفالها من "واقع" الحياة. فما دامت تحدث بالفعل فلا بد من تسجيلها والإشادة بها، ووضعها موضعها الحق في وزن الأمور.

هل كل يوم يزهر النبات؟ أليست لحظات معدودة من حياته هي التي تتفتح فيها الزهور؟ ولكن من يقل إن ندرة هذه اللحظات تبرر إغفال ذلك الشذى العذب والمنظر البهيج؟ وكم تخسر البشرية حين تغفل من حسابها هذه اللحظات، ولا تستمتع بذلك الجمال المتاح؟ وكم تكسب وهي تترقب الزهور المتفتحة، وتتطلع إليها في لهفة، وتتسابق إلى الاستمتاع بها بضع لحظات؟

ثم أليست الثمرة الجنية ذاتها نتيجة لهذه الزهرة التي لا تتلبث، ولا يتضوع شذاها غير لحظات؟

كذلك "زهرات"، المشاعر و"ثمرات" النفوس. قليلة نعم. ولكنها في قلتها أحق بالإشادة وأحق بالتسجيل!

* * *

وقد كانت أوروبا غبية بلهاء وهي تنحي من حسابها تلك المشاعر الصافية والومضات النفسية الوضيئة بحجة "الواقعية"! أو قل —إن شئت– إنها كانت تتحدث عن واقعها هي لا عن واقع البشرية!

إن الواقعية لا تكون واقعية حقة وهي تغفل من الحساب جزءاً من الواقع وتنظر إليه كأنه غير موجود.

ومضة البرق لا تستغرق إلا لحظة، ولكنها تضيء وجه الأرض كما لا تضيئه ألوف المصابيح. وإذا كان علماء الطبيعة يدرسون كيفية الإفادة من هذه الومضة الخاطفة كيلا تضيع في آفاق الكون، فكذلك ينبغي لعلماء النفس والاجتماع أن يفيدوا من ومضات النفوس المشرقة كيلا تضيع في آفاق البشرية.

ولكن أوروبا التي تسيطر اليوم على العالم تأبى إلا أن تغفل الواقع الأكبر لتعيش في حدود الواقع الصغير.

وفي ظل هذه الواقعية المشوهة التي تنكر قدرة الإنسان على الارتفاع فوق الواقع، نبتت نظريات دارون وماركس وفرويد والبراجماتزم، ونبتت الفنون "الواقعية" كلها، تمرغ النفس الإنسانية في الوحل، وتقول إن هذا هو الواقع!

دارون كان أول من قرر مادية الإنسان وحيوانيته، لأن "الواقع" الذي كان يدرسه هو الواقع الجثماني الحيواني الذي أوحى إليه أن الإنسان من سلالة الحيوان. وقد أغفل في غمرة نشوته بهذا الكشف أن الإنسان قد ارتفع فوق الواقع الحيواني، وأن جوانب جديدة في نفسه لا مثيل لها في عالم الحيوان، تعطيه إشراقة الروح وصفاء المشاعر.. وقد كان حريا –لولا واقعيته الضيقة– أن يدرك أن التطبيق الصحيح لنظرية النشوء والارتقاء ذاتها ينتهي إلى هذه النتيجة. فكل كائن أرقى يحمل صفات ليست لسابقه. هناك كائن له أذنان تسبقه كائنات لا آذان لها. وهناك كائن له عينان تسبقه كائنات لا عيون لها. وهذا كائن له روح، تسبقه كائنات لا تعرف إشراقة الروح.

وجاء ماركس وصفيه إنجلز يتحدثان عن واقعية المادة وواقعية الاقتصاد. "إن حقيقة العالم تنحصر في ماديته". "إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم. وليست مشاعرهم هي التي تحدد وجودهم... إن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد الصفة النهائية للمجتمع، وهي التي تحدد للناس مشاعرهم وأفكارهم وعقائدهم".

وذلك واقع.. ولكنه واقع صغير!

والواقع الأكبر الذي أغفله ماركس أن النفس الإنسانية لا يمكن أن تنحصر في الطعام والكساء والجنس –وهي المطالب الأساسية للإنسان كما سماها– ولا يمكن أن تنحصر في

نطاق المادة. وإن كل ما أنتجته البشرية في تاريخها الطويل، وكل ما استوعبته من آراء وأفكار وعقائد، هو تعبير عن حاجة نفسية أصيلة، وتعبير عن الواقع البشري الكبير. وأن الاقتصاد قد يكون "أساس" الحياة البشرية، ولكن الأساس شيء والبنيان ذاته شيء آخر. فضلا عن وجود قيم بشرية كثيرة ليست اقتصادية في "أساسها" وإنما هي سيكلوجية أو روحية أو فكرية لا تقل توجيها للناس في حياتهم عن وقائع المادة وحقائق الاقتصاد.

أما فرويد وعلم النفس التحليلي كله فيتتبع الإنسان من أعلى إلى أسفل. ينزل من الثمرة الجنية والزهرة الأريجة والأغصان الباسقة إلى البذرة الغارقة في الطين. ثم يقول لك: انظر! أليس هذا هو "الواقع"؟ ألست ترى معي البذرة الغارقة في الطين؟

نعم هذه البذرة حقيقة. ولكن من يقولها إنها تشبه الثمرة والزهرة والأغصان؟ أو يقول إن استمدادها من الطين قد منع أن يفوح منها الأريج العذب وتنعكس منها أبهج الألوان؟ هل كل ذلك ليس حقيقة؟ والحقيقة الوحيدة هي البذرة والطين؟

* * *

والفنون الحديثة تنحو هذا المنحى الأحمق، لكي تكون فنونا واقعية!

الفنانون والنقاد المحدثون يسخرون من الفنون القديمة التي كانت تبرز الجانب الأبيض من الإنسان كأنما كله فضيلة! ويدعون في مقابل ذلك إلى تسجيل الإنسان بحسب واقعه. يعني تسجيل الجانب الأسود من طبيعته وكأنما كله رذيلة! أستغفر الله! إن الحدث عن الفضيلة والرذيلة من تراث الماضي البائد الذي يجعل للفنون وللحياة كلها هدفاً أخلاقياً. وتلك أفكار رجعية. نحن اليوم معنيون بدراسة "الواقع" وتسجيله صافيا من الخرافات والأوهام!

وفي ظل هذه العقيدة راح الفنانون الغربيون يمزقون الإنسان مزقا ويمرغونها في الوحل. نزوات الجسد. نوازع الفطرة. صراع الحيوان. خسة الطبع. التواء المشاعر. هذه هي الدراسة الحديثة للإنسان كما ينعكس من كثير من ألوان الفن الحديث.

وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة، ولا إن الفن ينبغي أن يصورهم ملائكة. ولكن الواقعية الحقة ينبغي أن تشمل الواقع الكبير، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائقة منها باللحظات المعتمة الغليظة، لأن الواقع الأكبر يقول إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض، وإنما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال، والكمال.

صراع الجسد حقيقة. غلبة النوازع الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة. ضعف الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة. ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان. والفن ينبغي أن يشمل الواقع كله بلا تمييز.. الواقع الأكبر والأصدق في التصوير.

وما نعني حين ندعو إلى "تطهير" الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط، أو نلغي تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب. أو نصور الإنسان ملاكا بلا خطايا ولا أخطاء. كلا! وإنما نعني أن يكون الضوء مركزا على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة.

قصة "وسوسة الشيطان" لعبد الحميد جودة السحار مثال لما نقول. إنها قصة شاب متدين يقع تحت إغراء الفتنة. وتتأذى روحانيته الصافية وتتحرج، ولكنها رويدا رويدا تقع تحت سيطرة الدفعات الحسية الغليظة تصرعها وتكتم أنفاسها. ويظل يصور لنا مشاعر هذا الفتى بين الشد والجذب، حتى يقع في الخطيئة ويرتكب الفاحشة... هل رضيتم يا أنصار الواقعية؟ إنه يصور الفاحشة! إنه يصور الواقع البشري كما يحدث على سطح الأرض! ولكنه لا يتركك والضوء مسلط على منظر الجريمة! وهنا الفارق بين الواقع الصغير والواقع الكبير. إنه يرسم لك لحظة الإفاقة. إنه ينهي القصة بمنظر التوبة. منظر الفتى وهو يتلمس في ظلمة نفسه أضواء المغفرة. ثم يفتح الباب ليدخل منه النور: كل ابن آدم خطاء. وخير الخطائين التوابون. ثم يتركك والنور مسلط هناك!

* * *

والواقعية الأوروبية تقول لك: دع عنك أحلام الخيال والمثل العليا. ولنكن واقعيين. أين التضحية التي ترسمها قصص البطولة وترويها الأساطير؟ أين الشجاعة المثالية والوفاء النبيل؟ أين مغالبة الأهواء والارتفاع على الضرورة؟ أليس هذه كلها أساطير "استغفلتنا" بها الأجيال السابقة في قصص أبطالها وأنبيائها؟ فلنكن نحن واقعيين. فلنأخذ الإنسان بحقيقته الواقعة. خليط من النوزاع الفطرية والنزوات الجائحة. والحياة كلها صراع هذه النزوات وارتطامها بعضها ببعض، يغلب الأقوى ويسقط الضعيف. لا عبرة بصاحب الحق. فالحق هو القوة.

تعال إلى هؤلاء الأنبياء والقديسين والأبطال والمصلحين. هلم نمزق نفوسهم على المشرحة، وننظر خلالها في "الميكرسكوب" انظر: ها هو ذا العفن الذي كانت تخفيه الأساطير. انظر إلى هذه النفس البيضاء السامقة التي يشع منها النور. تفحصها جيدا. ألا

ترى نقطة "الضعف البشري" الكامنة فيها؟ ألا ترى هذا التصرف المنحرف من تصرفاتها؟ ثبّت نظرك هناك، وسلط هناك كل ما تملك من أنوار!

وهكذا يعيدون دراسة الشخصيات التاريخية بهذا الهدف وتحت هذا الضوء! يبرزون ما فيها من نقط الضعف ويجسمون ما فيها من البقع تحت "الميكروسكوب"، ويغفلون — عامدين أو غير عامدين– كل ما فيها من بياض وخير. في سبيل نقطة أو نقط ليست لامعة البياض.

إنها الواقعية.. الحمقاء!

أي كسب للبشرية في تجريح عظمائها وتلويثهم وتشويه صورهم بحجة الواقعية؟

إنها —فيما أرى– لوثة هذا الجيل. عجز عن الرفعة فراح يحطم المثل الرفيعة من بني الإنسان، وينزلهم إلى الوحل الذي غرق فيه هذا الجيل.

إن وجود النظافة حجة على القذرين. ووجود المرتفعين حجة على الهابطين. فليهبط الجميع وليتسخ الجميع، حتى يتساوى هؤلاء وهؤلاء، وتبطل التهمة ويبرأ المتهمون!

لست أقصد أن ننفي عن العظماء لحظات الضعف والهبوط، ولا أن نصور حياتهم خلوا من دوافع البشر العاديين. ولكن المسألة هي توزيع الأضواء على اللوحة! لماذا نكون واقعيين فقط حين نغفل كل جوانب العظيمة ونبرز جوانب السوء، ولا نكون واقعيين حين نبرز في الأبطال جانب البطولة، وهو الجانب البارز حقا في حساب الحياة؟!

وماذا تكسب البشرية من إبراز الجوانب الهابطة والنقط الضعيفة؟ إنها لا تكسب إلا الزيادة الدائمة في الهبوط. هناك مثل إنجليزي يقول: "صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع". وهو مثل صادق إنك تحتاج أن تطلب الكثير لتصل إلى المعقول. لأن الذي تحصل عليه دائما أقل مما تصبو إليه. فلو أدركك "التعقل" وقلت في نفسك: ما دمت لا أصل إلا إلى خمسين في المائة مما أصبوا إليه، فلأهدف منذ البدء إلى خمسين في المائة.. إذا قلت ذلك فلن تصل إلى الخمسين المنشودة، لأنك تحصل دائما على أقل مما تصبو إليه!

فهذه الواقعية الحمقاء إذن لا نتيجة لها إلا الهبوط الدائم إلى عالم الضرورة، وتضييق دائرة "الواقع" حتى يصبح واقع الحيوان.

* * *

وقد كان الإسلام على صواب وهو يرسم للبشرية أهدافها لا على أساس "الواقع" وحده، بل على أساس ما "فوق الواقع" كذلك.

إنه لا يغفل واقع الإنسان وضروراته. لا يغفل نوازع الجسد وضغط المادة.

إنه لا يرسم مثلا خيالية غير قابلة للتطبيق، ولا يفترض في الإنسان غير ما في طبيعته. ولكنه يبرز له أجمل خصائله وأرفع مشاعره، ويحاول أن يأخذ بيده إلى حيث الرفعة والسمو. فإذا هبط في لحظة إلى الواقع الضيق وعالم الضرورة فلا بأس. وباب المحاولة دائما مفتوح. وباب التوبة من اللحظة الهابطة لا يغلق أبدا في وجه من يعاود الصعود (..**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**).

والبشرية في ظل هذه النظرة وهذا التوجيه كاسبة أبدا، عاملة أبدا على الصعود: "صوب إلى الأغصان لتصيب الجذع". والإسلام يصوب أبدا إلى أعلى ليدرك جمهرة الناس في النهاية مستوى معقولا من الرفعة، ويدرك الأقلون المراتب العليا، ولا يهبط إلى الدرك الأسفل إلا الأقلون.

وهو بهذا "واقعي" جدا وعملي جدا. ولكن على النظرة الشاملة للواقعية. النظرة التي تشمل ما فوق الواقع الأصغر، لأنها ترى الواقع الكبير.

النفس والجسم

ما العلاقة بين النفس والجسم؟

لقد شغل هذا السؤال الفلاسفة من قديم الزمان، ثم عاد يشغل العلماء اليوم كما كان يشغل الفلاسفة من قبل.

وتتشعب الآراء بين هؤلاء وهؤلاء في اتجاهات شتى.

كان الرأي الغالب في القديم أن النفس هي الجوهر الحق، أو على الأقل الجوهر الأسمى. وأن الجسم مجرد مظهر، أو "محل" تحل فيه النفس. أو على أكثر تقدير هو الجوهر الأدنى.

ثم ظل محور الثقل ينتقل رويداً رويداً حتى أوشكت المدرسة التجريبية في علم النفس أن تقول –أو لعلها قالت بالفعل– إن الجسم هو الأصل. هو الحقيقة. هو منبع كل ألوان النشاط الحيوي من فكر وحس وإدراك وتذكر وانفعال وتصرف. وإن ما نسميه "النفس" ليس إلا انعكاسا للنشاط الجثماني. وجاء علماء الغدد ليؤكدوا هذه "الحقيقة!" حين قالوا إن الغدد هي التي تتصرف في كل نشاط الإنسان، وهي موطن غرائزه وميوله ونزعاته. فالأمومة ليست "شعراً" نبيلا أو غير نبيل، وإنما هي غدة إذا نزعتها من موضعها زال الشعور بالأمومة من نفس الأم، وإذ حقنتها بخلاصتها عاد ذلك الشعور!

وقد كان معروفا منذ القدم أن الجنس إحساس "غدي" يزول بإزالة موضعه في الجسم؛ وتلك كانت فكرة الخصيان في حريم القدماء. ثم جاء العلم الحديث يضيف إلى ذلك شواهد أخرى، حتى قال إن التفكير نشاط كهربي في المخ، وإن الخوف والشجاعة إفرازات –تنقص أو تزيد– من الغدة الأدرينالية فوق الكلى.. إلى آخر ذلك اللون من التفكير.

وحقائق العلم التجريبي في ذلك بارزة ومحيرة.

هل صحيح أن النفس هي مجرد الإطار الخارجي الذي تنعكس فيه كيميائيات الجسم وكهرباؤه. وأنها ليست جوهراً مستقلا كما كان يتصور القدماء، فضلا عن أن تكون هي الجوهر الأسمى؟ وهل كل هذه المشاعر النبيلة التي يشيد بها الأخلاقيون والفلاسفة وتدعو إليها الأديان وتسجلها قصص البطولة. هل هي كلها مجرد إفرازات كيميائية، عضوية وغير عضوية، تفرزها أجهزة الجسم المتعددة، أو مجرد نشاط كهربي في نسيج الجسم؟

إن الخلاف بين النظرتين ليس مسألة هينة. إنه خلاف في تقويم الحياة كلها. خلاف في تقويم "الإنسان". هل تعامله على أنه نفس أم على أنه جسم؟ هل نعطيه دروسا في الأخلاق وتدريبات على الفضيلة أم نعطيه حقنا كيميائية؟! ولأي شيء ندربه ونهذبه؟ إن كل هذا التدريب والتهذيب قائم على الأساس النفسي للإنسان. قائم على أن "نفسه" تقبل التهذيب، و"ترتفع" و"تقدر" المثل العليا، و"تعتنق" المبادئ الرفيعة وتعمل بوحيها، و"تهفو" إلى الجمال الحسي والمعنوي، فتقوم بناء على ذلك كله أديان ونظم وعقائد وأفكار. فإذا كان الإنسان غدد أو إفرازات كيميائية ونشاطا كهربيا فما معنى العقائد؟ وما قيمة المثل؟ وما دلالة الأفكار؟ ولماذا نتعب أنفسنا في ذلك كله؟ لما نعنّي أنفسنا "بالقيم"؟ لماذا لا نترك هذا الحيوان الإنساني يتصرف كما توحي إليه غدده وإفرازاته، أو كما خلقته "الطبيعة"؟

*   *   *

دارون؟

هل هو المسئول عن هذا الاتجاه؟

لا شك أن دارون من المسئولين عن وضع الأساس المادي الحيواني للإنسان. ولكن لعلنا نظلمه إن قلنا إنه مسئول وحده عن كل ما حدث بعده من اتجاهات. فلولا أن هذا هو الاتجاه الغربي الأصيل ما استطاع دارون وحده أن يجر إليه كل هذه الأجيال المتعاقبة من المفكرين والمعتنقين للأفكار.

والمسألة لا تحتاج إلى هذا التعب كله!

فمن البديهيات المعروفة أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا غذاء. وأن نشاطه الجسدي والفكري والنفسي كله متوقف على كمية من الغذاء يتناولها بين الحين والحين. ولكن من يقول إن قصيدة الشعر التي أكتبها أو اللوحة التي أرسمها أو الفكرة التي أبتدعها أو النشوة النفسية التي أحس بها هي المعادل الرياضي لهذا الغذاء بحيث أستطيع أن أكتب هذه المعادلة:

س فيتامينات + ص بروتينات + ع نشويات +دماء

= قصيدة في وصف الربيع!

أو = عقيدة

أو =نظرية هندسية!

ولماذا لا تنشأ القصيدة أو العقيدة أو النظرية الهندسية في جسم الحيوان الذي يشارك الإنسان في تناول هذه الفيتامينات أو البروتينات والنشويات والماء؟

بل لندع الحيوان جانبا. فقد تكون كيميائياته ناقصة! لماذا لم يبتدع الناس جميعا نظرية كنظرية النسبية التي ابتدعها أينشتين، أو أدبا كأدب شكسبير ودستويفسكي، أو جهازا لاسلكيا كماركوني أو قنبلة ذرية كالعلماء الألمان الذين "سرقهم" الحلفاء في نهاية الحرب وجندوهم لتفجير الذرة؟

إن هؤلاء جميعا يأكلون نفس الفيتامينات والبروتينات والنشويات والماء.. ولم يثبت العلم التجربي أن مخ هؤلاء العباقرة يحوي مادة أخرى غير ما في أمخاخ الآخرين.

وهل لو أخذنا الإفرازات الكيميائية المتمثلة في جسد الشاعر وقت "إفرازه" قصيدته ثم حقنّا بها ذلك الجلف الغليظ الحس، أو حتى ذلك الفتى المرهف الحس الذي لا دراية له بنظم الشعر... هل تكون نتيجة الحقنة أن يمسك بالقلم ويكتب لنا نفس الأبيات التي كتبها الشاعر؟!

لم يقل ذلك أحد من السادة العلماء.

كل ما قالوه أن حقنة من الإفرازات الداخلية في جسم مُتعَب، تشيع التعب المفاجئ في الجسم النشيط حين يحقن بها، لأنها مجموعة من السموم التي تؤثر في الخلايا والأنسجة فتحيل نشاطها إلى خمول. وقالوا إن حقنة من جسم كلب على وشك الموت لأنه حرم من النوم عدة أيام، قتلت كلبا سليما معافى كان يأخذ نصيبه الطبيعي من النوم والغذاء والرياضة.

نعم. كل ذلك مفهوم. إنه "جسم" يتأثر بإفرازات جسم مماثل. ولكننا لم نجد بعد أن الحق بالإفرازات الجسمية ينشئ أفكارا وفنونا وعقائد تشابه مثيلاتها عند صاحب الإفرازات!

* * *

ثم إن هذه هي نصف الحقيقة. فلماذا يحتفل بها العلماء كل هذا الاحتفال ويهملون النصف الباقي؟

لقد جعلوا كل همهم دراسة تأثير الجسم في النفس. فلماذا لا يدرسون كذلك تأثير النفس في الجسم؟

إنني أكون متعبا، متضايقا، مهموما، آيسا من الحياة.. بمعنى أن إفرازاتي الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد رسمت لنفسي هذا الإحساس، ووجهتها –بغير إرادتها– هذه الوجهة... ثم أرى فلانا من الناس أحبه فتنطلق أساريري وآنس إليه وأنسى نظرتي القائمة إلى الحياة.. بمعنى أن إفرازاتي الداخلية من الغدد والأجهزة الأخرى قد تغيرت مناسيبها وأنواعها، فرسمت لنفسي هذا الاتجاه الجديد. فماذا حدث يا ترى؟ هل مجرد الانعكاس الضوئي لصورة هذا الشخص على شبكية العين هي التي تحرك هذه الإفرازات، بحيث لو نقلت هذه الإفرازات إلى المعمل، وعكست عليها صورة الصديق تنقلب –كيميائياً– إلى إفرازات فرحة مستبشرة؟!

أو ليست هذه "عملية نفسية" تؤثر في نشاط الجسم، وتعدل إفرازاته وكيميائياته؟

وأكون متعبا.. بمعنى أن إفرازات التعب قد سممت خلايا جسمي وأنسجته، فأعجز عن الاستمرار في العمل، وأحس بحاجة ملحة إلى الراحة. ثم فجأة يخطر في بالي خاطر.. إن المصلحة العليا، إن العقيدة التي أعتنقها، إن حبي لفلان من الناس، إن رغبتي في زيادة الكسب، إن رغبتي في التفوق على فلان.. تعطيني عزيمة جديدة، فأندفع في العمل بروح ماضية، وأحس أن التعب قد زال، وأنني أستطيع أن أعمل عدداً آخر من الساعات.. فما الذي حدث؟ من أين جاءت الإفرازات الجديدة التي عدّلت الإفرازات الأولى وعادلت ما فيها من سموم؟!

أو ليست هذه دوافع نفسية تؤثر في نشاط الجسم وتغير إفرازاته وكيميائياته؟

وطاقة الجسم البشري محدودة، ومحدودة بالحساب المادي لقوة أنسجته واحتمال خلاياه فكيف حدث على مدار التاريخ تلك المعجزات من احتمال بعض الأفراد من ذوي العقائد ألوانا من التعذيب لا يتصورها العقل، ثم ظلوا أحياء، وظلوا محافظين على قواهم العقلية، وظلوا مستبشرين للحياة واثقين بالله، وبعض هذا التعذيب يقتل آخرين، وبعضه يفسد قواهم العقلية، وبعضه يورث الهم والحزن ويشيع اليأس من الحياة؟

* * *

هناك إذن علاقة متبادلة بين النفس والجسم. فما هي يا ترى هذه العلاقة؟

خطر في بالي هذا الخاطر: أنه بصرف النظر –مؤقتا– عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم، فإن هناك توازيا بين النفس والجسم في العمل والاتجاه.

لحظت هذه التوازي وأنا أكتب "الإنسان بين المادية والإسلام" في أكثر من اتجاه. لحظته في التفرقة بين الأمومة والأبوة. وفي التفرقة بين الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة. وفي الحديث عن "الرشاقة" الجسمية والرشاقة النفسية. وفي استعذاب الجسم لقدر من الألم لأداء بعض الوظائف الحيوية، واستعذاب النفس لقدر من الألم في سبيل تكوين المثل والأخلاق. كما لحظته في أن كثيراً من العمليات النفسية تتضح في الذهن إذا شبهناها بعمليات جسمية مماثلة.

قلت في الأمومة والأبوة إن إحساس الأم بطفلها هو أنه جزء منها. من صميم كيانها، تحس وجوها في وجوه، ويتحقق كيانها بتحققه. وقلت إن هذا الإحساس النفسي مواز للحقيقة الجسمية وهي نشوء الطفل في داخل جسم الأم واتحاد كيانهما الجسمي فترة من الزمن يتغذيان من غذاء واحد أو من "كيان" واحد.

وإن إحساس الأب بطفله مختلف. فهو يحس أنه جزء منه، ولكنه جزء موجود خارج كيانه، والعلاقة بينهما هي مودة الألفة والصداقة أكثر مما هي وحدانية الكيان. وإن هذه الإحساس مواز للحقيقة الجسمية وهي أن "المادة" التي يشارك بها الأب في تكوين الطفل، مادة تندفع إلى الخارج ولا تبقى داخل الجسم كما يحدث في حالة الأم.

لست أقصد أن الاتجاه النفسي ينشأ من الحالة الجسمية ولكني فقط ألحظ التوازي في الاتجاه.

وقلت في مسألة الإحساس الجنسي عند الرجل والمرأة، إن اتجاه الجسم "يشير" إلى اتجاهات النفس. فبينما نجد الإحساس الجنسي عند المرأة عميقاً جداً وشاملاً جداً، لا يقف عند حدود العمل الجنسي بل يتعداه إلى الحمل والولادة والإرضاع والتنشئة، ثم يتعداه إلى كيان المرأة كله من تدبيرها لبيتها وتزينها ومختلف رغباتها وأفكارها... نجد هذا الإحساس عند الرجل أشبه بالنزوة الطارئة، بالشحنة الكهربائية التي تطلب التفريغ. وبمجرد التفريغ ينصرف الرجل إلى مجالات أخرى من النشاط ليست جنسية في منشئها، حتى تعود الشحنة تطلب التفريغ من جديد. وإن الإحساس الجثماني بالجنس مواز لهذه الاتجاهات عند الرجل والمرأة. فبينما يتركز إحساس الرجل في منطقة بعينها، ينتشر إحساس المرأة في جسمها كله وإن كان يتركز في مناطق معينة بعضها داخل الجسم وبعضها على السطح.

وقلت إن الجسم في سبيل الحصول على الرشاقة يحتمل كثيراً من الجهد ويحتاج إلى كثير من التدريبات لا يصل إلى الرشاقة بدونها، ولكنه بعد ذلك ينعم بهذه الرشاقة ويحس بالخفة والانطلاق. وكذلك النفس تحتاج إلى تدريبات وجهد، وامتناع عن بعض الرغبات لتصل إلى الرشاقة النفسية، ولكنها بعد ذلك تنعم بهذه الرشاقة وتحس بالخفة والانطلاق.

وقلت إن بعض الوظائف الحيوية كنمو الأسنان مثلا يصحبه شيء من الألم. فلو لم يكن في الجسم استعداد لتحمل قدر من الألم بل استعذابه أحيانا لما أمكن أن تتم هذه الوظائف الحيوية في يسر. وكذلك تكوين المثل والأخلاق يحتاج إلى تحمل قدر من الألم، وفي النفس استعداد له يوازي الاستعداد الجسمي لتحمل الألم، وبذلك يصبح تكوّن هذه المثل والأخلاق ميسرا في النفس حين توجه إليها.

وثمة كبير من التشبيهات يصلح التمثيل فيها بما يحدث في الجسم لشرح ما يحدث في النفس.

فالعضلات الجسمية تتضخم وتقوى بالتدريب المستمر والاستخدام الطويل، وتذبل وتضْوى بالإهمال حتى لتكاد تعجز عن وظيفتها. والخصائص النفسية كذلك لا بد من استخدامها وتدريبها لتقوى. وإذا أهملتها ذوت وضعفت حتى كأنها غير موجودة. ومن هنا يعجز العبد عن التصرف الحر، لا لأن كيانه النفسي مختلف في أصله عن كيان الحر، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف. وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار في استعباد الشعوب نفسيا إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتستعبد على مر الأيام.

والكيمياء الجاهزة يحتاج إليها الجسم أحيانا في صورة فيتامينات. ولكنها لا تؤدي مهمة الغذاء الطبيعي كاملة، إذ أن الجسم يستفيد أكثر من الغذاء الذي يهضمه ويمثله ويختار منه ما يريده ويطرد فضلاته: أي يتفاعل معه تفاعل إيجابيا في كل مرحلة من المراحل. والنفس كذلك. قد تحتاج أحيانا إلى أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة! ولكنها لا تستطيع أن تعيش عليها؛ ولا بد أن تذوى وتضعف إن لم تقم بالتفاعل الإيجابي مع الأفكار. لهذا يقف النمو النفسي للشعوب الجماعية، ذوات الحكومات الدكتاتورية التي تلقنها أفكار جاهزة ومشاعر جاهزة تنتجها معامل الدولة كما يحدث في الشيوعية.

وغير ذلك كثير.

كلها أمثلة تشير إلى وجود تواز بين كثير من التصرفات النفسية والتصرفات الجسمية في الإنسان.

* * *

لذلك خطر لي أنه بصرف النظر –مؤقتا– عن طريق التفاعل الخفية بين النفس والجسم، فإن أقرب صورة للعلاقة بينهما هي السلم الخشبي ذو القائمتين تربط بينهما قوائم عرضية.

هذا السلم يرتكز على قائمتين شبه متوازيتين، تلتقيان –نظريا– لو مددنا كل قائمة إلى نهايتها. ولكنهما في وضعهما الموجود بالفعل تلتقيان عن طريق العوارض الصغيرة التي تربط كلا منهما بالأخرى. والراكب على السلم يرتكز على كل من القائمتين في ذات الوقت عن طريق هذه العوارض. وقد يكون ثقله أحيانا أقرب إلى هذه القائمة أو تلك، ولكنه في كل حالاته مرتكز عليهما معا في ذات الوقت. ولا تمر عليه لحظة واحدة يكون مرتكزا فيها على إحدى القائمتين دون الأخرى.

تلك أقرب صور الخيال إلى الواقع.

فكل عمل يقوم به الإنسان يؤديه بنفسه وجسمه في آن واحد. ومهما يكن من بروز أحد الجانبين في لحظة من اللحظات، فالاتصال بينهما قائم في كل لحظة، والعمل مرتكز على كليهما في ذات الوقت.

أدخل الأمور في الناحية النفسية: النشوة التي أحسها بين جنبي وأنا جالس لا أتحرك، يصحبها تغير في إفرازات الجسم ينتج عنه نشاط جثماني غير مقصود. حتى ليهم الإنسان أحيانا بالنط والقفز ليعبر عن "شعور" حي متوفز.

وأدخل الأمور في الناحية الجسمية: تناول الطعام، يصحبه سرور بمذاق الطعام وارتياح نفسي له ينتج عنه الرضا والانبساط.

وكثير من الحالات الأخرى تقع بين بين، ويبدو فيها الازدواج بشكل ملحوظ.

* * *

وندع للعلم أن يبحث بكل وسائل عن طريقة التفاعل الخفية بين النفس والجسم..

ولكنا نطمئن إلى هذه الحقيقة التي يرسمها السلم الخشبي ذو القائمتين.

ونبحث في النظم والعقائد التي تعامل "الإنسان"، فنجد الإسلام من بينها أكثر النظم إدراكا لهذه الحقيقة، وتمشيا معها في واقع الحياة.

إنه يأخذ الإنسان ككل: عقله وجسمه ونفسه وروحه. نشاطه الجسمي ونشاطه النفسي والروحي كلاهما داخل في الحساب. مطالب جسده ومطالب روحه جزآن من النظام متكاملان لا متعارضان..

وبينما ترتكز بعض العقائد على ركيزة واحدة، ركيزة الروح، وتجنح بعض النظم إلى العناية الفائقة بمطالب الجسد وإهمال مطالب الروح، وتحاول كلتاهما أن تقف على إحدى القائمتين دون الأخرى فتتزلزل وتقع، أو تعجز عن الوقوف الطويل، نجد الإسلام يعمل على أساس وحدة الجسم والنفس، حتى ليجعل العبادة عملا والعمل عبادة! ولا يفصل بين الماديات والروحيات، ولا بين الأرض والسماء. كله وحدة مترابطة الأجزاء.

العبادة الإسلامية ليست سبحات روحية خالصة ولا تهويما صامتا في الملكوت. بل هي "حركات" جسمية في ذات الوقت الذي تتحرك فيه النفس من الداخل بشتى الانفعالات والوجدانات والصلاة الإسلامية أبرز الأمثلة لما نقول[1].

والعمل في ظل العقيدة الإسلامية يعتبر عبادة ما دام الإنسان يتوجه به إلى الله ولا يسعى به إلى ضرر مخلوق من خلق الله.

والقرآن تشريع وتهذيب في وقت واحد. تنظيم لحياة الأرض وربط لها بحياة السماء.

والدنيا والآخرة ليستا منفصلتين.

وضرورات الجسد وأشواق الروح غير متنافرتين.

حتى نشوة الجسد الخالصة في العمل الجنسي يتوجه بها الإنسان إلى الله إذ يقرأ عليها اسمه الكريم فإذا هي عبادة وإذا له عليها أجر!

---

[1] – اقرأ بعد ذلك فصل "العبادات الإسلامية".

والتشريع القائم على وجدان التقوى ومشاعر الخوف من الله تشريع يقوم في الوقت ذاته على القوة المادية اللازمة للتنفيذ. وهو ينظم مسائل الغذاء والكساء والجنس والتعايش السلمي بين البشر، في ذات الوقت الذي ينظم ارتباطاتهم الوجدانية بالمحبة في الله.

وهو لذلك أشمل النظم وأعمقها وأقواها. لأنه يتمشى مع الفطرة البشرية. ويدرك حقيقة الترابط بين الجسم والنفس في كيان الإنسان.

ولكنا في حاجة إلى تفهمه وتدبره لنرتكز على كلتا الركيزتين. ولو أدركنا حقيقة الكيان الإنساني لاهتدينا لتونا إلى حقيقة الإسلام!

الطاقة البشرية المحايدة
بين الخير والشر

قرأت لفرويد كلمة أعجبتني. فهو لا يزال يبدئ ويعيد في كل كتبه أن الطاقة البشرية جنسية في طبيعتها. ويصل في ذلك إلى حد الافتعال والسخف. ولكنه مرة واحدة في أحد كتبه قال إن النفس البشرية تشتمل بجانب ذلك على طاقة "محايدة" لا لون لها، ولكن المشاعر القوية في النفس تستخدم هذه الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها.

هنا كان فرويد معقولا على غير عادته!

وسرحت بفكري أتدبر هذا القول من وجهة نظري الخاصة.

وتركت فرويد وفلسفته الجنسية. ورحت أبحث المسألة من ناحية الخير والشر. الخير والشر بأي مقياس من مقاييس السماء أو مقاييس الأرض..

وخطرت لي خواطر عجيبة.. إن الطاقة النفسية كلها.. فيما عدا خطوطا قليلة جدا.. محايدة بين الخير والشر. لا لون لها في ذاتها. ولكن التوجيه الذي يقع لها هو الذي يحولها إلى طاقة خيرة أو طاقة شريرة.

هذا تيار من الماء نستطيع أن تحوله لري الأرض واستنبات النبات أو تستطيع أن تغرق به الأرض وتقتل الحياة. هو في الحالة الأولى خير. وفي الحالة الثانية شر. ولكنه هو الماء ذاته في الحالتين. لم تتغير طبيعته. ولكن تغيرت وظيفته.

وهذا تيار من الكهرباء تستطيع أن تضيء به المصابيح هدى ونورا للناس، وتستطيع أن تصعق به الأحياء. هو في إحدى حالتيه خير وفي الثانية شر. ولكنه هو هو تيار الكهرباء لم يطرأ عليه تغيير.

وكذلك الطاقة النفسية. طاقة محايدة. تصلح أن تستخدمها للخير كما تصلح هي ذاتها أن تستخدمها في الشر. لا تتغير طبيعتها في الحالتين وإنما يتغير التوجيه.

خذ طاقة الجنس. أشر هي في ذاتها أم خير؟

لا شيء من ذلك. إنها طاقة ميكانيكية جسمية توازيها طاقة نفسية تتحرك معها في نفس الاتجاه. وليس الخير أو الشر كامنا في طبيعتها. ولكنك توجهها أنى شئت. توجهها

لإحداث النسل، في الطريق التي تتمشى مع أهداف الحياة وتحققها في نطافة فإذا هي خير. خير لا يستحي المسلم أن يقرأ عليه اسم الله الكريم. وتوجهها لهدف منقطع عن هدف الحياة، ناشز منحرف، فإذا هي شر. شر تنبغي محاربته وإعلان الحرب عليه.

وخذ طاقة القتال. إن الإنسان السوي مشتمل على هذه الطاقة كجزء من بنيته. ولكن شر هي أم خير؟

لا هذا ولا ذاك. إنها مجرد قدرة على الصراع، قدرة ميكانيكية جسمية توازيها قدرة نفسية في ذات الاتجاه. وهي ليست في ذاتها خيرا أو شرا. ولكنك تستخدمها لإقامة الحق والعدل ودفع الظلم والعدوان فهي خير. وتستخدمها في الظلم والعدوان فهي شر واضح مبين.

وشبيه بالطاقة النفسية الطاقة الفكرية والروحية.

فالقدرة على التفكير طاقة محايدة. ولكنك تستخدمها للنفع العام فهي خيرة، وتستخدمها للإيذاء وإيقاع الضرر فهي شريرة. ولكنها هي في ذاتها من حيث هي نشاط بشري لم تتغير في الحالتين.

وكذلك الطاقة الروحية. وقد غلب على الناس أن يتصوروا الطاقة الروحية مقرونة بالخير والنقاء والسمو، ولكنها –ككل طاقة بشرية– محايدة في ذاتها وصالحة لكلا التوجيهين. إنها –كالذكاء، وككل الطاقات الأخرى– موهبة توهب للناس على درجات متفاوتة. فهي عند بعضهم ضعيفة بحيث لا تكاد تظهر، وعند آخرين قوية واضحة الآثار. والشخص ذو الموهبة الروحية الخارقة يستطيع أن يوجهها إلى الخير أو الشر سواء. وقصة راسبوتين ساحر روسيا معروفة في التاريخ. إنها طاقة روحية جبارة وجهت وجهة الشر والأذى والإيقاع بالناس. وقصص الأنبياء والقديسين معروفة كذلك في التاريخ. طاقة روحية خارقة وجهت وجهة الخير. وليس الناس كلهم أنبياء وقديسين، وليسوا كلهم راسبوتين. ولكن الواقع المشهود يعرف درجات مختلفة من الطاقة الروحية تستخدم للخير وللشر سواء.

* * *

هناك إذن نتيجة نستطيع أن نطمئن إليها: هي أن الطاقة للبشرية –في معظمها– طاقة محايدة تصلح للخير والشر بحسب ما تتلقاه من توجيه. ونقول في معظمها احتياطا فقط،

وإن كنت كلما أمعنت في التفكير لا أجد شيئا له في ذاته لون ثابت متميز بحيث لا يقبل التلوين[1].

ومن هنا تنشأ القيمة الخطيرة للتربية والتوجيه. إنها قيمة بالغة الخطورة. لأنه يتوقف عليها اللون الذي تأخذه هذه الطاقة المحايدة الصالحة لمختلف الألوان.

في الحيوان تأخذ الطاقة لونا واحدا لا تكاد تغيره. لونا يهدف إلى التحقيق المباشر لمطالب الحيوان. ومن هنا لا يوصف تصرفه بأنه خيّر أو شرير. لأن هذه التفرقة لا توجد إلا حيث توجد الألوان المتميزة، وتوجد القدرة على اتخاذ مختلف الألأوان.

والإنسان –وحده فيما نعرف من المخلوقات– هو المخلوق المتعدد الألوان، القابل للتلوين.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا..).

نعم. "النفس" البشرية وحدها هي التي تعرف الفجور والتقوى. تعرف النقيضين وتقدر على النقيضين. ومن هنا توصف أعمال الإنسان بأنها خير أو شر، ويعاقب أو يثاب.

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا..)[2].

---

[1] – انظر كتاب "منهج التربية الإسلامية" وكتاب "دراسات في النفس الإنسانية".

[2] – العقوبة قائمة على أساس قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر. والمسئولية الكاملة عن أي جريمة ترتكب، هي في الواقع مسئولية موزعة بين الفاعل الأصلي للجرم، وأبويه اللذين نشآه، وأهله وأصدقائه (البيئة بصفة عامة) والحاكم الذي يشرف على سياسة الدولة. وهم يتقاسمونها بينهم بنسب مختلفة. ولكن نصيب فاعل الجرم لا يكون صفرا إلا في حالة الاضطرار الكامل: **(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)**. أو إذا كان مصابا بعيب وظيفي في القدرة على التفكير، وعندئذ تسقط عنه المسئولية. أما الاتجاهات الحديثة التي تخلي المجرم من المسئولية إخلاء كاملا باعتباره ضحية الأوضاع الفاسدة في المجتمع، أو ضحية التوجيه الفاسد، فهي تسقط من حسابها قدرة الفرد الفطرية على التميز، وقدرته الفطرية على ضبط تصرفاته، وتعتبره مخلوقا سلبيا خالصا. وهذا ليس حقيقة علمية. فالطفل الصغير يتمكن –ولو لم يمرنه أحد– من ضبط إفرازاته بعد فترة من مولده، مما يدل على أن مقدرة الضبط فطرية، وكذلك القدرة على ضبط الانفعالات والتصرفات. وليس ينكر أحد المسئولية العظيمة التي تقع

وقد وجد في القرن العشرين ناس يريدون أن يردوا الإنسان حيوانا لا توصف أعماله بالخير أو الشر. ناس يغفلون قدرة الإنسان على التلون، ويجعلون من طبيعته المزدوجة طبيعة مفردة الاتجاه.

ناس من أولئك يوجدن في أمريكا يقولون لك: ما دخل المسألة الجنسية بالأخلاق؟ إنها عملية "بيولوجية" ليست لها صفة خلقية.. تماما كالحيوان!

وناس شبيهون بهم من أنصار التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ يقولون لك: إن الاستعمار ليس مسألة خلقية، ولا تدخل فيه الاعتبارات الإنسانية. لا يقال إنه ظالم أو غير ظالم. إنه حركة طبيعية كأكل القطة للفأر. عملية لا بد أن تحدث، ولا يقال عنها إنها خير أو شر!

وهؤلاء هم خلاصة المدنية الحديثة! خلاصتها أن ترد الإنسان حيوانا ذا لون واحد وطبيعة واحدة. بينما المعجزة الكبرى في خلق الإنسان هي طبيعته المزدوجة اللون والاتجاه.

* * *

والتربية كما قلنا هي أخطر مهام الإنسانية. هي التي يتوقف عليها أن نصبح آدميين أو نرقد حيوانات. هي التي تجعلنا نزكي أنفسنا أو ندسيها.. فنفلح أو نخيب.

وقد أدرك الإنسان منذ فجر حياته قيمة التربية فوضع لها قواعد وأهدافا تتناسب مع درجة وعيه لنفسه وإدراكه لحقيقة رسالته في الأرض. وما تزال التربية موضع العناية من الشعوب كلها وإن اختلفت قواعدها وأهدافها بين الخطأ والصواب.

والتربية الغربية الحديثة –على براعتها الفائقة ودقتها المتناهية– هي أخطر ما عرفته البشرية في تاريخها. وأقربها إلى إفساد الإنسانية، ما لم يصح الغرب إلى أخطائه ويرتد إلى الصواب.

على المجتمع والبيئة، والقيمة الخطيرة للتربية والتوجيه. ولكن ذلك كما قلنا ليس معناه إلغاء المسئولية عن فاعل الجريمة في كل حالة. ولعل من المناسب هنا أن نذكر الحادثة التي سرق فيها بعض الغلمان ناقة على عهد عمر، فلم يقم عليهم الحد، بل وقع العقوبة على صاحبهم وقال له: "والله لولا أني أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو سرق ما حرم الله عليه لحل له.. لقطعت أيديهم. فإذ لم أفعل ذلك فلأغرمنك غرامة توجعك". فهنا اضطرار واضح أسقط المسئولية عن الفاعل. ولكن علم النفس التحليلي الحديث يبالغ مبالغة معيبة في تصوير الدوافع القهرية للجريمة.

ذلك أنها –فيما تزعم– تعتمد على أبحاث العلم التجريبي.

والعلم التجريبي مظلوم في هذا الزعم. فهو –ككل الطاقات البشرية– عنصر محايد. يصلح أن يوجه للخير كما يوجه للشر!

وقد فتن العلماء أن يبحثوا الإنسان "على طبيعته". أي بغير توجيه معين. والإنسان على طبيعته أقرب إلى الهبوط والانحراف إلى الشر.

ولا يتعارض ذلك مع ما قلناه من قبل من أن الطاقة البشرية محايدة في ذاتها، ليس لها لون متميز..

ونرجع إلى قولة فرويد: إن النفس البشرية تشتمل على طاقة محايدة. ولكن المشاعر الأقوى في النفس تستخدمها وتسخرها لأغراضها.

فالطفل يولد وله طاقات محايدة لا لون لها ولا اتجاه..[1] .

ثم يحس بالجوع –مثلا– فيوجه طاقاته للبحث عن الثدي، ثم إلى عملية الرضاعة.

ويحس بالحاجة إلى إخراج فضلاته فيوجه بعض طاقاته لإخراجها.

ويحس بالخوف فيوجه بعض طاقاته للاحتماء في صدر أمه.

ويحس بالحاجة إلى "المجتمع" فيوجه بعض طاقاته للاتصال بالآخرين.

ورويدا رويدا تتلون الطاقة حسبما تسخرها حاجات الطفل.

أي أنه في هذه الفترة محكوم بضروراته، وطاقاته خاضعة لهذه الضرورات. فهو في ذلك أشبه بالحيوان.

[1] – هذا لا ينفي أثر الوراثة. فكما أن بعض الأطفال يرثون ضعف البنية أو قوتها، وضعف الذكاء أو قوته، فلا شك أنهم يرثون كذلك ضعف القدرة على ضبط النفس أو قوتها. ولكن هذا لا يلغي أثر التربية، بل إنه يضاعف مهمتها في مثل هذه الحالة لتقويم الانحراف أو تخفيفه. والتجربة العملية تثبت أن التوجيه الصحيح للطفل المنحرف أو ذي الاستعداد الوراثي للانحراف يفيد أكبر الفائدة في تقويمه.

ولكن كيانه ينمو بعد ذلك ولا يقف عند هذا الحد الحيواني. ففي بنيته مقدرات أخرى، وأشواق أعلى من الضرورات. هذه الأشواق تتأخر في الظهور، ولكنها طور طبيعي من أطوار الإنسان، كعملية الإزهار في النبات. تأتي متأخرة ولكنها طبيعية.

وهذه الأشواق العليا تستطيع أن تستخدم الطاقة المحايدة وتسخرها لأغراضها كما تصنع الضرورات. ولكنها في حاجة إلى معاونة من الخارج، معاونة فعالة لإنضاجها وتوجيهها الوجهة الصحيحة. وإلا انحرفت أو تأخرت في الظهور.

وكونها في حاجة إلى المعاونة الخارجية ليس معناه أنها مفتعلة، أو مفروضة من الخارج، أو غير طبيعية كما يزعم فرويد ومن ذهب مذهبه. كلا! فالطفل يحتاج —لكي يمشي— إلى معاونة خارجية تسنده حتى يستطيع أن ينظم خطواته ويضبطها. وإذا لم تعاونه فربما نشأ كسيحاً أو تأخر مشيه عن موعده. والمشي مع ذلك قدرة طبيعية يولد بها الطفل، وليست تفرض عليه من خارج كيانه.

وكذلك الأشواق العليا التي تخرج بالإنسان من صالحه الخاص إلى صالح غيره، وتجنح به إلى المعايشة السلمية القائمة على الحب المتبادل والتعاون بين الجميع. هي جزء من الفطرة البشرية كالأشواق الذاتية الأنانية سواء بسواء. ولكنها —كتعليم المشي— تحتاج إلى معاونة خارجية.

وتلك هي مهمة التربية.

فإذا أخذنا الإنسان "على طبيعته" بمعنى دراسته دون توجيه ولا تهذيب، فإننا بذلك نغفل من حسابنا الجانب الآخر من طبيعته، الجانب الموجود في حالة كامنة، والذي يحتاج إلى التوجيه لكي يظهر للعيان[1].

وإذا وضعنا قواعد التربية على هذا الأساس —الذي نزعم خطأ أنه الأساس الطبيعي— فمعنى ذلك أننا نترك الإنسان محكوما بضروراته إلى الأبد، ونترك الطاقة المحايدة تتلون بهذا

---

[1] – لا بأس أن تتخصص بعض الدراسات النفسية في دراسة الطفل كما هو بدون توجيه، على أن يكون مفهوما منذ البدء أنها دراسة ناقصة، لا تصلح للتطبيق العملي، وإنما كل مهمتها أن تتعرف على الطاقة الحيوية في صورتها "البرية" للاستفادة من ذلك عند وضع القواعد الصالحة للتهذيب. أما أن يتصور علم النفس أن الطفل في هذه الصورة هو الطفل الطبيعي، أو أن هذه الصورة هي التي ينبغي أن يكون عليها الطفل، فهذا هو الخطأ والخطر الذي تنذر به بعض الدراسات النفسية المعاصرة.

اللون فتصبح بعد حين طاقة شريرة، شريرة لا لأن ضرورات الإنسان في ذاتها شريرة، ولكن لأن غياب العنصر الآخر الذي يعادلها يجعلها تتطرف في اتجاه واحد. وذلك ما نسميه بالشر لأنه –كما ثبت من التجربة– يعود بالضرر على الفرد وعلى الجماعة.

فطاقة التملك –وهي طاقة في ذاتها محايدة– لو تركت للضرورات وحدها تحكمها، تتخذ بعد حين لون السرقة والغصب والاحتيال والنصب.. والغرب لا يتركها لحكم الضرورات، بل يهذبها تهذيبا فائقا يصل إلى حد معجب. وذلك باستخدام الأشواق العليا التي توازن هذه الطاقة وتمنع انحرافها.

وطاقة القتال –وهي كذلك طاقة محايدة– لو تركت للضرورات وحدها تحكمها، تتخذ بعد حين لون العدوان. والغرب لا يتركها كذلك، بل يبالغ في تهذيبها بإطلاق الأشواق العليا التي توازنها وتقف دون ضراوتها.

ولكنها المشكلة الجنسية هي التي ينحرف فيها الغرب أعظم انحراف. ولست أدري لم يخصها وحدها بأنها مسألة بيولوجية لا تخضع لحكم الأخلاق. بينما الطعام أيضا مسألة بيولوجية، وكان يمكن –على نفس الأساس– أن تباح فيه الفوضى فيأكل كل الناس من حيث شاء لهم مزاجهم بلا ضوابط ولا حدود!

كما أن عيب الغرب الأكبر أنه لا يجعل تهذيبه على أساس إنساني ولكن على أساس قومي. ومن هنا يعيش القوم داخل وطنهم على خير ما يكون، فإذا برز قوم لقوم تصارعوا كالوحوش الضارية بصرف النظر عن الظالم والمظلوم.

* * *

والإسلام قد أدرك الطبيعة البشرية المحايدة الطاقة المزدوجة الاتجاه:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا).

وأوجبت تزكيتها. أي تربيتها وتهذيبها. وجعل ذلك أمانة في عنق الوالدين وأولياء الأمور.

وجعل هذه التزكية على أساس إنساني بحت لا يعرف فوارق الوطن ولا اللغة ولا الجنس ولا حتى العقيدة.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...) (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...).

وجعل أساس هذه التزكية هو التهذيب لا الكبت.

فهو لا يحب أن يمحق طاقة حيوية أو يعطلها عن عملها. لأنه يعرف أن كل طاقة حيوية يشتمل عليها الإنسان هي جزء من كيانه ضروري له في حياته. وتعطيله أو كبته معناه إهدار هذه الطاقة وتضييع الفائدة المرجوة منها.

ولكنه كذلك لا يترك الإنسان "على طبيعته" بالمعنى الخاطئ من هذا التعبير، الذي يزعم أن ضرورات الجسد هي الطبيعة الوحيدة للإنسان. بل يتركه "على طبيعتيه". فيعطي ضرورات جسده نصيبها المعقول: "**إن لبدنك عليك حقا**" ويعطي أشواقه العليا نصيبها المعقول: "**أحب لأخيك ما تحب لنفسك**" ويوازن بين هذه وتلك **(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا)**.

والإنسان بعد من أعظم معجزات الخلق: لا هو بالملاك ولا بالشيطان. ولكنه مشتمل على الخير والشر، وقادر في لحظات الارتفاع أن يصبح كالملائكة، وقادر في لحظات الهبوط أن يصبح كالشياطين.

العبادات الإسلامية

هناك مزية بارزة في العبادات الإسلامية: أنها كلها تمزج بين الدنيا والآخرة، وتصل بين الأرض والسماء.

ليس من بينها "عبادة خالصة" منقطعة الصلة عن عالم الأرض. وإنما كلها تشتمل على جانب "تعبدي" موجه للسماء مقصود به الآخرة؛ وتشتمل في الوقت ذاته على جانب عملي، موجه لواقع الأرض، مقصود به الحياة الدنيا، وتنظيمها وإقامتها على أسس مكينة من النظافة والعدالة والصلاح والاستقرار.

والمزية العظمى —كما ذكرنا– هي مزج هذه وتلك، بحيث يصبح الشيء الواحد عملا وعبادة في ذات الوقت، وتصبح الدنيا والآخرة متصلتين متحدتين في الفكر والضمير، ويصبح الكائن البشري يمشي بجسمه على الأرض وروحه متطلعة إلى السماء.

* * *

كل العبادات الإسلامية ينطبق عليها هذا الوصف حتى التي تبدو لأول وهلها أنها مجرد صلة بين العبد والرب، أو عمل يعمل في الدنيا لغير شيء إلا رجاء الثواب في الآخرة.. حتى هذه لا تغفل الحياة الدنيا، ولا تنفصل نتائجها العملية عن عالم الناس.

خذ العبادات واحدة واحدة...

شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

لعل الشق الأول من الشهادة يبدو من أبرز الأمثلة على "العبادات الخالصة" التي تنشئ صلة مجردة بين العبد والرب. فهي الإقرار لله بالألوهية المطلقة، والإقرار بالعبودية الكاملة لله. ولا شيء غير ذلك!

كلا: إنها ليست ذلك فحسب.

إن الإقرار بالعبودية لله وحده، والإقرار بالألوهية لله وحده، معناه نفي الألوهية عن كل ما عدا الله. ونفي العبودية لأحل غير الله. معناه عدم الخضوع لأحد —كائنا من كان– إلا الله. معناه أن السلطة الحقيقية التي ينبغي أن تعبد وتطاع هي سلطة الله، ولا سلطة لأحد إطلاقا غير الله.

معناه أن الله وحده هو القوة المدبرة لهذا الكون كله. وأنه لا تدبير لبشر في صغيرة ولا كبيرة إلا أن يشاء الله. ومن ثم تتجه القلوب كلها إلى الله، ولا تطلب العون من أحد سواه.

معناه أن قوى الأرض كلها ينبغي أن تتجه في أعمالها وأقوالها إلى الله، تهتدي بهديه وتسترشد بنوره.

ومن ثم لا تصبح مجرد ألفاظ.. ولا تكون مجرد صلة بين العبد والرب. وإنما هي واقع أرضي عظيم الخطر كبير الشأن. واقع أرضي تقوم عليه "السياسة" الأرضية كلها بأوسع مدلولها: سياسة الحكم والمال والقضاء والإدارة.. وكل تنظيمات الأرض، والعلاقات التي تقوم بين طوائف المجتمع المختلفة، المتضاربة المصالح والحقوق والواجبات.

أما الشق الآخر من الشهادة فواضح الدلالة على المصدر الذي نستقي منه، ونفسر به كلام الله. فالرسول —صلى الله عليه وسلم– هو الترجمة العملية الكاملة الواضحة للفكرة الإسلامية كما وضعها الله. ومن ثم فهو القدوة التي يقتدى بها، والمثل الذي ينظر إليه.

إن المسلمين لا ينبغي لهم أن يولوا وجوههم قبل المشرق والمغرب يبحثون عن القدوة والمثال. فأمامهم المثال الكامل عبد الله ورسوله الذي اصطفاه ليكون معلم البشرية وهاديها إلى النور. وهذا المثال لو تدبروه لوجدوا فيه كل جوانب حياتهم الدنيوية والأخروية. محمد الإنسان. محمد الزوج. محمد الأب. محمد الحاكم. محمد القاضي. محمد القائد. محمد المجاهد. محمد المتعبد. محمد الروحانية الصافية والواقعية الكاملة في مزاج واحد وطبيعة واحدة.. محمد الذي شمل اتجاهات البشرية النظيفة كلها، وشمل من كل منها قدراً يكفي وحده ليملأ حياة إنسان!

ذلك هو المثال الذي ينبغي أن يحتذي بقدر ما تطيق قدرة البشر، وبقدر ما يستطيع كل إنسان أن يستوعب من جوانب نفسه العميقة الشاملة الصافية. وذلك هو المقياس الذي يقيس كل إنسان حياته عليه، ليعرف إلى أي مدى هو مخطئ، وإلى أي مدى هو على صواب.

فليست هي إذن مجرد ألفاظ يلفظ بها لسانه، ولا مجرد "وجد" يشعر به الإنسان لذكر محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما هو التوجيه العملي نحو القدوة الكاملة، وما يتبع ذلك من

تأثير في حياة الفرد والجماعة في علاقتهم بعضهم ببعض، وفي الأسس كلها التي تقوم عليها الحياة[1].

* * *

والصلاة.. قد تبدوا كذلك لأول وهلة عبادة خالصة.

ولكنها ليست كذلك في واقع الحياة الإسلامية. إن أثرها الدنيوي ملحوظ حتى وهي عبادة فردية يقوم بها الإنسان في خلوته، فما بالك وهي صلاة جماعة، يلتقي فيها الناس على نظام معين، وتتحد أجسامهم وقلوبهم في قبلة واحدة؟

والصلاة الإسلامية تستحق أن تفرد لها كلمة ينوه فيها بمدلولها الخاص الذي لا تجده في أنواع الصلاة الأخرى.

إن الصلاة في كل عبادة هي عنوانها وترجمانها، وهي "ملخصها" الذي يدل على مبادئها واتجاهاتها.

فبينما نجد الصلاة في بعض العقائد التي تجنح إلى الروحانية الخالصة، أنغاما موسيقية ساجية، وترتيلا مبهما، وغناء مؤثرا، مع السكون الشامل يشمل المصلين فلا تتحرك أجسامهم ولا عقولهم، وإنما تسبح أرواحهم في الملكوت وهم قعود..

وبينما نجدها في بعض العقائد الوثنية ذات المعبودات الحسية القريبة حركات جسمية عنيفة، وطبولا مدوية وصرخات مجنونة...

نجد الصلاة الإسلامية عنوانا للفكرة الإسلامية، التي تشمل الكيان البشري كله في آن واحد: جسمه وعقله وروحه، تعطي كل منها نصيبه، وتوازن بين شتى الاتجاهات.

نصيب الجسد في الصلاة هو الحركة التي يقوم بها من قيام وركوع وسجود وتحرك وسكون.

ونصيب العقل هو التفكر فيما يتلوه المصلي من الأدعية والآيات. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "**ليس لك من صلاتك إلا ما وعيت**".

[1] – انظر كتاب "قبسات من الرسول".

ونصيب الروح هو الخشوع والتقوى والتطلع إلى الله والاتصال بنوره الشفيف.

وكل ذلك في آن.

ليس هناك حركة هي جسم فقط. أو عقل فقط. أو روح فقط..

وإنما هي الجسم والعقل والروح في كيان واحد متكامل ممتزج الأجزاء[1].

والصلاة تَوجُّه إلى الله بالدعاء. ذلك أمر واضح لا يحتاج إلى بيان. ولكن هذا التوجه له أثره العملي في حياة الفرد، حين يؤدي الصلاة على حقيقتها، ولا يؤديها مجرد حركات وكلمات..

ولقد جربت اللحظات التي أصلي فيها بكامل نفسي، وخاصة صلاة العشاء.

كم مرة ملأ نفسي الظلام والإجهاد.. كم مرة يئست من حياتي وأحسست بتفاهتها وضآلتها وقلة جدواها.. كم مرة أحسست أن الحمل الذي أحمله أثقل من أن أقدر على حمله.. كما مرة أحسست أنني لا أستطيع.. لا أستطيع أن أستمر في هذا الجهد المرهق بلا نتيجة، والساقية الدائرة بلا انقطاع. كم مرة أحسست أن آخر طاقتي هي الليلة.. وأنه لا شيء قد بقي للغد.. لا زاد ولا طاقة ولا قدرة على الصراع...

ثم أصلي..

أهو سحر؟! أهو وهم وخداع؟

هذه اليد الرفيقة الحانية التي تمتد في خفة ورفق، فتمسح على صدري فيطمئن. وتمسح على آلامي فليس لها وجود..

أهي وهم؟

كلا! بل إنها حقيقة. إنها يد الله. إنها يد القوة العظمى الحانية في جبروتها وعليائها، تمسح أوضار نفسي وتنقي أدرانها، وتمنحني الزاد والقوة والطمأنينة.

[1] – الفكرة مأخوذة من حديث لسيد قطب في إحدى محاضراته.

إنها يد الله. الله الذي كنت أصلي له. والذي استطاعت روحي في لحظة صفاء خاطفة أن تتصل به، فتشرق في نوره، وتتعلق برحمته.

الله يمدني بالقوة والعون.. ويخلقني من جديد.

هل هذه مجرد عبادة للآخرة؟

أو ليست تمنحني النشاط للحياة من جديد، فأؤدي عملي، وأبذل جهدي، وأحتمل قسوة الصراع؟

أو ليست زادا واقعيا لحياة الأرض، من حيث هي زاد علوي لحياة الآخرة؟

ذلك وهي عبادة في خلوة..

أما صلاة الجماعة فدلالتها واضحة في جميع شتات الناس، وربطهم برباط المحبة والتعاون حين ترتبط قلوبهم بالله في الصلاة. فضلا عن المعنى العسكري الملحوظ في تنظيم الصفوف واتباع القائد، وكل المشاعر الأخرى التي ينشئها الإحساس باتحاد الوجهة واتحاد الشعار واتحاد الحركات والسكنات.

* * *

والزكاة على العكس.. يبدو الجانب الأرضي التنظيمي فيها واضحا حتى ليغري بالظن أنه هو كل المقصود من هذه الفريضة التي تأخذ من القادرين لتعطي غير القادرين، وتشعر الجميع أنهم شركاء في ثمرة الجهد البشري كل بحسب حاجته، حتى ولو لم يتساووا في الجهد والقدرة على الإنتاج.

نعم إن الجانب الاجتماعي الاقتصادي واضح جدا في هذه الفريضة. فهي أول ضريبة نظامية في تاريخ الناس. كانت الضرائب قبل ذلك بلا نظام ولا قاعدة، ولا ميزان لها إلا ميل الحاكم ومدى تعطشه للمال. فجاءت الزكاة فنظمت الضريبة المفروضة على الناس، وحددت أهدافها. فهي ليست لمنفعة الحاكم ولا لإثراء أهل بيته من دماء الناس، وإنما هي لكفالة المحتاجين إلى كفالة الدولة من الضعفاء والعاجزين.

ولكنها ككل العبادات الإسلامية ليست للدنيا وحدها ولا للآخرة وحدها. وإنما هي مزيج من هذه وتلك. ويكفي أن تكون التنظيمات الاقتصادية "عبادة" لتدل على هذه المزية

التي تمتاز بها الفكرة الإسلامي. فالضرائب في كل نظم الأرض فريضة تفرضها الدولة، لأهداف اجتماعية واقتصادية. أي أنها علاقة أرضية بحتة؛ والدولة تقوم بجمعها بقوة القانون وقوة السلطان، والناس يتهربون منها، إلا أن تضيق الدولة عليهم الخناق بتنظيماتها وأدواتها التنفيذية فيرون أن دفعها هو الأسلم والأجدى فلا يقاومون..

ولكنها في الإسلام ليست كذلك.

فكونها عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله لم يجعلها فريضة ثقيلة على النفس، يتهرب منها دافعها، بل جعلها أمراً يسابق الناس إلى أدائه ليرضى الله عنهم، ويمنحهم البركة في أموالهم وأحوالهم؛ وجعل في ضميرهم حساسية تجاهها بحيث يتحرج المسلم من أن يطعم طعاما أو ينفق على نفسه وأهله مالاً لم يدفع زكاته. وكذلك كان الناس في صدر الإسلام حين كانوا مسلمين. بل كذلك ظلوا إلى عهد قريب حتى بطلت الزكاة باستخدام القانون الفرنسي بدلا من الشريعة الإسلامية. وقد بدأت الموجة الإسلامية الجديدة تحفز الناس من جديد إلى دفع الزكاة.

وبذلك يتم التنظيم الأرضي والشعور الوجداني في عمل واحد، غير متميز هذا عن ذاك.

* * *

والصوم فريضة تعبدية خالصة في ظاهرها.

إنه حرمان النفس من شهواتها، وحرمان الجسد من غذائه وشرابه ابتغاء مرضاة الله.

ولكنه لم يفرض لصالح الفرد في الحياة الآخرة وحدها، وإنما فرض لصلاح أمره في الحياة الدنيا كذلك.

إن الصوم في حقيقته عملية تجنيد.

وكما تحتاج الأمم كلها لتجنيد أبنائها وتدريبهم على احتمال الجهد والمشقة توقعا للاحتياج إليهم يوم الصراع.. فكذلك فرض الإسلام هذا التجنيد، ولكنه على نطاق أوسع، يشمل الروح والجسد في وقت واحد، ويشمل الصغار والكبار. والرجال والنساء.. لأنه تدريب لهم على الصراع الأكبر.. الصراع الدائم.. صراع الحياة، التي يمارسها الجميع وتقع تبعاتها على الجميع.

الحياة كلها صراع. وليست الحرب وحدها هي الصراع الذي يحتاج إلى التدريب وتحمل المشاق.

وأبسط ألوان هذا الصراع أن الحياة لا تعطي أحدا كل أمنياته، مهما بدا مستمتعا بطيبات الحياة. فالنفس البشرية خلقت هكذا واسعة المطامع والأحلام، لا تقنع بما تجد، وتسعى دائما إلى جديد، ليكون هذا حافزا من حوافز النشاط الدائم على الأرض. وباعثا على التعمير والنماء.

ولكن هذه الخصلة التي ركبت في طبيعة البشر لمنفعتهم وصالحهم تنقلب شرا وشقاء إذا لم تعرف كيف تقف عند حد، وكيف تقنع أحيانا بالموجود لأنه لا مطمع في غير الموجود.

وذلك أمر يحتاج إلى تدريب.

وخير تدريب هو الامتناع الاختياري عن بعض الشهوات وبعض الضرورات فترة من الوقت. فهذا هو الذي يعطي النفس القدرة على تحمل الامتناع الإجباري عن تلك الشهوات والضرورات حين تحكم بذلك ظروف الحياة.

فكما أنك تكسب عضلات جسمك القوة المطوبة بتدريبها على تمرينات مماثلة لما يمكن أن تقوم به وقت الحاجة العملية من ثني ومد ورفع ووخفض، ومصارعة وملاكمة.. إلخ، فكذلك تكسب عضلات نفسك القوة المطلوبة بتدريبها على مثل ما قد يتطلب الأمر القيام به وقت الضرورة من امتناع عن طيبات الحياة.

وليس هذا هو اللون الوحيد من الصراع الذي يعرض للناس في حياتهم..

فالحياة مملوءة بالشر. والمسلم مطالب بمقاومة الشر أنى وجده. وهذه المقاومة قد تعرضه أحيانا للأذى. فكيف يمكن أن يحتمل الأذى إذا كان لا يقوى على احتمال الجوع والعطش بضع ساعات؟

وكما أن الجندي لا يؤخذ من داره إلى ميدان المعركة في يوم وليلة، وإلا حكم عليه بالفناء العاجل..

فكذلك هذا الجندي في صراع الحياة الأكبر، لا يجوز أن يواجه المعركة الدائمة بغير إعداد. والصوم إحدى وسائل الإعداد.

ولا عجب إذن أن يكون الصيام قد فرض عام فرض القتال!

ولمنفعة الفرد في الحياة الدنيا إذن قد فرض هذا الصيام، في ذات الوقت الذي يجزى عليه في الآخرة أعظم الجزاء.

وهو كرم الله السابغ الذي يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم يقوم الحساب.

* * *

والحج من العبادات التي تمتزج فيها الدنيا بالآخرة، والأرض بالسماء.

والذين يذهبون إلى الحج صافية قلوبهم لهذا الفريضة، يحكون ويحسون عجبا.

إن حالات "الوجد" التي تستجيشها في وجدانهم زيارة الأماكن المقدسة وأداء الفريضة فيها لهي حالات عجيبة نادرة المثال في واقع الحياة. حالات ترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الأرض، ومطامع الأرض، وشهوات الأرض. وتتجرد لله خالصة، تتوجه إليه أن يتقبلها في عباده ويمنحها مغفرته ورضوانه.

والشفافية التي يحسها الناس هناك، وهم يسيرون حيث سار الرسول صلوات الله وسلامه عليهم، ويصلون حيث صلى، وحيث تنزل الوحي، وحيث جاهد وصبر، وحارب وانتصر..

إنها مشاعر عميقة تهز الوجدان هزا، وتصل إلى أعماقه.. تصل إلى الكيان الخالص المصفى من الأدران، إلى الجوهر المشرق المستضيء بنور الله هنالك حيث أودعه الله ليتصل به ويلقاه...

ذلك من حيث هي عبادة.

وذلك من حيث أثرها في تطهير النفس وتخليصها من كثير من أوضارها.

ومع ذلك فقد أشار القرآن الكريم إلى "المنافع" في الحج. منافع أخرى غير إصلاح النفوس وربطها بالله والرسول. من تبادل التجارة والتعارف بين المسلمين، وقيام هذا المؤتمر السنوي الذي يتلاقون فيه بمختلف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، لينهلوا من معين واحد، ويلتقوا على قبلة واحدة.. ثم يستعرضوا مشكلاتهم ويتدارسوا أحوالهم، لينظموا شئونهم على هدى وبصيرة، واتصال في الوشائج والأفكار.

*   *   *

تلك هي العبادات الإسلامية.

ليس فيها عبادة واحدة خالصة للآخرة. ولا عمل واحد لا يعود على الإنسان بالنفع الحاضر القريب.

إن الله لم يفرض هذه العبادات من أجله سبحانه.

صحيح أنه يقول: (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**). وصحيح أن حق ألوهية الله على عبودية البشر هو العبادة الخالصة لله. ولكن الله سبحانه غني عن عبادة العبّاد وتقوى المتقين. والله يقول: (**وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**). فليس لفائدة الله سبحانه تقوم هذه العبادات، وإنما هي لصالحنا نحن أبناء البشرية، في ذات الوقت الذي هي فيه أداء لحق الله على العباد.

وهو كرم الله السابغ —كما قلنا— الذي يمنحنا من الفرائض ما يصلح به حالنا على الأرض، ثم يجزينا به الثواب والمغفرة يوم الحساب!

الفرد والمجتمع

الفرد أم المجتمع؟ أيهما الذي يواجه الحوادث ويصنع التاريخ؟

كان القدماء يعتقدون أن الفرد هو الذي يوجه الأحداث. الفرد الممتاز بطبيعة الحال. وأن المجتمع –أو الدهماء– لا دور لهم إلا الانقياد للزعيم، والسير في الطريق الذي يوجههم فيه.

وقام المحدثون يعارضون هذه النظرية في عنف، ويقولون إن المجتمع هو الذي يستطيع أكثر من غيره أن يتفهم التيارات التي تسري فيه فيتمشى معها ويعمل على إنضاجها، وأن الفرد العادي لا يقل أهمية عن الفرد الممتاز في هذا المجال.

ولم يكتف هؤلاء المحدثون بأن يفسروا التاريخ الحديث وحده هذا التفسير، –أي في الفترة التي صار فيها للفرد العادي كيان متميز– بل راحوا يزيدون أن الفرد والجماعة كليهما محكومان منذ فجر التاريخ بالتطور المادي أو التطور الاقتصادي، وأن هذا الأخير وحده هو الذي يصنع التاريخ؛ وهو يصنع التاريخ في اعتقادهم من خلال الجماعات لا من خلال الأفراد!

والواقع أن إصدار حكم واحد ينطبق على جميع الحالات أمر عسير.

والأصح والأقرب إلى العدالة في نظري أن نقول إن هناك تفاعلا دائماً بين الفرد والمجتمع في كل حركة كبيرة من حركات التاريخ؛ كلاهما يأخذ ويعطي. ولكن الدفعة الإيجابية قد تكون أبرز في أحد الجانبين منها في الآخر. فيبدوا هذا الجانب راجح الكفة، وإن كانت الكفة الأخرى لا تصل في حالة من الحالات إلى حد الخواء.

المجتمع يبرز مرة، والفرد يبرز مرة، والتفاعل موجود دائماً في جميع الحالات.

والرد على المتطرفين الذي يلغون دور الفرد الممتاز في التوجيه والقيادة، ويجعلونه قوة سالبة بالنسبة لقوة المجتمع، أو لقوة المادة والاقتصاد.. الرد البسيط على هؤلاء أن نتصور بعض أحداث التاريخ التي ارتبطت بحياة فرد، ثم نفترض أن هذا الفرد لم يوجد، أفكانت الأحداث تسير على نفس النسق وتؤدي نفس النتيجة؟ إذا كان الجواب نعم، فهذا الفرد إذن ليس له دور إيجابي في الموضوع. وإذا كان الجواب لا، فمن أين جاء الفارق، والمجتمع هو هو في الحالتين؟

خذ نابليون. فلعله من أبرز "الأفراد" الذين لعبوا دورا في التاريخ.

وتصور لحظة أنه ليس هو الذي يلعب على المسرح، وإنما هو شخص آخر ليست له أطماع نابليون، ولا تركيبه العصبي والفكري والجسدي، ولا عقده النفسية، ولا مشاعر "شعوره" ولا خفايا "لاشعوره".. هل كان يسير تاريخ فرنسا في ذات الخط الذي سار فيه صعوداً وهبوطا ونجاحا وخيبة؟

الذي يقول نعم لا شك يغالط نفسه ويغالط التاريخ.

وخذ من التاريخ الإسلامي شخصية عمر... عمر الفذ في التاريخ الإنساني كله. هل كانت الدولة الإسلامية التي صارت فيما بعد "العالم الإسلامي" تسير على نفس النسق بوجود عمر وعدم وجوده سواء؟

الذي يقول ذلك يغالط نفسه ويغالط التاريخ.

فصفات عمر الشخصية بارزة إلى حد يبهر النظر في كل أحداث تلك الفترة من تاريخ الإسلام وتاريخ العالم المعروف كله في ذلك الحين.

وخذ مثلا حادثة كعزل خالد بن الوليد.

فهذه حادثة تبرز فيها شخصية عمر على أشدها. من غيره كان يجرؤ على عزل خالد؟ ومن غيره كان يمكن أن يحدث هذا الأمر ثم يمر مأمون العاقبة لا يؤدي إلى فتنة كبرى تزلزل العالم الإسلامي كله وتهد الدولة من قواعدها؟

صحيح أن إيمان خالد، وعظمته البالغة، لهما حسابهما الكبير في الموقف، ولكن هذا لا يغير وجهة النظر التي نحن بصددها. فخالد "فرد" آخر ممتاز، وتصرفه راجع إلى شخصه، ثم إن شخصية عمر الفذة كان لها رغم كل شيء الأثر الحاسم في الموقف، فربما كان خالد رغم إيمان وعظمة نفسه قمينا أن يثور ويتمرد لو أن من عزله لم يكن عمر بالذات...

ورب قائل أن يقول إنه ليس عمر الفرد الفذ هو الذي صنع تاريخ تلك الفترة من الزمان. وإنما هي "الروح الإسلامية". وذلك حق ليس فيه شك. ولكن فضيلة عمر ومزيته "الشخصية " أنه استوعب الروح الإسلامية بكل خصائصها، واستوعبها "بقوة" تناسب قوة نفسه، وسار معه مستقيما لا ينحني ولا يضعف ولا تضطرب في يديه مقاليد الأمور.

ونظرة واحدة إلى تاريخ الإسلام بعد عمر –في فترة عثمان– ترينا أن الفارق الضخم هو فارق الشخصيتين، هو الفارق بين فرد وفرد في توجيه الحوادث وقياد الأمور.

وليس معنى ذلك أننا مع عمر –أو مع غيره من عظماء التاريخ– نلغي دور المجتمع ونجعله كمية سالبة مطلقة السلبية. فهناك دائما هذا التفاعل المشترك بين الفرد والمجتمع. فلو لو يكن المجتمع أيام عمر مسلما، متشبعا بالروح الإسلامية، مستجيبا لوحيها وأهدافها، لاستعصى على عمر –بعظمته الشخصية وحدها– أن يسير به إلى القمم العالية التي وصل إليها. ولكان قمينا أن يصرف جزءا من طاقته الجبارة في الصراع مع الناس، مع الجماهير التي لا تريد أن ترتفع، أو التي تنكل عن التكاليف. فدور المجتمع إذن واضح في مساندة عمر، وتيسير مهمته في بناء الدولة الإسلامية، وتوفير الجهد كله لهذا البناء، بدلا من توزيعه بين الهدم والبناء. كل ما هناك أن الطاقة الإيجابية المتمثلة في شخصية عمر من الضخامة بحيث تبهر العيون.

وكذلك الأمر مع أبي بكر في وقفته الخالدة من حرب المرتدين. إنه موقف فذ في التاريخ. موقف رجل واحد تتخلى عنه كل قوى الأرض. المسلمون كلهم بما فيهم عمر نفسه. فيستطيع بقوته الروحية الفذة التي تستمد قوتها من الله أن يحول دفة الموقف ويخوض الحرب التي غيرت وجه التاريخ.

إنه شخص أبي بكر القوة الفعالة في الموقف. ولكن هذا لا يلغي دور المجتمع ولا يجعله كمية سالبة. وما قلناه عن دور المجتمع مع عمر يصلح بنصه هنا مع أبي بكر.

ونهبط في مدارج الأشخاص حتى نصل إلى نابليون.

إنه دون شك هو القوة الفعالة في الفترة التي ظهر فيها على مسرح الأحداث. ولكنه –وحده– لم يكن ليفعل ما فعل من معارك وفتوحات. فلولا تطلع الشعب الفرنسي للغلبة والفتح، والطاقة المنبثقة من الثورة، لذهبت عبقرية نابليون الحربية مع الريح، لأنها تكون إذ ذاك عبقرية بلا رصيد. ورصيدها كان تلك الدفعة المتطلعة في نفوس الشعب، المستعدة للبذل والجهد وتحمل مشقات الحروب. ولو كان نابليون قد ظهر مثلا في الحرب الأخيرة، والشعب الفرنسي متميع منحل الأخلاق مشغول بشهواته وملذاته، فأغلب الظن أن عبقريته الحربية كانت ستفقد قيمتها في الصراع. وكل ما كان يمكن أن يحصل عليه هو هزيمة مشرفة بدل تلك الهزيمة المنكرة التي لوثت وجه فرنسا في تاريخها الحديث.

كذلك الأمر مع ستالين، الذي راحوا يحطمون تماثيله ويشوهون سمعته.. بعد أن مات!

إن دوره في بناء قوة روسيا دور غير منكور، دور يرجع إلى شخصيته غير العادية، وإلى أفكاره الخاصة وطريقة إدارته للأمور. وهم يقولون اليوم إنه خائن لمبادئ ماركس ولنين، ولعل مزيته في نظرنا هي هذه "الخيانة" التي عدّل بها بعض أسس الشيوعية فأخضعها لمنطق الواقع واقترب بها من التفكير المعقول. ولكن الذي يعنينا هنا أنه لم يكن قمينا أن يقوم بهذه "الخيانة" لولا تفرد شخصيته وبروزها، والطاقة الإيجابية التي تشتمل عليها، والقدرة على القيادة والتوجيه.

وقد يصعب علينا أن نرى دور "المجتمع" مع ستالين. فالذي يظهر للعين هو السلبية الكاملة من الشعب إزاء دكتاتورية ستالين المطلقة.

ومن المضحك أن تصاب النظم الجماعية، صاحبة الفكرة القائلة بأن المجتمع هو الأصل، وأن الفرد ليس له كيان مستقل ولا توجيه، ولا دور في صناعة التاريخ.. من المضحك أن تصاب هذه المجتمعات "بالزعامة الفردية" ممثلة في ستالين، ليهدم نظرياتها من أساسها، ويكذب في عالم الواقع ما تقول في عالم النظريات!

ولكن الدور الذي لعبه المجتمع الروسي موجود على أي حال. فالرغبة الجامحة في إنشاء روسيا الكبرى وجعلها قوة فعالة في توجيه الحوادث هي الحافز الإيجابي الذي استند إليه ستالين... كل ما هناك أن شخصيته هي القوة الظاهرة على مسرح الأحداث.

التفاعل إذن موجود دائما بين الفرد والمجتمع. ولكن الأمثلة التي ذكرناها كانت واضحة الدلالة على الدور البارز الذي قام به أفراد في صناعة التاريخ.

وليس الأمر واحداً في جميع الأحوال.

فهناك حركات تاريخية يبرز فيها دور المجتمع بروزاً واضحاً، كبروز الأفراد في الأمثلة السابقة.

خذ مثلا الثورة الفرنسية.. والثورة الشيوعية.

الجماهير هنا هي القوة الفعالة. القوة الدافعة. المركز الذي ينبثق منه النور أو ينتفض منه اللهيب.

وأبرز ما تبرز الجماعة في الثورة الفرنسية في عمليات التدمير والتخريب. وفي التقلبات المفاجئة في الموقف. واندفاع التيار الشعبي إلى اليمين تارة، ثم إلى اليسار تارة أخرى بنفس الحماسة ونفس القوة.

ذلك طابع الجماهير. وتلك كانت ثورة الجماهير.

وقد كان للثورة زعماء. ما ينكر أحد أنهم كانوا ذوي أثر في توجيه الثورة. ولكنهم في هذه لمرة ليسوا القوة البارزة على المسرح، إن دورهم أقرب إلى دور عامل الإشارة الذي يوجه القاطرة على الشريط، ولكن القوة الدافعة ليست في يد محول الإشارة. وإنما هي في المرجل المنطلق كالمجنون.

ولعل هذه الثورات هي التي أوحت لعلماء الاجتماع المحدثين بنظريتهم القائلة إن الجموع هي العنصر المحرك. وهي القوة الفعالة في أحداث التاريخ.

ولكن قياس التاريخ كله على بعض أجزاء منه خطأ علمي. فالواقع يشمل هذه الأمثلة وتلك. والحقيقة المشتركة هي وجود التفاعل الدائم بين الفرد والمجتمع، مع بروز أحدهما على الآخر هنا أو هناك.

* * *

وهتلر؟ ما مكانه في هذا الجدل القائم بين الفرد والمجتمع؟

لعل هتلر من الأمثلة النادرة في التاريخ، التي يكاد يتساوى فيها دور الفرد ودور المجتمع في توجيه الأحداث وتسيير دفة الأمور!

ولا شك أن المعجبين بهتلر سيقولون: كلا! إن شخصيته الفذة كانت هي محور الأحداث كلها في تلك الفترة من الزمان.

ولكن أنصار نظرية المجتمع سيقولون من جانب آخر: إن هتلر لم يكن إلا منفذاً للدوافع الكامنة في المجتمع الألماني عقب الحرب الأولى، وعقب الهزيمة الظالمة التي أصابت ألمانيا في تلك الحرب.

الروح العسكرية المتغلغلة في الشعب الألماني. الكبرياء الجريحة في معاهدة فرساي. المطامح والمطامع التي تملأ مشاعر الشعب، ويغذيها الإحساس بتفوق الجنس الألماني في العلوم والفنون والحرب...

كل تلك العوامل هي التي خلقت هتلر في نظر هذ الفريق من المؤرخين وعلماء الاجتماع.

ولكن هؤلاء وأولئك متطرفون.

فلنأخذ كل هذه العوامل الإيجابية في نفوس الشعب الألماني، ولنحذف وجود هتلر، ولنضع بدلا منه شخصا آخر، أو لا نضع أحداً في مكانه، هل تكون النتيجة واحدة؟

الفرق يساوي شخصية هتلر.

ومن جانب آخر فلنأخذ هتلر بكل عبقريته ومزاياه ولنضعه في غير ألمانيا أو في ألمانيا في غير تلك الفترة وفي غير هذه الظروف. هل تكون النتيجة واحدة؟

الفرق يساوي الشعب الألماني في عهد هتلر.

وهذه القضية تصدق في كل حالة. هذا حق. ولكن لا تتقارب النسبة في الحسبتين في جميع الحالات كما تتقارب في حالة هتلر. فالميزان يميل أحيانا هنا وأحيانا هناك. ولكنه في هذه الحالة يكاد يسوي بين الكفتين بعد تأرجح بسيط هنا أو هناك.

* * *

والخلاصة من هذا كله أن المسألة متروكة للمصادفات!

المصادفة هي التي تبرز الزعيم الفذ القادر الموجه. والمصادفة هي التي تجعل الشعوب تثب وثباتها الجبارة!

وليس هناك كبير ضمان!

الروح الإسلامية الجبارة تحطمت –جزئيا على الأقل– على يد بني أمية ابتداء من عهد عثمان.

والروح الشيوعية "الجماعية" القائمة على أسس علمية (!) تحطمت -جزئيا على الأقل- على يد ستالين.

وليس في وسع أي شعب أن يقول إنه يستطيع أن يربي زعماءه على مبادئ معينة، ليضمن قيامهم على تنفيذ هذه المبادئ وعدم الانحراف عنها حين توضع في أيديهم مقاليد الأمور.

وليس كل يوم يولد عبقري يترجم الطاقة الكامنة إلى عمل حي، والمشاعر إلى حقائق.

ومع ذلك فليس هناك ما يدعو إلى اليأس من أمر البشرية!

هنالك شيء ولو قليل من الضمان!

إثارة وعي الشعوب يجعل انحراف الزعماء أصعب، واستجابتهم لدواعي العدالة في الحكم أقرب إلى التحقيق. وكلما زاد وعي الشعب زاد استقرار حياته وأمن النكسات المدمرة.

وتلك مهمة الدعاة.

وهي مهمة دائمة لا تنتهي ما بقيت الحياة على الأرض.

وخير الدعوات ما يربط القلوب بالله، أي بالقوة المتحكمة في قوى الأرض، القاهرة فوق قوى الأرض.

وواجب الدعاة ألا ييأسوا، مهما وجدوا أمامهم من صعاب، ومهما تحملوا من تضحيات ومشاق. وليخرجوا من حسابهم أنهم يعملون للناس. وليجعلوا في حسابهم أنهم يعملون لله!

المرأة والحضارة

من أبرز سمات هذا العصر ما يسمونه "تحرير المرأة".

فماذا كسبت المرأة وماذا خسرت من هذا التحرير؟

لا شك أن وضع المرأة في كثير من أرجاء العالم كان في حاجة إلى تصحيح. كانت المرأة في حاجة إلى رد الاعتبار الإنساني إليها ورفعها عن أن تكون جارية للرجل أو وسيلة من وسائل إمتاعه، ولكن الطريقة التي صُحح بها وضعها لم تكن في ذاتها صحيحة. كما أن الظروف التي لابست عملية التحرير في أوروبا قد جرفت المرأة في تيار عنيف أفسد كثيرا من جوانب طبيعتها، كما أفسد كثيرا من مفهومات الحياة في العصر الحديث.

وقد كانت قضية المساواة بين المرأة والرجل من أكبر القضايا التي شغلت هذا الجيل. والذي يشهد النتائج التي وصل إليها الغرب في هذا الباب على رضا منه أو على كره، يجد أن المرأة قد اكتسبت كثيرا من رذائل الرجل الفطرية من غير أن تكسب شيئاً يذكر من فضائله الحقيقية، بينما هي تخلت في الوقت ذاته عن كثير من فضائلها الفطرية.

فالرجل بفطرته غير مخلص في علاقاته العاطفية المتصلة بالجنس. والسبب في ذلك أن ذكور الحيوانات جميعا أقل من الإناث، لأسباب مختلفة، ليس أقلها اقتتال الذكور فيما بينهم للحصول على أنثى، وما ينتج عن هذا القتال من فقد عدد من ضعاف الذكور ولا يبقى إلا الأقوى (وتلك من حكمة الخالق في خلقه). فلو لم يكن في تركيب الذكر استعداد فطري أن يلقح أكثر من أنثى واحدة، لظلت كثير من الإناث معطلات لا يؤدين مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة جيلا بعد جيل. بينما الأنثى لا تحتاج في فطرتها إلى الالتقاء بأكثر من ذكر واحد، لأنها تحمل مرة واحدة في المرة الواحدة، ومن لقاح واحد فقط، فيكون اللقاء بالذكور الآخرين عملية لا معنى لها لأنها لا تؤدي وظيفة بيولوجية ومن ثم لم يركب الخالق في فطرتها هذا الطبع.

وفي الإنسان بجنسيه امتداد لهذه الفطرة الموجودة في غيره من الخلق. فالرجال أقل عددا من النساء في مجموع الجنس البشري. لأسباب مختلفة. منها أن الحروب تقتل من الرجال أكثر مما تقتل من النساء. ومنها أن جسم المرأة أكثر احتمالا وأكثر مناعة من جسم الرجل، ليساعدها ذلك على احتمال آلام الحمل وتبعاته، ومن ثم يموت في جميع الأمراض والأوبئة عدد من الرجال أكثر من النساء، فضلا عن تعرضهم لحوادث العمل والطريق بنسبة أكبر، حتى لو تساويا في العدد، لأن المرأة أكثر حرصا ومن ثم فهي أقل تعرضا للإصابة.

والنتيجة لكل ذلك أن عدد الرجال كما قلنا أقل من عدد النساء في مجموع الأرض. فلو لم يكن في الرجل –كبقية ذكور الحيوانات– استعداد فطري للالتقاء بأكثر من أنثى واحدة، لظلت كثير من النساء –اللواتي فقدن ما يوازيهن من الرجال– معطلات عن أداء مهمتهن الطبيعية من إنتاج الحياة. بينما لا تحتاج أنثى الإنسان إلى الالتقاء بأكثر من رجل لأن مهمتها تتحقق بلقاء رجل واحد.

وعلى هذا كانت المرأة مخلصة بفطرتها للرجل الذي تلتقي به لتحقيق مهمة الحياة. ولم يكن الرجل مخلصا بفطرته مثل هذا الإخلاص. لأن في طبيعته استعدادا فطريا للقاء بأكثر من واحدة. ولو ترك على طبيعته لما قنع قط بواحدة. ولكن الدين والأخلاق والتقاليد هي التي تهذب هذا الميل الفطري في طبيعته، وتربطه إلى أسرة منظمة العلاقات، وإلى امرأة واحدة لا تعدو عيناه إلى غيرها. والدين والأخلاق والتقاليد على أي حال لا تقسره قسرا ضد طبيعته. وإنما هي تعتمد على خيوط أخرى في نفسه، تستغلها للصالح البشري كله، منها شعور الألفة العميق في نفس الرجل، ومنها حب السكن والاستقرار...

والإسلام بالذات من بين النظم جميعا لا يقاوم هذا التركيب الفطري في طبيعة الرجل للقاء مع أكثر من أنثى، لأنه يحتاج إليه أحيانا لسد النقص في عدد الذكور –وهي حالة دائمة في البشرية كما ذكرنا– وإنما يهذب هذه الطبيعة فقط ويقيدها لحين الحاجة إليها. ومن ثم فهو يبيح للرجل نظريا أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع، ليتمشى مع فطرته ولا يكبتها، بينما يضع القيود الكثيرة في طريق التنفيذ العملي، مما يجعل الرجل في النهاية زوجا لامرأة واحدة لا غير، إلا في الحالة الاستثنائية التي ذكرناها من قبل –حالة نقص الرجال عن النساء– ولا تتعدى النسبة في مصر مثلا 3% من مجموع الزيجات.

هذا الاستطراد نخلص منه بنتيجة بارزة هي أن الرجل بفطرته غير مخلص في علاقاته العاطفية، وإنما هو يتعلم الإخلاص بتهذيب الدين والأخلاق والتقاليد لطبيعته. أما المرأة فمخلصة بفطرتها لأن ذلك هو الذي يتناسب مع طبيعتها.

وكذلك سارت الأمور أجيالا طويلة بعد أجيال.

ولكن المرأة في العصر الحديث قد تغيرت! فهي تريد أن تتساوى بالرجل. تريد أن تخرج إلى المجتمع. لا تريد أن ترتبط ببيتها –على الرغم من أن هذا شعور فطري لا تقسر عليه المرأة قسرا، بل هو كامن في طبيعتها– وهي تريد أن تثبت أنها مثل الرجل تماما وقادرة على القيام بكل ما يقوم به من أعمال!

وتعلمت المرأة في هذه الحمى ألا تستقر في علاقاتها العاطفية تجاه رجل واحد، وأن "تدور" على الرجال كما يدور الرجل على النساء. بل تعلمت ما هو أسوأ وأفحش فصارت تجرب اللقاء الجنسي كله أو بعضه بلا حياء ولا غضاضة مع عدد كبير من الرجال —بحجة اختيار زوج المستقبل– ثم تعودت ذلك حتى صار جزءا من حياتها لا تستغني عنه. وبذلك تخلت عن فضيلتها الفطرية في هذا الجانب واكتسبت رذيلة الرجل الفطرية التي سعى إلى تهذيبها الدين والأخلاق والتقاليد.

والمسألة هنا ليست مسألة الأخلاق بمفهومها الضيق —وإن كانت تلك من الخطورة بمكان– ولكنها أشمل من ذلك وأعمق. إنها مسألة تدمير الكيان الأنثوي من أساسه، والانحراف به انحرافا خطيرا عن طبيعته، في سبيل لا شيء.. إلا متعة جسد عابرة لا تدوم طويلا، ولا تترك النفس مع ذلك بلا جراح! وهذه البيوت المحطمة العديدة التي لا يمسكها في أوروبا إلا القوانين التي تمنع الطلاق، والتي لا يمسكها شيء في أمريكا حيث يباح الطلاق فيصل إلى نسبة 48% من مجموع الزيجات وهو أكبر رقم في العالم وأخطر رقم.. هذه البيوت المحطمة هي نتيجة هذا الانحراف في فطرة المرأة، والفساد الذي طرأ على كيانها، فأصبح الزوج الواحد مملا في نظرها، وأصبح التغيير متعة تتلمس له الأسباب. كما أن ذلك قد أتاح للرجل فرصة عظمى يرتد فيها إلى فطرته، ويتخلى عن تهذيب الدين والأخلاق والتقاليد، إذ صارت المرأة سهلة التناول بالنسبة إليه، تذهب بنفسها إلى عتبة داره ولا تحتاج منه إلى جهد في البحث!

وبعض المخدوعين هنا في الشرق يفتحون أفواههم في بلاهة من شدة الإعجاب بحوادث الطلاق الأمريكية التي يطلب غالبيتها النساء. ويقولون لك: انظر إن المرأة هناك قد تحررت وشعرت بالمساواة. إنها تطلب الطلاق من زوجها لأنه لا يحلق لحيته كل يوم! أو لأنه لا يشركها في شئونه.. إلخ. وهم ينسون في بهرتهم أن المرأة لا تتلمس هذه الأسباب الواهية إلا لأنها قد ملت، ولأنها ترى صيدا آخر في الخارج يبدو جميلا لأنه جديد.

* * *

والخمر والتدخين من رذائل الرجل الفطرية.

طبيعة الرجل وعمله الذي يقوم به يساعدان على تراكم قشرة صلدة تحجب إشراق روحه و"تغبش" صفاءها. فهو يعمل في مجال احتكاك دائم. احتكاك مع ماديات الحياة ومعنوياتها، مع المعادن الصلبة التي يطوعها للإنتاج، ومع غيره من الأحياء في صراع الحياة الكبير. ومن ثم يلجأ حتما إلى شيء يذيب تلك القشرة الصلدة كلما تراكمت على روحه،

وشعر بها تضيق أنفاسه وتحجب عنه النور. وحين يكون طبعه مستقيما وقلبه مهتديا إلى النبع الأصيل فإن العبادة المخلصة هي التي يجد فيها ضالته؛ هي التي تمسح أوضار نفسه، وتزيل غبشها، فإذا هو مشرق الروح شفيف النظرات. ولكنه حين يكون بعيدا عن النبع، لا يهتدي بهدي الدين، يلجأ إلى الخمر وأشباهها[1] يحاول بها أن يستعيد إشراقه، فتمنحه الإشراق الصناعي لحظة، وتطمس روحه بعد ذلك لحظات.

على أي حال فالخمر من رذائل الرجل التي تفرد بها أجيالا طويلة في التاريخ! ولم تكن المرأة قط في حاجة إليها، فطبيعتها المتوفزة المملوءة بالحيوية، الحاضرة العواطف والانفعالات، لا تحتاج إلى منبه صناعي كالذي يحتاج الرجل إليه.

ولكن المرأة اليوم تحررت! وأقبلت تطالب بالمساواة الكاملة مع الرجل. فلم لا تشرب الخمر؟ هل الرجل أحسن منها؟ فلتشرب ولتسكر حتى لا ينفرد الرجل دونها بشيء!

والتدخين كذلك.

وسواء صدق فرويد في تفسير الميل إلى التدخين أم كذب[2]، فإن التدخين كان من رذائل الرجل. كان يرضي به غروره، ويحس بالزهو الفارغ وهو ينفث الدخان حوله، فيشعر شعورا كاذباً أن كيانه قد كبر وامتد في الفضاء بقدر ما يمتد من نفثه من الدخان! وكان الرجل المستقر عاطفيا، الواثق من كيانه، المطمئن إلى وجوده، المحقق لذاته، لا يحتاج إلى التدخين، أو لا يسرف فيه. أما المرأة فلم تكن تحتاج إلى تحقيق ذاتها عن طريق الدخان المنعقد في الفضاء، وهي تملك وسائلها الأخرى، من حيوية فائضة، ومن أبناء تحس أن كيانها متحقق في كيانهم، وأنها "موجودة" في الحياة بقدر ما أوجدت من الأحياء.

ولكن المرأة اليوم قد تحررت! ولم تعد تجد كيانها في تلبية فطرتها الطبيعية.

ومن ثم أحست بالنقص الذي تكمله تكميلا زائفا بسحائب الدخان في الهواء!

والرجل خشن بطبعه وليس شديد الحياء.

---

[1] – من البديهي أن الخمر ليست الوسيلة الوحيدة للرجل الذي لا يهتدي إلى الله. فلها أشباه كثيرة من المغيبات عن الوعي. كما أن بعض الرجال يلجأ إلى التهريج والصياح كوسيلة للتنفيس.

[2] – من المعلوم أن فرويد يرد جميع تصرفات الإنسان بلا استثناء إلى أصل جنسي.

وهو منطقي مع كيانه ومهمته التي هو مكلف أداءها. مهمة الصراع الخارجي مع الحياة والأحياء. فلو أنه كان لينا رقيقا ناعما حييا لعجز عن أداء مهمته، وضعف إنتاجه المادي، ووقف تبعا لذلك تقدم الحياة.

والدين والأخلاق والتقاليد تهذب هذا الطبع الفطري في الرجل ولكنها لا تتعرض له حيث يكون ضرورة لازمة. فالإسلام يطلب من الرجل أن يكون لينا مع إخوانه رقيقا في معاملتهم، حييا في المسائل التي تتصل بالأعراض والبيوت، فهو يصف المؤمنين بأنهم (**رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**) (**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**) ويقول: (**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**). ولكنه فيما عدا ذلك يشجعه على القوة والشدة والخشونة ويأبى منه الضعف واللين.

والمرأة ليست في حاجة إلى الخشونة وقلة الحياء. لأن مهمتها تختلف عن مهمة الرجل، وطبيعتها غير طبيعته. والرقة والليونة سواء في بناء جسمها أو بناء نفسها هي المنطقية مع وطيفتها الحيوية، فهي تسهل لها مهمة الحمل والولادة، كما تسهل لها القيام بالأعباء النفسية للأمومة. وقد كان الحياء طابعا فطريا فيها يتناسب مع كل ذاك. كما كان إحدى الوسائل الفطرية التي تجتذب بها الرجل، إذ تخطر أمامه ثم تختفي، وتتركه هو يسعى إليها، وتسبر غوره في أثناء الطريق!

ولكن المرأة الحديثة المتحررة، قد تحررت من الحياء أيضا إذ تحررت من كيانها الأنثوي كله، وصارت تشارك الرجل في تجرئه وتوقحه، ولكن في غير المجال الذي يلجئ الرجل إلى ذلك، ويكون منطقيا فيه مع كيانه ووظيفته. فصارت تطلب الرجل بنفسها كما يطلبها، وصارت لا تستحي من أمور كثيرة قد يتحرج منها بعض الرجال! فضلا عن خشونتها التي صارت لازمة لها ما دامت تعمل في المصنع والمتجر والطريق، وتتعرض للمصادمات والمنازعات.

* * *

وماذا كسبت المرأة حين خسرت كل ذاك؟

لست أتحدث هنا عن تصحيح وضعها الإنساني والاجتماعي... لسببين:

الأول: أنه لا يملك إنسان له ضمير أن يعارض في حق المرأة في أن تكون إنسانة، وتشعر بكيانها كإنسانة.

والثاني: أن تصحيح وضع المرأة لم يكن يقتضي كل هذا الانحراف الذي حدث في الغرب. وقد تحدثت في كتاب "الشبهات" في فصل "الإسلام والمرأة" عن الطريقة التي رد بها

الإسلام إلى المرأة كيانها الإنساني دون أن تفقد طبيعتها الأنثوية، ودون أن يضطرها إلى عرض نفسها في الطريق، وتحويل الحياة إلى ماخور كبير كما صنع الغرب بعد تحرير المرأة.

ولكني أتحدث عن جانب واحد من هذه القضية، هو محاولة المرأة التشبه بالرجل لتحدث المساواة.

لقد شاركت المرأة الرجل —كما رأينا– في بعض رذائله الفطرية، وبعض طبائعه التي لا تعد عيبا فيه ولكنه عيب حين توجد في امرأة، كالخشونة والغلظ والاقتحام في غير ضرورة.

فهل شاركته مشاركة حقيقية في فضائله ومزاياه الفطرية؟

إن للرجل عبقريتين رئيسيتين في الحياة، أو هي عبقرية واحدة ذات وجهتين: عبقرية الإنتاج المادي، وعبقرية السياسة: سياسة المجتمع ووضع نظمه وإدارة شئونه السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وذلك في مقابل عبقريتين رئيسيتين للمرأة، أو هي عبقرية واحدة ذات شعبتين: عبقرية الأمومة —أي الإنتاج البشري– وعبقرية إدارة البيت وحمل تبعاته الضخام.

وحين تخلت المرأة عن كيانها الأصيل، وعن عبقريتها الحقيقية أرادت أن تشارك الرجل في عبقريته. فلأي شيء وصلت في هذا السبيل؟

أما الإنتاج المادي فقد يخيل للناس أن المرأة لم تشارك فقط، بل برعت وبزت الرجل في ميدان الإنتاج. لماذا؟ لأن المرأة تعمل على بعض الآلات الدقيقة أبرع مما يعمل الرجل، وهي كذلك أصبر في العمل عليها من الرجل. كما أنها في روسيا وغيرها من البلاد تعمل في معظم المصانع مع الرجل جنبا إلى جنب بلا فارق سوى الانقطاع في فترات الحمل والإرضاع...

وهذه الحقيقة الظاهرية لا يجوز أن تخدعنا عن شيئين مهمين:

الأول أن عملية الإنتاج الحديثة قد صارت آلية ومتخصصة إلى حد أنها لم تعد تحتاج إلى "إنسان" يديرها، بل هي في حاجة إلى "آلة إنسانية" تراقبها وتزودها بالمادة التي تحولها إلى مصنوعات. وهذه الآلة يستوي أن تكون رجلا أو طفلا أو امرأة، لأن الإنسان لا يتعامل مع عملية الإنتاج الحديث بكيانه الشامل كجنس، أو كإنسان، بل يتعامل معها ككيان آلي، يدق مسماراً، أو يضع قضيبا من الحديد، أو يهز جزءاً من الآلة على فترات منتظمة. والإنسان الآلي في طريقه أن يحل محل الإنسان الحي في كثير من عمليات الإنتاج.

فليس فوزا ضخما للمرأة كما يتوهم الناس أنها استطاعت أن تشارك في عملية الإنتاج الحديث. بل قد يكون صبرها عليها دليلاً سيئاً في حقها! فقد تكون دلالته أن المرأة أكثر آلية من الرجل، وأقدر —معاذ الله— على تحويل الحياة إلى نشاط آلي منظم رتيب! لولا أننا نعلم علم اليقين أن في المرأة من الحيوية الفياضة ما يخالف هذا الظاهر، ولكن المرأة الحديثة تريد لنفسها هذا المصير.

والأمر الثاني: أن اشتراك المرأة في عملية الإنتاج الآلية الحديثة لم يشجعها كثيراً على الاشتراك في العملية الحقيقية التي برع فيها الرجل، وهي اختراع الآلة التي تنظم الإنتاج. وكليات الهندسة في العالم مفتوحة للنساء، وشعور التحدي الذي تملك المرأة موجود بصورة حادة في كثير من أقطار الأرض وخاصة في أمريكا. ومع ذلك فعدد الفتيات اللاتي يقبلن على تعلم الهندسة الميكانيكية والهندسة الكهربائية ضئيل جداً بالنسبة لعدد الفتيان. ولا يقال في هذا إن المرأة جديدة على الميدان. فقد كانت جديدة على الميادين كلها في مبدأ الأمر بنسبة واحدة. وهي تعلم —في أمريكا على الأقل— أن المصانع والشركات ترحب بالمرأة أكثر مما ترحب بالرجل، لغاية في نفس يعقوب! فالتشجيع لا ينقصها، والباب ليس موصداً أمامها. فعزوفها إذن له دلالة لا سبيل لإنكارها.

أما عبقرية السياسة: سياسة المجتمع، سياسة الحكم والاقتصاد والسلم والحرب، ووضع النظم والجهاد في سبيل إقرارها.. فلعل مشاركة المرأة فيها لا تختلف كثيراً عن اشتراكها في ميدان الإنتاج: أي أنها تشارك في التنفيذ، ولا تشارك في الابتداع.

وليس اشتراك بضع نساء في برلمانات العالم، أو وظائفه الكبرى، أو اشتراكهن في عملية الانتخاب إلا لعبة طريفة يتلهى بها العالم الحديث! وليس ذلك هو الذي نعنيه.

إن وضع سياسة للمجتمع يحتاج إلى طباع خاصة لا تتوفر كثيرا في المرأة، لأنها بفطرتها لا تحتاج إليها، بل إنها —حين توجد فيها أحيانا— ترهق كيانها العصبي وتحمله فوق طاقته، لأنها ليست من حاجاتها الطبيعية في مهمتها الأصيلة.

خذ مثلا مسألة الجهاد في سبيل فكرة عليا تنظم حياة البشر على الأرض، وتصحح أوضاعهم الفاسدة..

لست أقول إن المرأة عاجزة أو عازفة عن المشاركة فيها. فهذا يخالف الواقع.

ولكن المرأة –في الغالب– تشارك بقدر ما يصيبها هي من جزئيات هذه الفكرة– هي كفرد، أو هي كجنس– ولكنها نادرا ما تشارك في الفكرة ككل شامل يصيبها أو لا يصيبها سواء.

ثم إنها إذا شاركت في الفكرة ككل، فهي تشارك فيها بطبيعتها التي تجنح إلى طلب النتيجة المباشرة لأي عمل أو فكرة، ولذلك لا تصبر على الفكرة التي لا تتحقق وصاحبها حي، لأنها في حاجة إلى جيل أو أجيال حتى تؤتي ثمارها؛ وسرعان ما تيأس وتنفض يدها من الصراع.

وثمة حقيقة هنا لا بد أن تسجل: هي أن كثيرا من الرجال كذلك ييأسون وينفضون أيديهم من الصراع.

نعم. ولكن البقية القليلة التي تبقى، أو الفرد الواحد الذي يبقى، هو الذي ينشئ الحوادث ويكتب التاريخ!

والذي حدث حتى اليوم أن هذا الفرد كان رجلا ولم يكن امرأة.

حتى جان دارك القديسة الثائرة، فقد ثارت لقضية مباشرة هي تحرير شعب. ولكن لم توجد بعد من تؤدي مهمة الرسل والمصلحين، الذين يبذرون البذرة اليوم لتتحقق غدا وهم في عالم الخلود.

ولا يقال كذلك إن المرأة جديدة على الميدان، فإن ذلك لم يمنع العبقريات من الظهور حين وجدت، كما ظهرت جان دارك على مسرح التاريخ.

وليس معنى ذلك —كما قلت– أن المرأة لا تشارك في المسائل العامة.

كيف يقال ذلك وفي تاريخ الإسلام نساء كعائشة وأسماء وسمية.. وشهيدات ومقاتلات؟

كلا! وإنما أتحدث عن أمر معين: هو عبقرية وضع المناهج والخطط والأفكار لسياسة البشرية.

*   *   *

لكل جنس إذن عبقرياته الأصيلة ورذائله الأصيلة. وأنا أحسب كما قلت في كتاب "الإنسان" أنهما متكافئان ولكنهما ليسا متشابهين. وقد أرادت المرأة أو أريد لها —في صراعها المجنون مع الرجل في الغرب– أن تنشئ فلسفة جديدة وتثبت "حقائق" جديدة..

وهذه —حتى اليوم– هي نتيجة الصراع! ومع ذلك فأنا على استعداد حين تتغير الحقائق أن أغير الأفكار!

التطور والانتكاس
في تاريخ البشرية

كنت في حفل أقامته إحدى مدارس البنات بمناسبة "أعياد الربيع".. وكان البرنامج كله رقصا. رقصا تقوم به البنات من المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية على المسرح أمام المدعوين من الرجال. أخواتنا وبناتنا يرقصن "رقصا توقيعيا" أمام جمع من الشباب المتعطش الذي يتابع كل حركة بنهم، ويكملها في خياله على هواه، وتتبع عيناه الجائعتان كل حركة وكل ثنية وكل قطعة من اللحم المعروض على المسرح، ويمد نظراته إلى القليل الذي تستره الملابس، ينضي عنه غطاءه ويتصوره عريان.

ولكن تحويل المدرسة إلى مرقص لم يرعني بقدر ما راعني تعليق رجل من الحاضرين، إذ قال والحماسة تملؤه وتفيض منه: "الحقيقة هذا تطور. تطور عظيم. غير منتظر. من كان يتصور قبل عشر سنوات فقط أن يتم هذا التطور العظيم؟ حفلة كهذه تمر بسلام لا في القاهرة أو الإسكندرية بل في إقليم من أقاليم القطر. وفي الصعيد بالذات. لا. هذا تطور. تطور عظيم. رائع".

* * *

ما أعظم الخرافة التي يعيش فيها هذا الجيل من البشرية، وما أفظع الهوة التي ينحدر إليها..

الخرافة التي تخيل له أن البشرية تسير في خط تطور دائم.. يرتفع دائماً إلى أعلى، وأن أعلى ما وصلت إليه البشرية هو ما وصلت إليه في هذا الجيل، لأنه أحدث الأجيال.

والهوة التي ينحدر إليها وهو يظن أن التطور هو الانسلاخ من قيود الأخلاق والتقاليد، باعتبارها قيوداً سخيفة من تراث الماضي العتيق، ينبغي أن ننبذها و"نتحرر" منها لزيادة الاستمتاع بالحياة.

* * *

هل صحيح أن البشرية تتطور دائماً إلى أعلى؟ بجميع خطوطها واتجاهاتها؟

من أين نشأت هذه الخرافة؟

لقد نشأت دون شك من تطور البحوث العلمية، والانتصارات الباهرة التي حققها العلم والاختراع وخاصة في العصر الحديث.

وهذا الخط من خطوط البشرية –خط العلم– قد تطور حقاً إلى الأمام بصورة دائمة منذ فجر التاريخ. ولا عجب في ذلك. فطبيعته ذاتها هي التي تؤدي إلى هذا التطور الدائم إلى الأمام.

هدف البحث العلمي والاختراع هو تيسير الحياة والتغلب على مصاعب البيئة أو ما يسمونه الصراع مع الطبيعة.

ومنذ طفولة البشرية حاول الإنسان أن يتفهم أسرار الطبيعة ليسيطر عليها ويسخرها لمصلحته. كان من قبل يظنها آلهة وقوى خفية فراح يسترضيها ويتعبدها لتمنحه سلطانها أو تقيه شرها. وتعلم السحر لنفس الغاية. ثم تعلم الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات والطب، وهو لم يبرأ بعد من السحر، فمزج بينها وبينه، فكان العلم كهانة وعلما في ذات الوقت أيام قدماء المصريين. وتلا ذلك البحث عن حجر الفلاسفة على يد العرب لتحويل المواد كلها إلى ذهب.

ثم سار العلم خطوة على يد أوروبا فدخل ميدان التجربة العملية.. ومن هناك انفتحت أبواب هائلة كانت مغلقة من قبل، وكأنها يد السحر عادت من جديد.

كل ذلك كان تطوراً إلى الأمام. وكان طبيعيا لا غرابة فيه.

فلنتصور الرجل العبقري الذي اخترع المدية الحجرية في ما قبل التاريخ.. لقد كانت فتحا هائلا في عالم الاختراع. آلة يستطيع أن يذبح بها الطير ويسلخ الجلد ويقطع اللحم. ومنذ استخدمها الإنسان فلن يرجع عنها إلى الطريقة البدائية التي كان يستخدمها قبل هذا الفتح العلمي.. لن يرجع إلى الوراء. قط. فليس من المعقول أن يجد الطريقة الميسرة ثم يعود إلى الطريقة المتعبة ذات الإنتاج الأقل. ومن هنا يسير الكشف العلمي دائما إلى الأمام. وتنتشر المخترعات الجديدة، وتتطور دائما إلى أحسن. وتسير في خط دائم الصعود. لأن البحث يجري دائما لتحسينها وزيادة الفائدة منها، والدافع من ورائها موجود دائما مندفع دائما إلى الأمام.

ولكن هذا التقدم الدائم في ميدان العلم قد أغرى "العلماء" بخطأين عظيمين.

الأول: الاعتقاد بأن جميع الخطوط البشرية تتقدم دائما إلى الأمام شأنها شأن التقدم العلمي، وأن الواقع البشري قد حقق هذا التقدم، جنبا إلى جنب مع التقدم العلمي أو نتيجة له.

والثاني: الاعتقاد بأن التطور قوة قاهرة، مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته، تدفعه دائما إلى الأمام رضى أو أبى، وأنه لا قبل لأحد، فرد أو جماعة، بوقف التطور أو الوقوف في سبيله.

* * *

ونبدأ بالفقرة الأولى من المبدأ الأخير، أن التطور قوة قاهرة مستقلة عن كيان الإنسان وإرادته.

أصحاب هذا الرأي هم أصحاب التفسير المادي والتفسير الاقتصادي للتاريخ، ويجاريهم فيه لفيف من علماء الاجتماع "المحايدين". وأهم ما يعتمدون عليه لتأييد دعواهم هو الحقيقة الظاهرة للعيان، وهي أن اختراع أي آلة جديدة يحدث تغييرات كبيرة أو صغيرة في علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقتهم بالبيئة (أو بالطبيعة على نطاق واسع) وهذه التغييرات تكيف حياتهم وأفكارهم ومشاعرهم على نحو جديد لم يكن معروفاً لهم من قبل، ولا حيلة لهم فيه إلا اتباعه عاجلا أو آجلا، رضوا أو كرهوا.

العالم قبل اختراع البارود غير العالم بعد اختراعه.

والعالم قبل الآلة البخارية غيره بعد هذه الآلة.

والعالم قبل السينما والراديو والتلفزيون شيء آخر غيره بعد هذه الأشياء. من الناحية الفكرية والخلقية والاقتصادية. إلخ.

وإذ كانت الاختراعات تسير بطريقة لا يمكن وقفها، فالتطور الناشئ منها لا يمكن وقفه، وهو بالتالي قوة قاهرة خارجة عن إرادة الإنسان.

وحين توضع المسألة بهذه الصورة فهي تبدو منطقية جداً وحقيقية للغاية.

ولكنا نترك مؤقتاً مسألة قهر التطور للناس ودفعهم إلى الأمام —حتى نأتي بشواهد من التاريخ– ونبحث في حقيقة هذه القوة التي تسمى التطور، هل هي مستقلة حقاً عن كيان الناس. أم هي في الواقع جزء من طبيعتهم.

ونعود إلى حقيقة ذكرناها قبل سطور..

ما الذي دفع بالعلم قدماً إلى الأمام؟ من الذي اقتحم به أسراراً بعد أسرار؟ أليس هو "رغبة" البشر في كشف المجهول وتسخير قوى الطبيعة؟

هل كان العلم قميناً أن يوجد أصلا، أو يتقدم خطوة بعد خطوة لولا هذا الدافع الملح في النفس البشرية؟ الرغبة الدائمة في معرفة الأسرار المجهولة؟ وعدم الاكتفاء بأي شيء "يُعرف" والسعي دائماً وراء الجديد؟ أليست هذه الرغبة جزءاً من كيان الإنسان؟ ومنها ينتج التطور العلمي الذي ينشئ بدوره —في زعمهم– كل التطور الخلقي والفكري والاجتماعي والاقتصادي؟ فكيف يكون التطور إذن قوة خارجة عن كيان الإنسان وهي كامنة في أعمق أعماقه؟

أما أنها خارجة عن إرادته فقول يمكن أن يفهم على معنى واحد: هو أن الرغبة في معرفة المجهول قوة قاهرة في داخل الكيان البشري لا حيلة للإنسان فيها، لأنها جزء من خلقته، كالحاجة إلى الطعام والحاجة إلى الجنس. ولكن القول مردود حتى على هذا المعنى الواحد، لأن الإنسان يتحكم بعقله وإرادته في تلك الحاجات الفطرية التي لا حيلة له فيها، فينظمها، ويوجهها الوجهة التي يريدها. وبذلك تتحقق إرادته حتى إزاء "القوى القاهرة" في داخل كيانه.

على أنهم حين يقولون هذا القول لا يقصدون هذا المعنى الذي قبلناه من حيث المبدأ، ورددنا عليه بما يفسره، وإنما يقصدون أن التطور قوة مستقلة عن الإنسان أصلا، ليست خاضعة لوجوده،، وإنما هي كائنة بذاتها، وهي تؤثر في الإنسان من خارج نفسه، فتتطور به على مدى الأجيال! وهو قول يحتاج إلى قليل من التعقل ليتبين مدى ما فيه من خرافة يؤمن بها كبار السادة العماء!

* * *

ونعود إلى المبدأ الأول: أن البشرية تتقدم بجميع خطوطها إلى الأمام، ولا ترجع أبداً إلى الخلف. وأن الواقع البشري قد حقق هذا التطور الدائم مع التقدم العلمي أو نتيجة له.

الخطأ الأول هنا هو الاعتقاد بأن الكيان النفسي في مجموعه يسير مع التقدم العقلي، المتمثل في العلم والاختراع.

وبمقتضى هذا الاعتقاد يكون البشر قد تقدموا نفسياً باستمرار مع تقدم العقل والعلم.

أي أن المستوى النفسي للبشرية في القرن العشرين أرقى مما كان في القرن التاسع عشر، وهذا بدوره أرقى مما كان عليه في القرن الثامن عشر، والسابع عشر... والعاشر.. والعاشر قبل الميلاد.

أي أن هذه الأحقاد التي تأكل قلب البشرية في القرن العشرين؛ هذا الصراع الجبار المدمر المخرب الرهيب المتمثل في حربين متتاليتين في ربع قرن، والثالثة على الأبواب؛ هذه الأنانية البغيضة والتفكك العاطفي الذي يجعل كل إنسان جزيرة وحده، لا يلتقي بالآخرين إلا حيث تكون المنفعة القريبة أو المتاع الحسي.. هذا هو أرقى ما وصلت إليه البشرية من الناحية النفسية على مدار التاريخ!!

فمن يقول هذا الكلام وفي نفسه ذرة من التعقل، أو ذرة من الإخلاص للبحث العلمي الصحيح؟

ولرب قائل ينتقض متحمسا ويقول: لعلك ستحدثنا عن الأديان ودعواتها، والفترات التي ارتفع فيها البشر على أيدي الأنبياء والرسل؟ بربك دع عنك هذه الخيالات ولنعش في الواقع: البشر هم البشر من لدن آدم إلى اليوم. الصراع هو الصراع والبغضاء هي البغضاء والمنفعة هي المنفعة. وما استطاع الرسل والأنبياء أن يصلحوا إلا أفرادا قلائل على مدى الأجيال. والباقون على حالهم يخافون ولا يستحون. تحكمهم بالقوة فيرتدعون، وتتركهم فيعيشون مفسدين!

ولنقبل هذا القول على علاته!

فأين إذن ذلك التطور المزعوم في النفس البشرية؟ أين التقدم الدائم إلى الأمام، الذي يسير جنبا إلى جنب مع التطور العلمي والاختراع؟

والعجيب أن من بين المؤمنين بالتقدم الدائم أولئك الذين يقسمون حياة البشرية إلى مراحل متميزة: هي الشيوعية الأولى، والرق، والإقطاع، والرأسمالية ثم الشيوعية الثانية. ويقولون إن الشيوعية الأولى –قبل تملك أدوات الإنتاج– كانت أسعد فترات البشرية وأقربها إلى حياة الملائكة! لا ضغائن ولا أحقاد ولا صراع. وتعاون وحب وسلام يشمل الجميع...

وأن البشرية انتكست بعد ذلك حين بدأ اختراع أدوات الإنتاج والصراع عليها. فكيف يتفق هذا الرأي مع الإيمان بالتطور الدائم إلى الأمام؟

ألا إنها الخرافة الكبرى، يؤمن بها السادة من كبار العلماء في العالم الحديث!

* * *

ومن هذه الخرافة تنبع الخرافة الأخرى التي تقول إننا نتطور خلقيا كذلك إلى أحسن، بصورة دائمة! وإننا ما دمنا في القرن العشرين "متطورين" أكثر ما كنا في القرن التاسع عشر، والثامن عشر، والسابع عشر، والعاشر، والعاشر قبل الميلاد، فقد لزم أن تكون أخلاقنا اليوم أرقى مما كنا في الأجيال السابقة. وإذا كانت أخلاقنا اليوم هي التحلل من قيود الأخلاق، فالتحلل إذن هو التطور، وهو الرقي وهو التقدم إلى الأمام!

وقد بينا في الفقرة السابقة مدى الزيف الذي تشتمل عليه تلك الخرافة الهائلة التي تزعم أن البشر اليوم أرقى نفسيا مما كانوا في أي وقت مضى، ورأينا أن المسألة أوضح من أن تحتاج إلى تعمق في التفكير. وإنما تحتاج فقط إلى أن يفتح الإنسان عينيه على الواقع ليرى أن المشاعر التي يتبادلها هذا الجيل من البشرية ربما كانت أسوأ ما أحس به البشر على مدار التاريخ!

وإذ انهارت خرافة الرقي النفسي التي تنبني عليها خرافة الرقي الخلقي في القرن العشرين، فقد انهارت هذه الخرافة الأخرى ولم تعد تحتاج إلى تدليل.. من ذا الذي يزعم أن هذه الفوضى الجنسية الضاربة أطنابها في الغرب، وهذه الأسر المنهارة التي تصل نسبتها في أمريكا إلى أكثر من 48 %، والتفكك الذي أصاب فرنسا حين أغرقت في شهواتها فهوت بها إلى الحضيض.. هو "الرقي" الذي تنشده الإنسانية، والذي ينبغي أن تسير فيه إلى النهاية؟!

على أنني أريد أن أبين حقيقة أخرى تنفي هذه الخرافة الضخمة من جانب آخر: فمن قال إن هذا "التطور "الخلقي الذي يشهده العالم في القرن العشرين شيء جديد في حد ذاته حتى يظن أحد أنه جميل لأنه جديد، أو أنه راق لأنه جديد؟!

أهو جديد حقاً؟ أو لم تعرفه اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة؟

هو هو بحذافيره... اتخاذ الخليلات والخلان "بحرية" ودون انتقاد من المجتمع. وإفراغ الطاقة الجنسية في صداقات "بريئة" (بريئة والله!) لإراحة الأعصاب من تحملها. والاختلاط بين

الجنسين. والرقص في الساحات الشعبية والمواكب والحفلات، بل في المعابد. و.. و.. والسعي إلى الاستمتاع بالحياة من كل سبيل.

هل من جديد؟

فأين إذن خرافة التطور بالتجديد؛ وهذه هي البشرية قبل ما يقرب من ألفي عام تصل في رقيها "الخلقي" إلى دعارات القرن العشرين؟

ألا يراجع الناس التاريخ قبل أن يحشوا أفواههم ورءوسهم بالأوهام؟!

* * *

الخلاصة إذن أن الكيان البشري لا يتطور كله إلى الأمام. وأن العلم وحده هو الذي يسير للأمام قدما لأن طبيعته تؤدي به إلى هذا الطريق.

أما الكيان النفسي والخلقي فليس حتما أن يتطور مع التدم العلمي. والبرهان هو وقائع التاريخ. وحين يتحدث الواقع فلا مجال لنظريات يصنعها أصحابها ويتحمسون لها بحسن نية أو بسوء نية. واحترام البحث العلمي –وهو من ألوان التقدم التي وصل إليها البشر في العصر الحديث– احترام البحث العلمي ذاته هو الذي يدفعنا أن نقر بهذه الحقيقة سواء وافقت ميولنا أم خالفتها.

والحقيقة أن البشر في الناحية النفسية والخلقية لا يسيرون على خط مستقيم من التقدم، وإنما هي دورات من الصعود والهبوط. من التطور والانتكاس على مدار الأجيال.

وكما أن طبيعة البحث العلمي هي التي أدت به إلى أن يسير في خط مستقيم من التقدم، فإن طبيعة الكيان النفسي للبشر هي التي أدت بهم إلى هذه الدورات الدائمة من التطور والانتكاس.

ونبدأ الدورة من أي جزء فيها ثم نكملها..

فلنفرض أننا نعيش في مجتمع منحل. مجتمع مفكك العرى ملوث الأخلاق.. فما النتيجة؟ النتيجة التي تكررت في التاريخ أن هذه الموجة تنتشر حتى تصل إلى آخر المدى... حتى تنهار الأمة بكاملها في حرب داخلية أو خارجية. كما حدث لفارس القديمة واليونان

القديمة وروما القديمة.. وكما حدث لفرنسا في العصر الحديث.. التكالب الشديد على اللذات يصرف الأمة عن تكاليف الجد في العمل، وتكاليف الدفاع عن الكيان فتنهار...

ثم تؤثر الهزيمة أو الصدمة العنيفة في أعصاب الناس فتفيقهم مما هم فيه. ويحسون أن تكالبهم على الشهوات هو الذي أحل بهم الضعف والخزي والهزيمة. فتقوم الدعوة لوقف الفساد ورفع الهمم والترابط والتساند وجمع الصفوف المفككة المنهارة. وتظل هذه الدعوة تعمل عملها رويداً رويداً حتى تؤتي ثمارها بمرور الأيام فينشأ جيل فاضل. ولا نقصد أنه خال من الفساد. فإن وجه الأرض لم يخل قط من الفساد والجريمة. وإنما نقصد أن نسبة الفساد فيه هي الصغرى ونسبة الفضيلة هي الغالبة. ويستمر المجتمع على ذلك جيلا أو أجيالا حتى ينتعش ويربو، ويحس بالاطمئنان إلى كيانه وقوته. وعند ذلك يبدأ التحلل. يبدأ به أشد الناس انحلالا، والمجتمع كله مستنكر. ثم يسري الانحلال رويداً رويداً ويخف استنكار المجتمع، ويرضى بالأمر الواقع. ثم يشارك الجميع في الفساد الذي يصبح هو الدفعة الغالبة.. إلا أقلية بسيطة تظل متزمتة.. وهي التي تبدأ منها الدورة التالية الهادفة إلى التماسك والصعود!

وهكذا تدور البشرية في دورات متوالية من الارتفاع والهبوط ولا تسير في خط واحد مستقيم!

* * *

ذلك حين يتركون أنفسهم على سجيتهم. ويتركون "التطور" يتحكم في إرادتهم ولا يتحكمون هم فيه.

وقد قالت أوروبا إن التطور قوة قاهرة خارجة عن إرادة البشر مستقلة عن كيانهم، لأنها تركت نفسها على سجيتها، فوجدت نفسها تندفع في تيار فكري وخلقي معين، كل خطوة فيه تؤدي إلى الخطوة التالية بلا قصد ولا تدبير!

ولكن هذا كان بعد أن ابتعدوا –بإرادتهم– عن الارتباط بالله في صورة دين وعقيدة.

وحين يقطع الإنسان صلته بالله –فرداً كان هذا الإنسان أو جماعة– فلا مصير له إلا هذا المصير: (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**) والهوى هو الخضوع للضرورات: هو الهبوط مع الخيط الهابط، وإهمال القدرة على الصعود.

وليس هنا مجال التفصيل للأسباب التي دعت أوروبا إلى التحلل من دينها والكفر بعقيدتها، فقد تحدثت عنها في أكثر من موضع في كتاب "الإنسان" وكتاب "الشبهات".

ولكني أقول فقط إنه لم يكن حتما على أوروبا حين نفرت من دكتاتورية الكنيسة وبشاعة ما تفرضه على أرواح الناس وعقولهم وأموالهم من أرزاء، لم يكن حتما عليها أن تنسلخ من دينها كله ومن الارتباط بالله. فقد كانت تملك أن تحطم سلطان الكنيسة لتخلص الدين من قبضتها وترده إلى صفاته وروحانيته واتصاله المباشر بالله.. وكانت أوروبا تستطيع —لو أرادت— أن تعتنق الإسلام، فيخلصها من دكتاتورية الكنيسة، ويردها في الوقت ذاته إلى الله، ويزيل العداوة القائمة في أفكارهم وأرواحهم بين العلم والعقيدة، وبين العقل والدين... ولكن أوروبا لم تصنع شيئاً من ذلك، وانسلخت من دينها وعقيدتها وأخلدت إلى الأرض.. وسارت في طريق "التطور"، وصعدت في ميدان العلم والاختراع، ولكنها هبطت هبوطا مزريا في عالم المشاعر والأخلاق حتى وصلت إلى درجة من الانحطاط ندر مثلها في التاريخ. فقد كانت نوبات الفساد السابقة لا يسندها شيء إلا حب الناس للشهوات ورغبتهم في الاستمتع بالحياة. أما النوبة الحالية فتسندها نظريات علمية وسيكلوجية زائفة تقرر أن هذا الفساد هو الحق الذي ينبغي أن يكون.

وأوروبا اليوم في قمة فسادها. أو على الأصلح في الدرك الأسفل من الهبوط.

وسيفغر أناس أفواههم في بلاهة ويقولون: وى! في عصر الذرة والطائرة الصاروخية والتليفزيون والمخ الإلكتروني.. وفي عصر التنظيم الآلي للإنتاج والتنظيم العلمي للسياسة والاقتصاد وكل شئون الحياة؟ العصر الذي يكشف كل يوم عجيبة، ويحاول أن يصل إلى القمر ويتصل بالمريخ؟!

ونقول لهم: نعم. إنها الحقيقة الواقعة. إن العلم يسير في خطه المستقيم صاعدا أبدا نحو القمة. ولكن نفوس البشر تلتوي في موجات هابطة وصاعدة بصرف النظر عن التقدم العلمي. وهي اليوم في حضيض الموجة الهابطة كأسوأ ما يكون عليه الإنسان.

ولكنها ستهدف إلى الصعود!

الدورة الطبيعية التي تحكم الحياة البشرية!

وقد بدأت أمارات قليلة من هذا الصعود تظهر على الأفق... ولكنها ضعيفة ما تزال. فمن أمريكا بلد الهوس الجنسي الذي يدعونه الحرية، والانطلاق المجنون الذي يدعونه التقدم، تتعالى صيحات علماء التربية وعلماء الاجتماع وعلماء السياسة أن أمريكا مشرفة على الخطر إن لم تضع القيود لهذا الهوس المجنون، وترتد إلى حظيرة الأخلاق.

وروسيا الملحدة تضطر لأي سبب من الأسباب إلى إباحة التدين.

والبقية تأتي...

سترتد البشرية إلى صوابها. ستعود إلى الصعود.

وقد لا نعيش نحن حتى نرى فرنسا الداعرة قد ارتدت متدينة محافظة، ولا أمريكا المجنونة قد صارت إلى التعقل، ولكن الموجة سائرة في طريقها المحتوم. والبشرية لا بد أن تصعد في مستقبلها القريب، لا بحكم الزمن والتطور، ولكن بحكم الموجة التي أخذت مداها من الهبوط فعادت إلى الارتفاع.

نهاية الشيوعية

الشيوعية في نظر أصحابها هي النظام الأخير للبشرية.. أي أنها النظام النهائي الذي ليس له في ذاته نهاية!

ومع ذلك فإن الفلسفة الشيوعية ذاتها هي التي تحدد نهاية الشيوعية!

الغذاء والمسكن والجنس.. تلك هي المطالب الأساسية كما حددها كارل ماركس في الإعلان الشيوعي.

والغذاء والمسكن والجنس هي الهدف الذي تسعى الحكومات الشيوعية لتحقيقه لمئات الملايين.

وهو هدف ضخم جداً بغير شك وجدير بأن يشغل الحكومات كلها شيوعية كانت أو غير شيوعية.

ولكن نقطة الخلاف بيننا وبين الشيوعيين، أن هذه الأهداف وحدها لا يجوز أن تكون هي الشغل الأوحد لحكومة من الآدميين. وإلا فلو قامت بين الحيوانات حكومة، أو لو أن بشرا قام يشرف على تنظيم حياة الحيوان، فما الذي يمكن أن يسعى لتوفيره له إلا الغذاء والمسكن والجنس؟! فهل يليق بكرامة الآدميين، وحكومات الآدميين أن تكون مطالبها هي ذاتها مطالب الحيوان؟ وفيم إذن كان الإنسان إنسانا إذا كنا سنعود به إلى عالم الحيوان؟

ولا نحب أن نظلمهم ولا أن نتجنى عليهم. فهم لا يرون الحياة البشرية تقف عند هذا الحد في حقيقة الأمر. ولكنهم مع ذلك يقصرون وظيفة الدولة على ضمان تلك المطالب الرئيسية. ويدعون بقية الأمور تنبت نباتا تلقائيا بعد تنظيم الاقتصاد، على الأساس الفلسفي الخاطئ الذي يؤمنون به، وهو أن مجالات الإنسان العليا: من فكر أو فن أو —لا قدر الله!— إنما هي انعكاس للوضع الاقتصادي القائم، وليست شيئا قائما بذاته، ناشئا من جذور إنسانية أصيلة، شأنها شأن عوامل المادة والاقتصاد.

ولن تفلح الشروح الشيوعية كلها في زحزحتنا عن عقيدتنا الفاسدة، التي تجعلنا نؤمن أن العناصر الاقتصادية جانب واحد من جوانب الكيان الإنساني الواسع، وأن هناك في هذا الكيان قيما أخرى ليست اقتصادية في جوهرها، ولا يهذبها، وإنما كل ما يصنعه هو أن يهيئ لها جوا صالحا للتغذية والتهذيب.. فقط ولا يزيد!

لن تفلح الشروح الشيوعية —العلمية!– كلها في زحزحتنا عن هذه العقيدة الساذجة الفاسدة، الموروثة من عقلية القرون الوسطى، لأننا نرى في عالم الواقع لا في الكتب والنظريات حادثتين ضخمتين في العالم الشيوعي، تكذبان هذه الشروح العلمية كلها وتؤيدان ما نذهب إليه من أفكار.

بريا.. وستالين.

اتهم بريا —وأعدم من أجل هذا الاتهام– بأنه يتآمر مع الرأسمالية سراً لتقويض أركان الشيوعية. من أجل أن يتمتع هو بالسلطان!

والاتهام لا يخرج عن أحد أمرين، فهو إما صادق وإما كاذب.

فإذا كان صادقا، فقد وجد إذن بين الذين تربوا في ظل النظام الشيوعي، وانطبعوا بانطباعاته كلها، وجرت عليهم حتمية التنظيم الاقتصادي التي تقضي بامتناع شهوة السلطان ما دام المجتمع غير طبقي ولا يمارس الملكية الفردية. وجد بين هؤلاء من يضرب بهذه الحتمية عرض الحائط، ويبرز أمام الناس مثالا بشعا للخيانة وعدم الإيمان، لأن هذه الشهوة النفسية —شهوة السلطان– لم تتهذب بكل التنظيمات الاقتصادية، ولم تنبت حولها الفضيلة نباتاً تلقائياً يغنيها عن توجيه العناية المباشرة إليها، بغذاء لا يستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد.

غذاء العقيدة.. غذاء الروح.

أو يكون الاتهام كاذبا.. فالأمر سواء!

لقد وجد إذن في العالم الشيوعي المنظم تنظيما اقتصادياً —علمياً!– من تسول له نفسه الكذب، واتهام الأبرياء وإعدامهم، رغبة في التخلص منهم، والتفرد دونهم بالسلطان!

ذلك بعض ما نخلص إليه من الحادث الأول الخطير.

أما ستالين فشأنه أخطر. فقد كتبت عنه الصحف الروسية —لا صحف أعدائه– أنه كان مجرما فظا يحكم البلاد بالدكتاتورية والحديد والنار والتجسس، وأنه كان يعبد شخصه ويسعى لفرض عبادة شخصه على الجماهير!

يا للهول! وماذا بقي إذن للإسلام مثلا؟!

معقول أن تقوم هذه الجرائم كلها في ظل نظام فاسد كالإسلام، لا يقوم على أسس علمية، ويبيح الملكية الفردية، ويبيح نظام الطبقات، ولا يقيم وزنا للبروليتاريا، ويبلغ به التأخر أن يكون قائما على عقيدة، وأن يكون منزلا من عند الله..

معقول أن يكون في نظام الله كل هذه المفاسد والانحرافات[1].. أما أن تتوفر كلها، وبهذه الشناعة في نظام –علمي!– فهذا كثير والحق يقال... إنه يدعونا إلى مراجعة هذه الدعوى العريضة من أساسها، دعوى التنظيم الاقتصادي في تهذيب النفوس ونزع شهواتها الكافرة، وتحويل الناس إلى ملائكة مطهرين!

إن تأثير الاقتصاد في المشاعر والأفكار حقيقة أزلية خالدة لا ينكرها عاقل. ولم يكن ماركس وإنجلز وعلماء القرن التاسع عشر والعشرين هم الذين اكتشفوها وحدهم على مدار الأجيال، فإن رجلا متأخرا جداً كعمر بن الخطاب، جاهلا، لم يدرس في الجامعة، ولم يتخصص في علم الاقتصاد أو علم الاجتماع، بل هو أشد تأخراً من ذلك لأنه يسير حافياً في الصحراء، وأسوأ من ذلك أنه يؤمن بالله وبالعقيدة.. رجل بهذا التأخر هو الذي قال لعماله ولاة الأقاليم وهو يشرح لهم أساليب الحكم وحدود معاملة الناس "..ولا تجيعوهم فتكفروهم"!

أدرك هذا الرجل المتأخر أن العقيدة لا تنبت في المعدة الخاوية. وأنه لا بد من إعطاء الناس مطالبهم الأساسية من الغذاء والمسكن والجنس لكي تقوم العقيدة في نفوسهم على استواء.

ولكنه لم يكن مثقفا ثقافة علمية، فنجا من الهوة الكبرى التي تنحدر إليها الأفكار المثقفة في القرن العشرين. ولم يعتقد أن ضمان المطالب الأساسية وحده –وبطريقة تلقائية– يهذب الطباع ويرفع النفوس ويغني عن العقيدة. فكان يرسل للناس –وقد أمّنهم على مطالب الجسد– من يهذب أرواحهم ويمنحها غذاءها الحق من نور الله.

ذلك هو موضع الخلاف الأكبر بيننا نحن المتأخرين وبين الشيوعيين التقدميين. هم يؤمنون بأن الاقتصاد حقيقة طردية وعكسية. ونحن نؤمن بأنها حقيقة عكسية فحسب. أي أنها حين لا توجد يختل البناء كله من أساسه وينهار (ولا تجيعوهم فتكفروهم) ولكنها حين توجد لا تؤدي بذاتها إلى الرفعة الروحية والخلقية والفكرية والإنسانية، ما لم يصحبها تهذيب

[1] رددنا على هذه المزاعم كلها في كتاب "شبهات حول الإسلام".

مباشر غير مستمد من عالم المادة وعالم الاقتصاد، بل مستمد من العقيدة وارتباط القلوب بالله[1].

*   *   *

ولكننا نتجاوز مؤقتا عن هذا الخلاف الرئيسي بيننا وبين الشيوعيين، لنتابعهم في عالمهم المثقف الرفيع.

الغذاء والمسكن والجنس هي المطالب الرئيسية، وهي همّ الحكومة الشيوعية.

ومضى الزمن قدما.. وتحقق الحلم الشيوعي الأكبر: لكل بحسب حاجته، ومن كل بحسب مقدرته.

تقدمت وسائل الإنتاج مع تقدم العلم، وصار في مكنة البشر أن يعملوا ساعات قليلة من النهار، بأقل جهد ممكن، ويحصلوا على قدر كبير من الإنتاج، يكفي كلا بحسب حاجته..

ثم..؟!

إن الشيوعيين لن يؤخذوا بهذا السؤال على غرة. فهم قوم مثقفون على أسس علمية. ولم يفتهم أن يبحثوا هذا الأمر. إن الشيوعية لن تنتهي حينئذ كما يظن المتأخرون قصار النظر فاسدو العقيدة.

إن هناك امتدادا للحلم الشيوعي الأكبر..

عندئذ تقوم حكومة عالمية في كل الأرض لتمنع الحرب، وتمنع التسابق إلى الغلبة والتسلح، ما دام الإنتاج صار من الجميع بواسطة الجميع.

ثم..؟!

ومرة أخرى لن يؤخذوا بالسؤال على غرة. فالمادية الجدلية ترقب تاريخ العالم في المستقبل البعيد، كما يرقب الفلكي بمنظاره أبعاد الكون البعيد..

[1] – انظر فصل "العلم والعقيدة" في أول الكتاب.

عندئذ تنتهي مهمة الحكومة كسلطة آمرة ناهية مدبرة. وتصبح مجرد تنظيم مدني لتوزيع الخدمات على الملايين.

ويعيش الناس في عالم جميل بطل فيه الصراع وحلت محلة المحبة والوفاء إلى أن يأذن العالم بانقضاء...

*   *   *

ولن تبلغ بنا الجرأة أن نبسط ألسنتنا بسوء الأدب في حق هذا "العلم" الذي "يبحث" و"يقرر" وهو كالغائب في الملكوت، أو "المبسوط" من دخان الحشيش والأفيون! ولن نقول إن الشيوعية الأولى الضاربة في أطناب التاريخ قبل اكتشاف الزراعة والملكية الفردية لوسائل الإنتاج لم تكن ذلك الحلم الذهبي الساحر الذي تسعى الشيوعية الثانية إلى إعادته، ولم تكن تخلو من صراع وحشي بشع على شهوات أخرى غير شهوة السيطرة على وسائل الإنتاج المادي. فقد كان الصراع يقوم بين الرجال أحياناً من أجل امتلاك امرأة –رغم وجود الشيوعية الجنسية– أو يقوم تارة أخرى من أجل رئاسة القبيلة والترد بالسلطان! ولن نقول كذلك إن تجربة الشيوعية في مهدها الأصيل –روسيا– قد تكشفت عن نصرين هائلين في بريا وستالين!

كلا! لن تبلغ بنا الجرأة وسوء الأدب أن نقول شيئاً من هذه الأكاذيب.

وسنصدق ذلك الحلم الساحر الذي "يسرح" في عقول الشيوعيين؟

فعلى أي أساس هو؟

على أساس الغذاء والمسكن والإشباع الجنسي؟

على أساس مادية الإنسان وحيوانيته؟

أم على أساس آخر من النظر إلى الإنسان والحياة؟!

فأما إن كان على أساس أن الإشباع الاقتصادي سيؤدي حتما –بطريقة ذاتية أو غير ذاتية– إلى ارتقاء الناس وارتفاعهم، وتحليقهم في الآفاق الإنسانية العليا التي أساسها المودة والإخاء والتهذيب الخلقي، والارتفاع عن عالم الضرورة وقيود الأرض.. فقد التقينا إذن على كل ما بيننا من خلاف. التقينا على تحديد الغاية العليا للإنسانية. والتقينا على القول بأن

هذه الشيوعية –المادية– التي تحدد المطالب الرئيسية بالغذاء والمسكن والجنس– ليست فكرة أبدية، ولا نظاما طويل الأمد، وإن هي إلا فترة انتقال، تنتهي –كفكرة وفلسفة ونظام– يوم يجد الناس مطالبهم الدنيا، أي حين يتوفر القدر اللازم من الإنتاج. وتكون نهاية الشيوعية رهينة بتلك اللحظة التي يستطيع فيها العلم تحقيق هذه الغاية التي أصبحت اليوم قريبا من قريب!

أما إذا كان على الأساس الحالي نفسه، الذي ينظر إلى الإنسان نظرته إلى الحيوان سواء، فهنا سوف تفاجأ الشيوعية بالحقيقة الكبرى، يوم تحقق حلمها الأكبر من زيادة الإنتاج وتوزيعه على الناس بالعدل والقسطاس!

سوف تفاجأ بجوعة الروح بعد أن تشبع الأجسام.

تلك سنة "الطبيعة" التي نسميها نحن المتأخرين سنة الله، لأننا لا نفهم سبباً منطقيا للعدول عن فكرة الله والقول بفكرة الطبيعة.

سنة الله في خلقه أن جوعة الروح تبدأ بعد اكتفاء الجسد، إن لم تبدأ قبل ذلك.

العصفور حين تمتلئ بطنه بالحب يرفرف بجناحه ويصفر بفمه.. يريد الانطلاق. حتى في غير موسم الجنس والإكثار.

والإنسان كذلك. حين تكتفي مطالب جسده بدرجة معقولة يحس بحنين آخر.. حنين إلى الانطلاق، الانطلاق إلى عوالم أخرى غير عالم الأرض المحدود.

ولن تفلح كل وسائل الوعظ الإلحادي في القضاء على هذه النزعة البشرية، لأنها لا تخص البشر وحدهم، بل هي فطرة الحياة كلها في جميع الأحياء!

ومعقول جدا أن تغرق الروح في ركام المادة حين تجوع الأجساد أو تتحرق شوقا إلى الضرورات. "ولا تجيعوهم فتكفروهم" ولكنه ليس من المعقول أن تظل غريقة في ركام المادة حين تشبع الضرورات وتهدأ الحرقات.

وسترتد الإنسانية حتما إلى العقيدة.

سترتد إليها في اللحظة التي يتحقق فيها الحلم الشيوعي الأكبر، إن لم يكن قبل ذلك بكثير.

سيفيق الإنسان إلى ذاته.. إلى عظمته التي طمرت في تراب المادة وأوحال الاقتصاد. سيفيق إلى أنه طاقة كبرى أوسع بكثير جدا مما أرادت له الشيوعية المادية التي حددت مطالبه الرئيسية بالغذاء والمسكن والإشباع الجنسي. طاقة تشمل جسمه وعقله وروحه كلها في كيان.

وعندئذ ستنتهي الشيوعية. ستنتهي لأنها أدت مهمتها. أوصلت الناس إلى الغاية التي رسمتها لنفسها وحددت بها مطالبها.

أو تتحول إلى نظام آخر..

نظام يشمل مطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح.

نظام يؤمن بالمادة ولكنه لا يغلق بصيرته عما وراء الكون المادي من أنوار وطاقات.

نظام يؤمن بما تدركه الحواس، ولكنه لا يغفل ما لا تدركه الحواس.

نظام يجمع الروح والمادة، ويصل بين الدنيا والآخرة والأرض والسماء.

وذلك هو الإسلام!

وذلك هو النظام الخالد لأنه يتمشى مع كيان الإنسان الخالد. يعرف أنه جسد وعقل وروح، فيمده بمطالب الجسد ومطالب العقل ومطالب الروح.

إنه يتعامل مع الإنسان كله. مع الجوهر الدائم الذي لا يتغير في حقيقته الجوهرية مهما تغير الإطار الخارجي من نظام للحكم أو نظام للمجتمع أو نظام للاقتصاد.

ويعرف حين يتعامل معه أن فيه عنصراً دائماً ثابتاً مقيما على الأجيال، وجوانب متغيرة متجددة متطورة على الدوام.

فيعطي الجانب الأول العقيدة...

ويعطي الجوانب الأخرى نظاما مرنا في الحكم والاجتماع والاقتصاد، يضع الأسس العريضة ويترك للعقل البشري أن يجتهد في حدودها بحسب درجته من التطور والارتقاء.

ومن ثم لا ينتهي..

وكيف ينتهي وهو لا يضع نظاما لفترة معينة أو جيل من الناس. وإنما يتعامل مع "الإنسان" إلى أن ينتهي الإنسان؟

ومن أجل ذلك لا نؤمن بالشيوعية ونؤمن بالإسلام!

صناعة البشرية

كنا نتناول الطعام مرة، وجاءت صحفة من "السلاطة"، مكونة من خضر طازجة لا توابل عليها و إضافات، فقال أحد الحاضرين: أنا لا آكل من هذه الصحفة لأنها خضر خادمة لم "تصنع" بعد!

عندئذ خطر في نفسي هذا الخاطر: إن الناس يرفضون أن يأخذوا شيئاً خاما بلا صناعة. وأيما خامة وجدوها لم يتركوها على حالها، ولم يألوا جهدا في أن يصنعوا منها أشياء جديدة مختلفة الأشكال والألوان. ويحسون بالزهو الغامر كلما استطاعوا أن يبعدوا بها عن خامتها الأولى، وكلما استعصى على الناظر أن يكشف أصلها عُدَّ ذلك إتقانا للصنعة وشهادة لها بالتفوق والافتتان.

وقد قضى الإنسان آمادا متطاولة وهو منطقي مع نفسه في هذا الاتجاه فلم يكتف بصناعة المادة، والابتعاد بها عن أصلها الأول، وابتداع أشكال متعددة من الخامات الواحدة، بل مضى على النهج ذاته في صناعة النفوس! فلم يترك نفسه على خاماتها الأصلية الفطيرة، بل راح يهذبها ويصقلها، ويخرج من ركامها وترابها ألوانا بديعة من الصور الرائعة. راح يخرج من شهواتها النافرة ودوافعها الناشزة نماذج رائقة من المشاعر والأفكار متعددة تعدد أنماط البشرية.

وما من شك أن الخطى في صناعة المادة كانت أسرع من الخطى في صناعة النفوس. لأنها أطوع وأسهل، وأكثر خضوعا للتشكيل والتنويع. بينما النفوس —لحيويتها—لا تثبت على الوضع المطلوب لها بغير مشقة، وبغير رعاية دائمة في الليل والنهار.

وما من شك كذلك أن الخطى في صناعة المادة كانت تسير قدما ولا ترجع، لأن العنصر المسيطر عليها —وهو العلم– يسير في خط صاعد أبداً، يضيف كل يوم جديداً في عالم المادة دون أن يضيع منه القديم، بينما كانت الخطى في صناعة النفوس تتعثر وتضطرب، وتصعد وتهبط، لأن "مادة النفوس" لا تثبت على قرار واحد، ولا تنى ترتد كل هنيهة أو تشرد عن الطريق.

.. ولكنها كانت تسير على أي حال! وكانت حين تتعثر وتضطرب تجد من يدعوها إلى العودة إلى الطريق السوي، وتجد من يندد بانحرافها عن سواء السبيل.

ولكن الإنسان في القرن العشرين يرتد في نكسة كبرى، فينسى منطق وجوده وينسى اتجاهات كيانه، ويروح يسمي هذا التهذيب النفسي والخلقي نفاقا! ويروح يندد بصناعة النفوس، ويقول: لماذا لا نرتد إلى الفطرة. لماذا لا نترك نفوسنا على "حقيقتها". لماذا نقيم الحواجز المصطنعة. لماذا لا نعترف بالحقائق البيولوجية؟!

وى! هل النفوس وحدها هي التي ينبغي أن تترك على فطرتها الخامة بلا تصنيع؟!

بل إنهم لا يقولون ذلك بشأن الكيان النفسي في مجموعه.

فتناول الطعام فطرة البشر، كما هو فطرة جميع الأحياء... فكيف يقول لك الأوروبي المهذب المتمدين إذا رآك تغرس أصابعك في اللحم فيسيل دهنه على يدك و"تتلغمط" به شفاهك!

!Savageمتوحش!

وإنه ليزجرك ويندد بك. ويقول لك إن الإنسان صنع السكين واالشوكة والملعقة "ليهذب" تناول الطعام. ليهذب الفطرة. ليبعد بها عن خامتها الأولى إلى ألوان جديدة رائعة زاهية، تخفي أصلها الأول وتبدو كأنها خلق جديد.

واللباس فطرة.. أو كأنه فطرة. فكيف يقول لك هذا الغربي المهذب المتمدن لو رآك تلبس قطعة من الخيش، أو ثوباً غير مخيط؟ متأخر! لا تفهم الحضارة. لا تفهم أن الإنسان قد تفنن في صناعة الملابس، لينشئ "جمالا" زائداً عن مجرد الضرورة، وليمنح الحياة ثروة واتساعا بتنويع النماذج وتعديد الأنماط.

وكذلك في معظم شئون الفطرة، ومعظم شئون الحياة.

...إلا الجنس! تلك مشكلة القرن العشرين!

في مسألة الجنس ينسى هذا الغربي المهذب المتمدين نفسه. ينسى قصة الصقل والتهذيب، ينسى قصة الجمال الزائد عن الضرورة. ينسى أنه لا يترك شيئاً في الوجود كله على حالته الأصلية الفطيرة. ينسى أنه يتناول الخامات كلها بالتحوير والصناعة. ينسى الملعقة والشوكة والسكين. ينسى أنواع الملابس المختلفة. ويقول لك في تبجح: الجنس مسألة بيولوجية فلماذا نخلطها بالأخلاق؟ لماذا لا نترك نفوسنا على سجيتها؟ لماذا لا نعود إلى الفطرة؟!

وى!

ولماذا يكون الإنسان وحشا إذا غرس يده في اللحم؟ وقذرا متأخرا إذا مخط في يده أو قضى حاجته في الطريق؟

ولماذا تنفرون منه وتتقزز نفوسكم؟ أليس على الفطرة؟ أليس على سجيته بلا تصنع ولا صناعة؟!

كان المنطق يقضي أن نعود بكياننا النفسي كله إلى الغاب أو إلى ظلمة الكهوف، هناك نكون منطقيين مع أنفسنا حيين نعتبر الجنس مسألة بيولوجية لا ينبغي خلطها بالأخلاق، ولا يفرض عليها التهذيب. ونتعرى كذلك من لباسنا، ونغرس أيدينا في اللحم، ونقضي حاجتنا بلا تحرز ولا ستار.

ونترك كل صناعة بشرية. سواء في عالم المادة أو عالم النفوس.

أما أن نتشبث بالحضارة والمدنية، وننتفج في لباسنا وطعامنا ومسكننا وحديثنا وتفكيرنا وتفلسفنا.. ونسير على ذلك في كل أمورنا، ثم نقف فجأة بلا مقدمات ولا منطق، ونلقي عن أنفسنا كل ذلك، ونقف عرايا لا يستر نفوسنا شيء، نقتحم عالم الجنس نقول: فلنكن على الفطرة.. ذلك خبل لا يقدم عليه إنسان في رأسه عقل!

ومع ذلك يقدم عليه سادة "علماء!" محترمون!

علماء في النفس وعلماء في الاجتماع وعلماء فيما لا أدري من ألوان الشرور!

علماء يتحدثون عن الكبت، وعلماء يتحدثون عن التطور، وعلماء يتحدثون عن رجعية الأخلاق والأديان!

وكلهم يدعون الناس أن يعرّوا مشاعرهم الجنسية ويرتدّوا بها إلى فطرتها..

ويسمونه التقدم..!

والصقل والتهذيب، والابتعاد عن الخامة النافرة الناشزة، والجمال الزائد عن الضرورة.. اسمه الرجعية!

حين نحاول تنظيف الجنس من أن يكون كله متاع الجسد الملهوف. حين نستخلص من طاقته الضخمة أفكارا ومشاعر ترتفع عن عالم الضرورة وقيودها القاهرة، لكي تصبح فنونا طليقة، وعواطف حب، ورباط أسرة، ومشاعر أبوة وأمومة.. حينذاك نكون رجعيين متأخرين غير متطورين.

وحين نقتحم عالم الجنس عرايا النفوس، وأحيانا عرايا الأجساد، على الشواطئ المعرّم عليها اللحم، وفي السينمات الداعرة والصحافة العارية والصور المكشوفة، ومقابلات الشبان والفتيات بإذن المجتمع أو بغير إذنه.. نكون متحضرين متحررين من القيود.

ولا يرى الإنسان بذلك أنه ناقض كيانه، وانحرف عن منطق وجوده.

ولا يرى أنه منافق مخادع وهو يزعم لنفسه المدنية والتحضر.

بل يزيد تبجحه فيقول إن "العلم" هو الذي يأمر بهذه الهمجية الضالة المرتدة إلى وحشية الغابة وظلمة الكهوف.

ويزعم الإنسان كذلك أنه تحرر إلى الأبد من وصاية الله عليه. لأنه شب عن الطوق. وتسلم زمام نفسه، وصار يكتب بنفسه لنفسه المصير.

لا جرم إذن يكون مصيره المحتوم هو الهاوية في آخر الطريق!

القيد والحرية

لماذا لا ننطلق من القيود؟!

لماذا نعيش في الأغلال، ونفسد على أنفسنا الاستمتاع بالحياة؟

الفضيلة؟ القيم العليا؟ التسامي عن دفعة الغريزة؟؟

ماذا يساوي ذلك كله؟ ماذا يساوي إذا وضعنا في الكفة الأخرى تلك القيمة الكبرى التي لا يعدلها شيء ولا توزن بشيء.. الحرية..!

حرية السلوك.. حرية التصرف.. حرية التفكير.. حرية الحياة.. الحرية!!

هل يمكن أن يوجد في الحياة شي أثمن من الحرية؟ ألم يكن جهاد الإنسان منذ فجر التاريخ إلى اليوم في سبيل التحرر والانطلاق؟ ولقد حطم القيود واحداً أثر واحد، في عالم المادة وعالم الفكر، في عالم الاقتصاد وعالم السياسة، ولم يبق إلا تلك التقاليد البالية التي يسمونها الفضيلة أو يسمونها الأخلاق. وهي قيد من القيود العتيقة التي تحطمت تباعا إزاء عناد الإنسان وإصراره على تحقيق ذاتيته.. وستتحطم تلك البقية البالية دون شك ما دام الإنسان مصراً على المضي في جهاده النبيل نحو التحرر. نحو الاكتمال.. نحو السيطرة على الوجود كله.. نحو التربع على عرش الكون.. ليصبح كما ينبغي له: القوة الفعالة في هذا الوجود!

* * *

تلك عقيدة القرن العشرين.. عقيدة أوروبا والعالم الذي غلبت أوروبا عليه. يستوي في ذلك الشرق والغرب والشمال والجنوب. وهي عقيدة منطقية مع أوروبا، ومع ظروفها التاريخية وخاصة في القرون الثلاثة الأخيرة.

ولكنها ليست عقيدة الحياة، ولا العقيدة التي تتمشى مع الكيان الحقيقي للإنسان.

وهذا المنطق المغري.. منطق التحرر من القيود كلها لتحقيق أسمى ما في الكيان الإنساني من عناصر.. هذا المنطق ليس منطق الحقيقة!

والغرب اليوم في انطلاقه المجنون لا يتلبث ليرى الحقيقة.

إن الذي تلسعه النار، يجري.. يجري كالمجنون لا يهمه إلا أن يبتعد عن مصدر الحريق، ولا يتلبث خشية أن يقع في الهاوية وهو يجري كالمجنون!

أما السليم الذي يندفع كالملسوع.. ويرى الهاوية ثم يقع فيها.. فهذا هو المجنون حقا دون مبرر للجنون.

والشرق الإسلامي اليوم هو المجنون الذي يندفع للهاوية.. بينما الغرب ذاته قد أخذ يحاول أن يمسك اللجام!

* * *

ينطلق الإنسان وراء رغباته الجامحة؛ كلما دبت رغبة أطلق لها العنان.

..ويظن أنه متحرر من القيود! متحرر لأنه يطيع خلقا ولا دينا ولا عقيدة ولا قيداً واحداً من القيود المفروضة على السلوك.

ولا أريد هنا أن أناقش خرافة "الحرية" في القرن العشرين، وهو القرن الذي شهد في أوروبا خاصة أفظع دكتاتوريات التاريخ في السياسة والاقتصاد، والذي يستعبد الفرد "للدولة" باسم التحرر من الجوع والصراع الطبقي! ولا خرافة التحرر من الخوف، والعالم يعيش في أسوأ فترة من الفزع والاضطراب مرت به منذ فجر التاريخ. ولا خرافة السيطرة على قوى الكون، والإنسان في سبيل أن يدمر حياته بنفسه، بالصواريخ الموجهة والقنابل الذرية، قبل أن تتم له السيطرة على قوى الكوكب الضئيل الذي يعيش فيه، فضلا عن الكون الواسع العريض!

لن أناقش هنا هذه الخرافة..

ولكني فقط أناقش الخرافة الأخرى.. خرافة الشعور بالحرية حين ينفلت الإنسان من قيود الأخلاق.

انظر إلى هذا الفتى المملوء بالقوة والحيوية.. وهذه الفتاة المتوفزة التي ينطلق من جوارحها نداء الحياة.

لقد أحس بالرغبة فيها.. رغبة طبيعية.. رغبة الحياة! وأحست كذلك بالرغبة فيه.

وانطلقت رغبتان متجاوبتان فأطاعتا هاتف الجنس، وحققت كل منهما كيانها متحررتين من القيود!

وهذا شخص آخر لا يشاركهما فيما ينطلقان إليه من "تحرر"..

لا يشاركهما عن عقيدة. أو لا يشاركهما لأنه لا يجد "الآن" رغبة في هذا اللون من المتاع. أو لا يشاركهما لأنه لا يجد السبيل!

لا يعنيني! المهم أنه متفرج يسجل ما يجري أمامه من الأحداث.. فما الذي يراه؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها الفتى ولا الفتاة!

إنه يرى الحبل الممدود الذي ينجر منه الفتى وتنجر منه الفتاة! حبل الشهوة. حبل الرغبة الجامحة التي انقاد لها كل منهما بلا وعي. حبل غليظ لا يملك كل منهما الفكاك منه، لأن قوتهما ضئيلة بالقياس إليه، أو لأنهما لا يقاومان!

هذا الحبل لا يراه الفتى لأنه بالنسبة إليه كالمغناطيسية قوة غير منظورة، يندفع إليها طائعاً مختاراً لأنه هو الذي يريد! ويراه الشخص المتفرج غليظاً مجسما، لأنه بعيد –أو مبْعَد– عن مجاله، فهو غير متأثر به، ولذلك يراه!

أي الوجهين هو الحقيقة؟

ثم نقلب الصورة...

هذا فتى يواجه الإغراء بقلب رابط وقوة ضابطة، يراه وينصرف عنه. ويوجه طاقته الفائرة في مجال جديدة. ويحس أنه "متحرر"! متحرر من ضغط الشهوة. متحرر من الانقياد لهذا الحبل الذي يخزم الأنوف فتنقاد، متحرر من إطاعة هذا الهاتف. متحرر يتوجه بطاقته حيث يريد!

وهذا شخص آخر يتفرج من بعيد دون أن يشارك هذا الفتى عقيدته.. فما الذي يراه؟ إنه يرى صورة أخرى لا يراها هذا الفتى "المتحرر"..

إنه يرى القيد مجسما غليظاً. يرى الحبل الذي يكتف هذا الفتى فيمنعه من الحركة ويزجره عن الانطلاق. هذا الحبل الذي لا يراه الفتى، لأنه يحس أنه قيّد نفسه باختياره.. هو الذي يريد ذلك. ليس الحبل هو الذي يمنعه من إجابة الهاتف، ولكنه هو يتجه بعيداً عنه لأنه لا يريده.

أي الوجهين هو الحقيقة؟ لا أريد أن أحير القارئ بين الوجهين المتناقضين.

سأريحه.. سأقول له: إن كلا الوجهين هو الحقيقة!

القيد والحرية.. حقيقتان متجاورتان. بل حقيقة واحدة ذات صورتين! هذا الفتى الجامح الذي أطاع هاتف الجنس قد تحرر.. تحرر من قيود الأخلاق والدين والمجتمع، وفك كل ضوابط الإنسانية.. وهو في الوقت ذاته قد انقاد للشهوة الجامحة بهذا الحبل المخزوم في أنفه، لأنه –بالتجربة العملية– لا يستطيع أن يقاوم إغراءها.. وليجرب إذا أراد!

وهذا الفتى الرابط مقيد بقيد غليظ: هو الميثاق الغليظ الذي أخذه على نفسه مع الله، فهو لا يريد الفكاك منه، وكلما توغلت في نفسه العقيدة أصبح لا يملك الفكاك. وهو في الوقت ذاته متحرر من قيود الضرورة، يحس بحرية حقيقية إزاء الدوافع الملحة، وينطلق بطاقته إلى آفاق وضيئة من النور.

حرية إزاءها قيد.. وقيد إزاءه حرية. هذه هي الحقيقة البشرية.

ليس القيد في كفة وفي الكفة الأخرى الحرية.. وإنما كل حرية لها قيودها، وكل قيد له حرياته. وفي كل من الكفتين حريات وقيود.

والمفاضلة في واقعها ليست كما تضعها أوروبا والعالم الذي غلبت أوروبا عليه، ليست مفاضلة بين القيد والحرية، وإنما هي مفاضلة بين قيد وقيد، وحرية وحرية.

وهي في حقيقتها المفاضلة بين حرية الإنسان وحرية الحيوان، مقابل التقيد بقيود الإنسان أو التقيد بقيود الحيوان...

وقيود الإنسان اسمها الفضيلة أو اسمها العقيدة.

وقيود الحيوان اسمها الغريزة أو اسمها الشهوة.. أو اسمها المتاع الغليظ.

والإنسان حر بعدُ في أن يظل إنساناً أو يعود إلى حظيرة الحيوان!

الحقيقة؟!

أيهما الحقيقة؟

نظرت مرة من مبنى المجمع العالي فرأيت "الكوبري". كوبري قصر النيل. فخطر لي هذا الخاطر: أهذا هو الكوبري الضخم الذي أمر عليه وأشاهد طوله واتساعه وحركة المرور الدائبة التي تمر عليه؟ أهذا هو ذلك الشريط الضيق المعلق في الفضاء فوق النيل على دعائمه الصغيرة المتواضعة؟

أيهما حقيقة الكوبري؟ أهي التي أراها الآن، إذ أراه كله وحدة متكاملة وأرى على جوانبه رقعة من الفضاء، ولكني أراه بالنسبة للرقعة الواسعة شيئاً صغيراً محدود الآماد؟ أم حقيقته هي تلك التي أراها وأنا عنده إذ أراه ضخما ممتد الأبعاد، لا أكاد أرى شيئاً غيره، بل لا أراه هو إلا أجزاء تلو أجزاء؟

تقول إن النظرة الثانية هي الحق لأنها ترى الواقع كما هو من قريب؟

نعم. ولكنها نظرة جزئية لا تدرك الكل، ولا ترى النسبة بين الأبعاد على حقيقتها. والأولى هي التي تمكنني من رؤية حقيقة الكوبري بالنسبة للماء والشاطئين وبقية الفراغ!

أيهما أصدق؟ النظرة الجزئية التي تكبر الأجزاء وترى كل تفصيلاتها، أم النظرة الكلية الشاملة التي تحدد أبعاد الأشياء كلها بالنسبة بعضها لبعض، ولكنها تهمل الجزئيات أو تضغطها فلا تكاد تبين؟

أي النظرتين ترى الحقيقة؟ أم إنها لا هذه ولا تلك، وإنما هي نسب مختلفة تبدو لي بحسب موقعي من المكان؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذه الفتاة الفاتنة التي تسلب اللب، ولا يملك الفتى إزاءها نفسه، يراها فلا يكاد يشبع من النظر إليها. كل شيء فيها فتنة. وجهها الساحر. عيناها المشرقتان. شفتاها الممتلئتان بالحيوية والنداء. حركاتها. لفتاتها. ضحكاتها. بسماتها. تعبيرات وجهها المتباينة المتلاحقة. النور الذي يشع من كيانها كله، والنار المتأججة من حولها..

هل هذه هي حقيقتها؟ أم هي تلك الفتاة العادية التي يراها الفتى ذاته حين تهدأ الرغبة ويستقر الشواظ؟ فتاة ككل النساء. يا لها من متصنعة. ما هذه الحركات التي لا مبرر لها ولا ضرورة. ما هذا الثقل الظاهر في روحها إذ تحاول أن تلفت نظره إليها وهو لا يريد؟

نقول إن الصورة الثانية هي الحقيقة لأنه يراها بلا هوى ولا تحيز، ولكن الأولى كاذبة لأنه يراها بعين الرغبة المجنونة؟

نعم. ولكن هذه الرغبة ذاتها: أليست حقيقة؟

تريد أن تتأكد؟ انظر إلى صورتها في نفسه مرة أخرى حين تعود الرغبة ذاتها من جديد! حينئذ تختفي "الحقيقة" التي رآها بعينه الباردة مرة، وتظهر "الحقيقة" الأخرى التي يراها بعين الرغبة والاشتعال.

أي الصورتين هي الحقيقة؟ أم إنها لا هذه ولا تلك، وإنما هي انعكاسات مختلفة بحسب مشاعره من الصورة؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذا الرجل الذي تراه لأول وهلة فتستثقل ظله، وترى عيوبه بارزة نافرة منفرة؟

أم هو حين تألفه وتأنس إليه، وترى لطف روحه ومزاياه التي لم ترها لحظة النفور؟

تقول إن الثانية هي الحقيقة، لأنك لم تأنس إليه إلا حين اكتشفت —على مهل وروية– أنك مخطئ في تقديرك الأول، وأن هناك مزايا كانت خافية للنظرة الأولى؟

نعم. ولكن انتظر حتى تبرد موجة هذا الحب، وتنصرف عنه لأمر من الأمور!

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذا المنظر الذي تبصره العين لأول مرة ويتفتح له الوجدان، فإذا كل شيء فيه سحر، وكل معنى فيه جميل. يخفق له القلب كما تخفق العين، وترف حوله الخواطر، ويضطرب الوجدان بشتى الأحاسيس، وتهتز أوتار النفس كلها في امتزاج كامل بهذه التجربة الحية...

أم ذلك المنظر ذاته حين تألفه العين وتألف النفس، فيفقد حرارته، ويمر عليه الإنسان دون اكتراث؟

تقول إن النظرة الثانية هي الحقيقة، لأنها بريئة من بهرة السحر واضطراب الوجدان، فهي لذلك ترى الحقيقة بلا زيادة؟

نعم ولكنها تفقد كل جمالها وكل تأثيرها، تراها العين وحدها ولكن لا تبصرها النفس، والقلب لا يتفتح لها، والوجدان لا يستجيب.. فكأنها غير موجودة بالنسبة إليه..

أيهما إذن هي الحقيقة؟ أم إنها لا هذه وتلك، وإنما هي استجابات شتى وتأثرات مختلفة؟

* * *

أيهما الحقيقة؟

هذه الفكرة التي تملأ نفسي وتملك عليّ مشاعري، وأرى أنها الحق كل الحق، والخير كل الخير، وأن مصيري كله معلق بتنفيذها، ولا حياة لي سواها..

أم الفكرة الجديدة التي نبتت في نفسي بعد عشر سنوات، فاستهجنت بها الفكرة الأولى، وسخرت من نفسي إذ كنت أتعلق بالضلالات والأوهام، وأعتقد أنها حقيقة؟

تقول إنها الثانية، لأن عشرة أعوام من التجارب قد زودتني بالقدرة على الحكم وحسن التقدير؟

نعم قد يكون ذلك. ولكن كيف الحال وقد تعود إلى –لأسباب خارجة عن حسابي– وفزة حارة من وفزات الشباب، فأستهجن أفكاري الحكيمة المتئدة، وأستصوب من جديد ما كنت أستصوبه قبل عشر سنوات؟

أيهما إذن هو الحقيقة؟ وكيف الحكم وأنا ذاتي أمتلئ بالفكرة إلى حد التشبع، ثم أعود فأراها غير ذات موضوع؟

* * *

ومع ذلك يركب الإنسان رأسه، ويتشبث بما يعتقد أنه "الحقيقة"!

ويزعم لنفسه بصرا بالأشياء لا يخطئ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!

ما الحقيقة الواحدة التي ثبتت عندها الإنسانية؟ ذلك تاريخها كله: تخبط من اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين، وإيمان جازم في كلتا الحالتين أنها ترى الحق وتصنع الصواب!

حتى حقائق العلم، المفروض فيها أن تثبت لأنها لا تتأثر بعواطف البشر وانفعالاتهم، حتى هذه الحقائق تتغير، وتتغير معها نظرة العلماء إلى الكون والحياة والأشياء!

* * *

هناك حقيقة كبرى وصل أينشتين إلى طرف منها، ولكن روحه الجاحدة أبت أن تمضي معها إلى نهايتها.

كل الأشياء في هذا الكون نسبية: الزمان نسبي والمكان نسبي والحقائق نسبية.

تلك قضية لا تنطبق على الكون المادي وحده، ولكنها تشمل كذلك حياة البشر وأفكارهم ومشاعرهم..

وثمة حقيقة واحدة مطلق في هذا الكون العريض.. هي الله.

الله وحده هو الحقيقة المطلقة، لأن الحقائق النسبية كلها تنتهي إليه. تنتهي إليه انتهاء مطلقا لأنه هو خالقها، بينما لا ينتهي بعضها إلى بعض إلا "بالنسبة" التي قدرها الخالق بين بعضها وبعض.

والله وحده هو الذي ينبغي أن يعبد ويطاع، لأنه الحقيقة الوحيدة الثابتة في هذا الكون.

وكلمة الله هي العليا...

وحين يشرع لنا الله في الأرض، فهو وحده الذي يرى الأشياء على إطلاقها، ويقدرها بالنسبة لنا. بينما نحن لا نرى من الأشياء إلا زوايا مختلفة، تختلف حين يتغير الموقف أو الشعور!

ولكن الإنسان يركب رأسه، ويرفض أن يطيع الله، ويزعم أن بصره بالأشياء أصدق من بصر خالقه، لأنه شب عن الطوق، وتكشفت له "حقائق" الأشياء!

فمتى يثوب إلى رشده، ويرى الحقيقة الواحدة المطلقة، التي تحدد له موقفه الحق من الأشياء؟

الطريق إلى الله

هل أحسست مرة وأنت تقدم مساعدة لشخص لا تعرفه، فتقيله من عثرة، أو ترفع له حملا لا يقوى على رفعه، أو تناوله شيئاً لا تناله يده، أو تدله على حل لإحدى مشكلاته، أو تقوم له بعمل هو في حاجة إليه.. هل أحسست بالخفة تملأ نفسك، فتكاد تحمل جسمك حملا في الهواء؟ هل أحسست روحك ترفرف عالية مستبشرة، ونشوة خفية تملأ جناحيك؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل استأت مرة من صديق، لأنه يقوم بعمل يؤذيك أو يتسبب في مضايقتك؟ هل هممت أن تقاطعه فلا تكلمه بعد ذلك أبداً؟ هل جمعت أمرك أن تلقيها في وجهه كلمة قاطعة: لست صاحبي ولا أعرفك منذ اليوم؟

ثم رددت نفسك في اللحظة الأخيرة وقلت: إنه بشر، وكل البشر يخطئون. وأنا أيضاً أخطئ أحياناً بغير قصد، ثم يتبين لي ما أخطأت؟.. وهل أقبلت على صديقك تكلمه كأنه لم يسيء إليك، بل تكلمه مقبلا عليه وقد أعطيته نفسك وقلبك.. حقاً لا رياء.. حقاً ينبع من أعماق نفسك؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست نحو إنسان أنك تحبه؟ تحبه ولست في حاجة إليه ولا تنتظر نفعا على يديه؟ تحبه بلا ضغينة له في نفسك ولا غيرة ولا حقد؟ تحبه فلا تقيس نفسك –سراً– إليه وتقول: ألم أكن أنا أولى منه بما هو فيه؟ تحبه فلا تحسده على مزاياه ومواهبه بل تحبها كأنها هي ملكك، وتتمنى له المزيد؟ تحبه فتنجذب إليه كما ينجذب المغناطيس، وتسري روحك على موجات الجاذبية خفيفة مرفرفة نشوانة كالفراشة التي ترفرف للنور؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل فتنتك هذه الفتاة الممشوقة الساحرة النظرات؟ هل أحسست رعشة في كيانك وهزة في فؤادك؟ هل اضطربت نفسك كلها كما تتحرك الرواسب الخامدة في الماء الرائق فإذا كله قد اضطرب وماج؛ تيارات صاعدة هابطة، وذرات تذهب وتجيء. والماء الرائق صار مختلط اللون قد امتلأ "بالعكار"؟

ثم هل تذكرت أنها ليست لك؟ وأنه ليس لك أن تتبعها بخطواتك أو بنظراتك أو بمشاعرك؟ هل أحسست —رغم الرغبة الجامحة التي تكاد تنتزعك من إطارك وتفلت بك من نفسك —أنك متنازل عنها.. عن الشهوة والفتاة، وأنك تسترد أنفاسك اللاهثة وخفقاتك المضطربة.. وتهدأ وتطمئن؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل صفت نفسك في نور القمر؟ هل سرحت طرفك في هذا الكون الحالم الغارق في الضياء؟ هل نسيت نفسك. وأحسست بالحواجز بينك وبين الكون تتذاوب وتختفي رويداً رويداً حتى إذا أنت جزء من العالم الواسع الفسيح، وهو خاطرة تملأ فؤادك؟ هل نسيت أحقادك وضغائنك وما بينك وبين الناس من صراع وتضارب، وأحسست أنك والناس جميعاً ذرات خفيفة هائمة في الملكوت، لا ينبغي أن تتصادم —فالكون فسيح— بل ينبغي أن يخلي بعضها الطريق لبعض، وأن تتجاذب لتسبح معا منسابة في النور؟ هل أحسست أنك طليق كهذا الشعاع السارب في الفضاء ينقل بسمة القمر الحالم إلى وجه الأرض؟ طليق من السلاسل التي تقيدك بالأرض، طليق من شهواتك الجامحة ورغباتك المجنونة، ونوازع الشر الحبيسة؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست بتلك القروش التي في جيبك كأنها ليست لك؟ هل انقطعت السلسلة المتينة التي تشدك إليها وتشدها إليك؟ هل بطل الجذب العنيف الذي يربط كلا منكما بالآخر؟ هل أحسست بدلا من ذلك أن يدك تعبث بها لتخرجها من مكمنها، نشوانة بما تفعل، طليقة من الشح، نشيطة إلى العطاء؟ هل دسستها بعد ذلك في يد فلان من الناس وانطلقت نشيط الخطوات خفيف الروح، كأنك تخلصت من ثقلة كانت تشدك إلى الأرض؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست بالألم يعتصر فؤادك؟ ألم من كل نوع. آلام شتى، كلها مؤلم وكلها شديد.. هل أحسست أنك تتهاوى تحت وطأتها وأنك لا تستطيع احتمالها؟ هل أحسست وخزها يدفعك إلى الصياح.. إلى التأوه.. إلى الانفطار.. إلى انهيار الأعصاب وانهيار السلطان على النفس؟

ثم هل تمالكت نفسك رغم هذا، وقلت تؤسي نفسك وتجمع شتاتها تصبرها.. فليكن ذلك في سبيل الله؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست برغبة تدفعك إلى العبادة؟ رغبة ملحة تقيمك وتقعدك، ولا تجد راحتها إلا ابتهالا إلى الله، واستسلاما لله؟ وهل خشعت نفسك وأنت تلبي هذا الهاتف الذي يدفعك إلى الله، واهتز وجدانك وشعرت بالقشعريرة تسري في كيانك؟ هل أحسست أنك لست في عالم الأرض. لست في تلك البقعة التي يحددها الزمان والمكان المعلوم. وأنك لست أنت هذه الوشائج والعضلات والعظام. وإنما أنت أمام الله ومع الله. وأنت كيان لا حدود له ولا رسم، لأنك روح تقبس من روح الله؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحنقك الشر يمرح في الأرض؟ هل أحسست بهزة الغضب وأنت ترى الظلم يقع عليك وعلى غيرك من بني البشر؟ هل رأيت أنه لا يجوز لك أن تسكت وأنه ينبغي أن تتحرك وتثور؟ وأنك أنت.. أنت قبل غيرك، ينغي أن تقول لهذا الشر مكانك، فقد جاوزت حدك. وهل علمت أنك لا شك متعرض للأذى حين لا تسكت على الظلم، وحين تأخذ على عاتقك أن تقاومه وتعترض سبيله؟ وهل علمت أن الأذى قد يشتد عليك حتى ليسلبك الراحة والأمن ورغد العيش.. وقد يسلبك الحياة.. ثم ظلت نفسك على غضبها، وعلى عزيمتها في الوقوف للظلم وصد العداون؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل ضاقت نفسك بالحياة فما عدت تطيق آلامها وقسوتها؟ هل تملكك الضجر واليأس، وأحسست بالحاجة إلى الشكوى؟ هل تلفت حولك فلم تجد من تشكو إليه؟ لم تجد الصفى الذي يخلص لك حتى لتفتح له نفسك دون تحرج وتطلعه على كل خفاياك؟ أو لم تجد راحة في شكواك إلى الناس؟

ثم هل تطلعت إلى السماء وانفجرت بالشكوى؟ هل وجدت الله وشكوت له بثك ونجواك؟ هل أحسست أن هذا الحمم الذي تطوي ضلوعك عليه قد تدفق وتدفق، وسال كلمات على لسانك وعبرات في عينيك، وأنك أرسلتها كلها إلى القوة الكبرى القاهرة التي تملك كل شيء وتقدر على كل شيء؟ وأحسست بالراحة والبرد والسلام إذ انطلقت تلك الشحنة الحبيسة ووصلت إلى غايتها؟ وهدأت نفسك أنك أودعتها حيث ينبغي أن تودع وحيث لا تضيع؟

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل ألممت بذنب؟ هل جمحت نفسك فانطلقت من عقالها، وأنت تغلبها فتغلبك، أو تسكت عنها منذ البدء فتنطلق إلى حيث يغويها الشيطان؟ هل وقعت الواقعة وانتهى الأمر ولم يعد إلى مرد من سبيل؟

وهل أفقت من غفوتك على لذعات ضميرك؟ هل نكست رأسك خجلا من نفسك أن ضعفت وتلاشيت أمام الإغراء؟ هل أحسست أنك لا شيء؟ أنك تافه لا تستحق التقدير والاحترام؟

هل انقلبت خطيئتك سجناً يحيط بك من كل جانب، لا مهرب منه إلا إليه. وحيثما توجهت سد عليك الأفق وحجبه بالظلمات؟

وهل ضاقت نفسك بالحياة؟...

ثم...

هل انفتحت كوة من عالم الغيب ودخل منها بصيص من النور؟

هل استروحت نسمات تدخل إليك من عالم سحيق؟

هل أحسست بسمة حانية تطل عليك من ملكوت الله؟

هل أحسست يداً رفيقة تأخذ بك من كبوتك؟

هل أحسست صوتاً يهتف بك: (**وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**).

وصوتا آخر يهتف بك: "**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**".

وهل غمرتك غمرة من نور؟

وهل اندفعت قائما تذكر الله وتستغفر الله، وتتوب إليه، وتمسح الخطيئة من ضميرك ، وتعزم عزمة الواثق أن لن ترجع إليها..

وهل أحسست أنك مندفع إلى الله أكثر حماسة مما كنت من قبل، وأشد تعلقا به مما كنت من قبل، وأكثر إقبالا على نوره مما كنت من قبل..

إنها الطريق إلى الله..

* * *

هل أحسست –وقد فرغت من عملك ومن جهاد يومك– أنك لا تملك من أمر نفسك شيئاً؟ وأنك مهما عنّيتها بشئون الحياة فليس من وراء ذلك إلا تعب الخاطر ومشغلة الفكر؟ وأن عليك أن تسعى ولكنك لا تملك نتيجة السعي ولا تعلم أيان مرساه؟

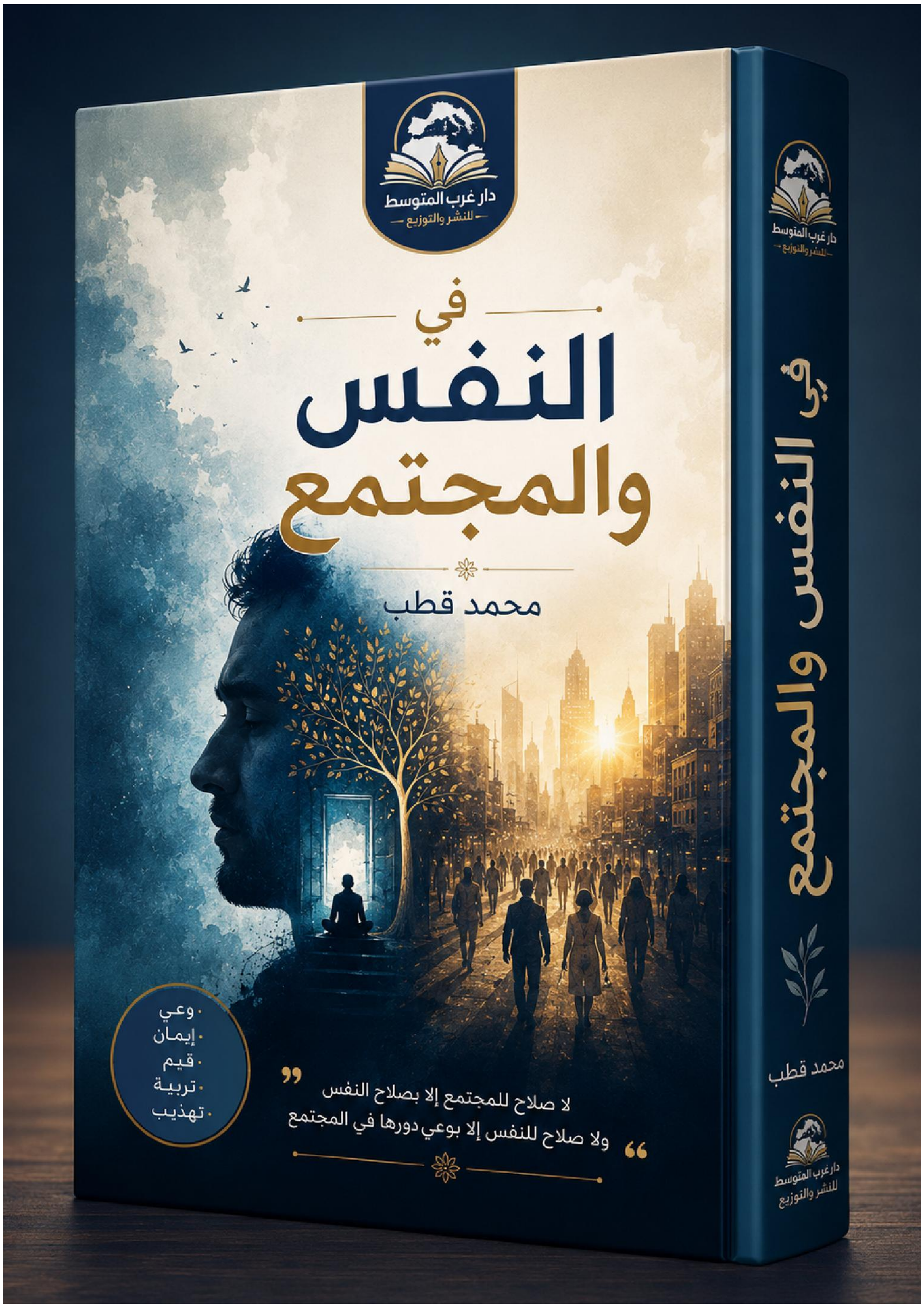
هل شعرت أن القوة الكبرى هي التي تدبر كل شيء وتمنح كل شيء؟

هل شعرت أنك أديت واجبك كما ينبغي، وفي حدود طاقتك، وأنه ليس في وسعك بعد ذلك إلا أن تنتظر أمر الله؟

وهل حداك هذا إلى أن تكل أمرك إلى الله وتضع في رعايته الحمل الذي يثقل ظهرك والمشغلة التي تأكل فؤادك؟ وهل أحسست أنك آمن على هذا الحمل حقاً وهو في رعاية الله؟ وأنه هناك كأنك أنت الساهر على حراسته؟ وهل ملأت قلبك الطمأنينة إليه؟ ونمت وفي خاطرك أنه يرعاك وأنت نائم؟ يدبر لك أمرك وأنت غاف عن الإدراك؟

إنها الطريق إلى الله..

الفهرس


دار غرب المتوسط
للنشر والتوزيع
في
النفس
والمجتمع
محمد قطب
وعي
إيمان
قيم
تربية
تهذيب
لا صلاح للمجتمع إلا بصلاح النفس
ولا صلاح للنفس إلا بوعي دورها في المجتمع